الجمهوريـــة العربيـــة السوريـــة
جـــامعـــة دمـــشـــق
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
قـــســـم الـــتاريـــخ

تصفية الوجود الصليبي في بلاد الشام على الصعيدين السياسي والاقتصادي

678 - 702 هـ / 1279 - 1302م

رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في تاريخ العرب والإسلام

إعداد الطالب
أحمد علي منصور

إشراف الدكتور
عمار محمد النهار

العام الدراسي
2011/2010م

الإهـــــداء

إلى عرين محبتي وضياء قلبي وبسمة حاضري ومستقبلي

(أبي * أمي *زوجتي * ابني)

إلـــــــــــى

أخــوة أحبــاء

و أقــارب أعــزاء

و أصـــــــدقاء أوفيـــــــاء

إهدائي الأخير إلى أخي الدكتور وائل منصور

الذي وقف إلى جانبي طوال مراحل دراستي الجامعية

جزاه الله الخير والتوفيق .

الفهرس

الموضـــــــوع	الصفحة
اهداء.	د
الفهرس	ج
المقدمة.	1
المدخل – تعريف بأهم مصادر البحث .	5
- الفصل التمهيدي:	10
أولاً- قيام دولة المماليك:	11
أ- دور المماليك في حماية العرب والمسلمين.	11
ثانياً- أوضاع الصليبيين عشية حكم قلاوون :	14
أ- الخطط الصليبية في أوربا عشية ظهور قلاوون .	14
ب- مجمع ليون 1274م .	15
ج- المغول في مجمع ليون .	16
د- ماهية الحروب الصليبية.	16
الفصل الأول – دولة المماليك في عصر قلاوون و خلفائه .	17
أولاً – انتقال سلطة المماليك من بيت بيبرس إلى أسرة قلاوون.	18
ثانياً- قيام أسرة قلاوون:	20
ثالثاً: المنصور قلاوون	20
1- ظهور قلاوون .	20
2- صفاته و أخلاقه .	21
3- تطور أحوال قلاوون .	23
رابعاً – حكومة قلاوون و سياسته ومركزه الديني:	25
1- سلطنة قلاوون .	25
2- سياسته الداخلية .	27
3- حكومته و أعوانه .	28
4- سياسته الخارجية .	33
خامساً – أسرته ومن حكم بعده .	35
سادساً : حدود دولة المماليك في عصر قلاوون .	40
سابعاً: الجيش المملوكي .	44

ثامناً : وفاة المنصور قلاوون .	52
الفصل الثاني – معارك التحرير في عصر المنصور قلاوون :	53
أولاً : التحالف المغولي – الصليبي أيام المنصور قلاوون .	54
ثانياً : اتفاقيات الهدنة مع الفرنج :	56
1- الهدنة مع الإسبتار 680ه / 1281م .	57
2- الهدنة مع طرابلس 680ه / 1281م .	58
3- تجديد الصلح مع بيزنطة 680ه / 1281م .	59
4- الهدنة مع الداوية في طرطوس 681ه / 1282م .	61
5- الهدنة مع عكا و صيدا وعثليث 682ه / 1283م .	62
6- الهدنة مع صاحب سيس 684ه / 1285م .	63
7- الهدنة مع مملكة صور 684ه / 1285م .	64
8- الصلح مع ملك أراغون وأخيه صاحب صقلية .	65
9- تجديد الصلح بين قلاوون وصاحب برشلونه .	66
10- الهدنة مع جنوة 689ه / 1290م .	68
ثالثاً : معركة حمص 680ه / 1281م .	69
رابعاً: تحرير المرقب - 684ه/ 1285م :	75
1- مقدمات الفتوح :	75
أ- فتوح قلعة قطيبا 682ه/ 1283م .	75
ب- فتوح حصن الكختا 682ه / 1283م .	75
ج- تحرير مدينة أياس 682ه / 1283م .	76
2- تحرير حصن المرقب 684ه / 1285م .	76
3- تحرير حصن مرقية 684ه / 1285م .	80
4- فتوح اللاذقية 686ه / 1287م .	81
خامساً : تحرير طرابلس 688ه / 1289م .	82
1- تحرير طرابلس	82
2- الاستعداد لفتح عكا 689ه / 1289م .	87
الفصل الثالث – حروب التحرير و التطهير الشامل في عصر الملك الأشرف خليل و خلفائه:	89
المرحلة الأولى - في عصر الأشرف خليل : 689ه/ 1290م:	90
أولاً : الملك الأشرف خليل .	90

ثانياً : تحرير عكا 690ه / 1291م .	92
ثالثاً : تحرير الساحل السوري :	102
1- تحرير صور 690ه / 1291م .	102
2- تحرير صيدا 691ه / 1292م .	103
3- تحرير حيفا 690ه / 1291م .	104
4- تحرير بيروت 690ه/ 1291م .	104
5- تحرير عثليث 690ه / 1291م .	105
6- تحرير جبيل 690ه / 1291م .	106
7- تحرير طرطوس 690ه / 1291م .	107
8- تحرير قلعة الروم (قلعة المسلمين) 691ه / 1292م .	107
9- تحرير بهنسا و مرعش و تل حمدون 692ه/ 1293م .	110
رابعاً- استشهاد الملك الأشرف خليل 693ه / 1294م .	111
المرحلة الثانية- مسيرة التحرير في عصر خلفاء الأشرف خليل :	112
أولاً : الملك العادل زين الدين كتبغا .	112
ثانياً : السلطان حسام الدين لاجين .	113
ثالثاً : السلطان الناصر محمد بن قلاوون :	114
1- معركة مجمع المروج 699ه / 1299م .	115
2- تحرير أرواد 702ه / 1302م .	120
3- معركة شقحب 702ه / 1302م .	121
4- الصليبيون بعد طردهم من الساحل السوري.	126
الفصل الرابع – مقومات ودعائم الاقتصاد المملوكي:	129
أولاً - إدارة الاقتصاد في الدولة المملوكية :	130
1- موارد الدولة.	130
2- النقود والأوزان والمقاييس والمكاييل في عصر المماليك.	134
ثانياً- الزراعة .	140
ثالثاً- الصناعة.	149
رابعاً- التجارة :	153
1- التجارة الداخلية .	153
2- التجارة الخارجية :	162

أ- الرسوم التجارية .	164
ب- نشاط تجار الكارم ودورهم في دعم الاقتصاد المملوكي.	165
ج- التجارة مع الإمارات الإيطالية .	165
د- التجارة مع أفريقيا والشرق.	166
ه- الإتفاقات التجارية الخارجية لدولة المماليك .	167
و- العلاقات التجارية المملوكية - الأوربية وانعكاسها على الوضع السياسي.	172
ز- أبعاد الدور المملوكي في مواجهة القوة الصليبية اقتصادياً.	173
- **الخاتمة** .	177
- **قائمة المصادر المستخدمة** .	180
- **الملاحق** :	188

المقدمة

كان الشرق العربي الإسلامي في العصر الوسيط يعيش إنقساماً داخلياً عنيفاً من الناحيتين السياسية والدينية، فمن خلافة عباسية في بغداد إلى خلافة فاطمية في القاهرة، وبسبب هذا الإنقسام عاشت بلاد الشام صراعاً عسكرياً مريراً بين الخلافتين، وفي خِضم هذه الأحداث، وفي غفلة من العباسيين وتغافل من الفاطميين، تمكن الأربيون بدعوة من البابوية من احتلال بيت المقدس وجميع الساحل السوري من أقصاه إلى أقصاه .

وقد شكل هذا الاحتلال الأوربي الصليبي تحديداً خطيراً للأمة العربية الإسلامية ، ليس على الأرض فقط ، ولكن في معتقداتهم الدينية، وأمام هذا التحدي هب الرأي العام الإسلامي بكل وعي وحماس، ونادى بالتغيير والتصدي للمعتدي المحتل تحت شعار الوحدة والجهاد، فكان عماد الدين الزنكي، ونور الدين محمود ، وصلاح الدين الأيوبي، وكانت الوحدة الإسلامية بين مصر وبلاد الشام التي حققها صلاح الدين بانتصاره في معركة حطين وتحرير بيت المقدس .

على أن راية الوحدة والجهاد تذبذبت بعد صلاح الدين بين الارتفاع والانخفاض وظلت على تذبذبها إلى أن قامت دولة المماليك في مصر، فعادت الراية إلى الإرتفاع والإرتقاء من جديد، فكانت الوحدة بين مصر وبلاد الشام من جديد، وكان الجهاد العربي الإسلامي ضد الصليبيين حتى تم التحرير والتطهير الشامل، فسقطت الحروب الصليبية وسقط شعارها معها، وظلت راية الوحدة والجهاد مرفوعة خفاقة بأيدي المماليك لمجابهة كل من يتجرأ على الأمة العربية الإسلامية، وقد انبرى المماليك لمجابهة الصليبيين على كل الجبهات إلى درجة أنهم نقلوا المعركة إلى عقر دار الصليبيين في جزر حوض البحر المتوسط فداسوا شعلتها بأقدامهم .

في هذه الرسالة تم تسليط الضوء على الدور الكبير والهام الذي لعبته أسرة قلاوون في حركة الجهاد العربي الإسلامي ضد الصليبيين، بأسلوب مبسط وموثق ومبني على أهم المصادر للأحداث. ومن الدوافع وراء دراسة هذه الحقبة الهامة من تاريخ المماليك كان عدد من التساؤلات والقضايا أهمها:

القضية الأولى: هل تابع قلاوون سياسة بيبرس في مواجهة الأخطار الخارجية ، أم وضع سياسة جديدة تعبّر عن استراتيجية نابعة من فهمه للظروف المحيطة بالمنطقة ؟.

القضية الثانية: هي دوافع أسرة قلاوون في تصفية الوجود الصليبي، هل هي بحثاً عن عوامل إقتصادية اقترنت مع نشاط تجار الكارم ونشاطات البندقية وجنوة، أم دوافع جهادية على اعتبار أنهم مسلمين والواجب تجاه الإسلام يفرض عليهم الدفاع عن الإسلام وكرامته ضد أي خطر كان؟.

القضية الثالثة: ظهور مصادر جديدة حول تلك الحقبة من تاريخ المماليك باللغتين العربية واللاتنية، ومصادر آخرى كتبت يوميات فتح عكا من داخلها .

في بداية الرسالة تم وضع تعريف بأهم المصادر التي تم استقاء المعلومات منها، لا سيما أن الكثير من مؤلفيها عاصروا الأحداث وبعضهم شارك بها فكانوا بمثابة شهود على الوقائع التي كتبوها .

ثم يأتي الفصل التمهيدي وذكر فيه قيام دولة المماليك والدور الذي قام به المماليك في حماية العرب والمسلمين بتصديهم للمغول والصليبيين بكل قوة وشجاعة حتى تم طردهم من كامل الأراضي العربية الإسلامية، وتم الحديث عن الصورة السياسية لبلاد الشام عشية ظهور قلاوون، بالإضافة لأمرين آخرين هما الوضع السياسي والقوة العسكرية للصليبيين في سوريا، والاستعدادات الأوربية لدعم الحملات الصليبية الجديدة والتحركات البابوية لخدمة هذا الأمر، إضافة إلى مقارنة بين الصليبيين والمغول من حيث أوجه التشابه والخلاف .

تم تقسيم الرسالة إلى أربعة فصول، شمل الجانب السياسي والعسكري الفصول الثلاث الأولى، وجاء الفصل الرابع للحديث عن الجانب الاقتصادي.

فالفصل الأول: بدأ بقيام أسرة قلاوون ووصولهم إلى سدة الحكم لهذه الدولة ، وكيف تمكن المنصور قلاوون من الاحتفاظ بالحكم في أسرته لمدة قرن، وجعل هذه السلطة وراثية علماً أن المماليك لم يؤمنوا بمبدأ وراثة العرش، ثم التعريف بالسلطان المنصور قلاوون وأولاده وحكومته وأعوانه، وعرض السياسة الداخلية و الخارجية التي أنتهجها سلاطين هذه الأسرة لتوطيد حكمهم وفرض سيطرتهم، وتم التعريف بحدود دولة الممالك وكان الهدف من هذا التعريف إظهار الإمكانات المادية و العبء الكبير الذي وقع على كاهل حكام هذه الدولة في الدفاع عنها. وخُتم الفصل بالحديث عن حجر الزاوية في الدولة المملوكية ألا وهو الجيش المملوكي وبشكل مفصل يظهر المستوى الكبير الذي وصل إليه المماليك في هذا المجال .

أما الفصل الثاني : فقد كان للحديث عن معارك التحرير التي قام بها الملك المنصور قلاوون . ويمكن تقسيم هذا الفصل إلى قسمين رئيسين .

القسم الأول سمي بالحرب الدبلوماسية، حيث بدأ بحلف صليبي– مغولي، كان الهدف منه القضاء على قوة المماليك وتقاسم الدولة العربية الإسلامية، وهنا جاء رد السلطان المنصور قلاوون على هذا التحالف بجملة من الاتفاقات السلمية التي وقعها مع الإمارات الفرنجية في الشام وفي أوربا وصولاً إلى اسبانيا .

أما القسم الثاني كان للحديث عن الحروب العسكرية التي خاضها الملك المنصور ضد كل من المغول والصليبيين، وتبدأ هذه الحروب بمعركة حمص ضد المغول، ثم تحرير حصن المرقب من أيدي الصليبيين وتبع ذلك تحرير اللاذقية وتحرير طرابلس التي كانت أخر الأعمال العسكرية الحاسمة التي قام بها المنصور قلاوون قبل وفاته.

الفصل الثالث: وجاء بعنوان حروب التحرير والتطهير الشامل في عصر الملك الأشرف خليل وخلفائه وقسم إلى مرحلتين : الأولى في زمن الملك الأشرف خليل بن قلاوون والانتصارات الكبرى التي حققها، حيث ارتبطت هذه الانتصارات باسمه وكان أعظمها تحرير عكا، حيث يعتبر تحريرها من المواقع الفاصلة في الصراع العربي الإسلامي مع الصليبيين، ثم كان تحرير الساحل السوري من أيدي الصليبيين والذي بدأ بتحرير صور ثم صيدا وحيفا وبيروت وعثليث وتحرير جبيل وطرطوس وتحرير قلعة المسلمين و بهنسا ومرعش وتل حمدون وجميعُها ذكرت بالتفصيل . وتنتهي هذه المرحلة بذكر استشهاد الأشرف خليل بن قلاوون .

أما المرحلة الثانية فهي مسيرة التحرير في عصر خلفاء الأشرف خليل حيث اعتلى سدة الحكم من بعده الملك العادل زين الدين كتبغا ومن ثم السلطان حسام الدين لاجين وصولاً إلى السلطان الناصر محمد بن قلاوون أشهر سلاطين المماليك وأطولهم في مدة الحكم، وقد تابع مسيرة أخيه وأبيه في مقارعة المغول والصليبيين ، حيث خاض معركة مجمع المروج و معركة شقحب التي وضعت حداً لطموحات المغول في الأراضي العربية، وكان الدافع وراء عرض بعض المعارك الهامة ضد المغول هو التداخل السياسي والتحالفات المشتركة ما بين الصليبيين والمغول ولذلك كان من المهم قراءة صورة المنطقة بشكل كامل، فالعدو واحد سواء جاء من الشرق أو من الغرب . بعد ذلك كان الحديث عن تحرير جزيرة أرواد أخر معقل للصليبيين في الشام، ثم ختم الفصل بالحديث عن أمل الصليبيين بالعودة إلى المشرق حتى بعد طردهم من أرواد .

الفصل الرابع: كان للحديث عن الأوضاع الاقتصادية لدولة المماليك وطبيعة الاتفاقات التجارية المبرمة مع الغرب، و محاولة المماليك اجتذاب رأس المال الخارجي إلى القاهرة ودمشق عبر عشرات المراسيم التجارية المهمة التي كانت تنشر في المشرق وتصل إلى الصين، الأمر الذي أدى إلى تدعيم قوة الدولة الداخلية و الخارجية وحفاظها على مكاسب كبيرة فرض وجودها بين الدول الشرقية و الأوربية، وفي هذا الفصل أيضاً ذكرت المعادن التي كانت مستثمرة في مصر والشام والزراعات في كلا البلدين، والصناعات والطرق التجارية وعمليات الإستيراد والتصدير.

وجاءت الخاتمة لتسلط الضوء على الجديد الذي قدمته هذه الدراسة، وما هو جدواها العلمي ضمن المؤلفات المماثلة الأخرى .

وختم البحث بقائمة أسماء المصادر والمراجع العربية والمعربة والمراجع الأجنبية والموسوعات والحوليات والمجلات التي اعتمد عليها في إعداد هذه الرسالة .

في النهاية أتقدم بالشكر والإمتنان إلى الدكتور المشرف عمار النهار، الذي ماأدخر جهداً في تقديم التوجيه وتصحيح الفصول مرات عديدة، راجياً له التوفيق على ما قدمه لي لإتمام هذا البحث .

والله ولي التوفيق

المدخل

تعريف بأهم مصادر البحث

اعتُمد في هذه الأطروحة على كثير من المصادر والمراجع التي سترد في نهاية الرسالة بشكل مفصل، إلا أن هناك بعض المصادر كان لها التأثير الكبير في الرسالة وسيتم عرضها ونقدها وإيضاح أهمية استقاء المعلومات منها ولا سيما أن الكثير من مؤلفيها عاصروا الأحداث وكانوا شهود عيان على الوقائع التي كتبوها بحكم عملهم وقربهم من سلاطين المماليك، وقد تم ترتيب هذه المصادر بحسب أقدمية وفاة المؤرخ .

1- ياقوت الحموي، شهاب الدين أبي الفضل عبد الله - ت 626هـ/ 1228م:

معجم البلدان: كتاب مهم جداً لكل عصر، يتفوق على أي كتاب من نوعه ومادته مأخوذة من مصادر موثوقة ولا سيما من أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم للمقدسي المتوفى سنة 275هـ /985م، ومعلوماته على درجة عالية من الأهمية، فهي معلومات شاملة تقدم صوراً جغرافية كاملة مع التعرض إلى النواحي الأخرى سياسية واجتماعية واقتصادية وإدارية، واعتمد المؤلف أسلوب التصنيف المعجمي مما يسهل استخراج المادة، وقد شملت مواده أكثر المواقع والأصقاع التي عرفت في زمانه، كما أن لديه معلومات لم تذكر عند غيره، وقد استفيد من الكتاب كثيراً في التعريف بالمواقع والأمكنة التي وردت في البحث.

2- ابن العبري، غريغوريوس بن هارون الملطي – ت 685 هـ / 1286م:

تاريخ الزمان، المعروف بتاريخ ابن العبري: تعريف إسحاق أرملة، وللكتاب تكملة حتى سنة 697 هـ / 1297م بقلم المؤلف برصوم الصَّافي، وهما من الطائفة السريانية، والمؤلف لا يخفي ابتهاجه بانتصارات الفرنجة والمغول على المسلمين واستياءه من انتصار المسلمين.

3- ابن عبد الظاهر، محي الدين - ت 692هـ / 1293م :

أ- تشريف الأيام والعصور بسيرة الملك المنصور: هذا الكتاب من أوسع المصادر وأدقها عن المنصور والأشرف، وكان المؤلف بحكم عمله في ديوان الإنشاء لدى الملك المنصور، بمثابة أمين سرّه ومستشاره، يمكنهُ الإطلاع على أسرار الدولة ممالا يعرفه الآخرون. وقد تتطوع المحقق بإضافة 90 صفحة في أول الكتاب وحوالي 120 صفحة في آخره فجعل منه كتاباً جديداً لأكثر من مؤلف، والكتاب الذي يعني الرسالة محصور بين صفحة 91 وصفحة 182 فقط، وعلى الرغم من أن المؤلف يجامل السلطان، إلا أن وجوده في قلب الأحداث وما ذكره من أحاديث السلطان معه يجعل من الكتاب مصدراً من الدرجة الأولى.

ب- الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر: في هذا الكتاب معلومات عن الأمير قلاوون قبل سلطنته، لا يوجد في غيره من المصادر.

4- المنصوري، الأمير بيبرس المنصور الدوادار – ت 725 هـ/1325م :

أ- مختار الأخبار: في الكتاب سيرة الملك المنصور وولديه الأشرف والناصر حتى سنة 702هـ / 1303م . والمؤلف وثيق الصلة بالسلطان الملك المنصور قلاوون، وتولى عدة وظائف مهَّمة في عصره وعصر أولاده،وشارك في جميع معارك التحرير التي خاضها المنصور والأشرف خليل . ويمتاز كتاب " مختار الأخبار" بالاختصار، ولذلك فهو يضم معلومات ابتداءً من سيرة صلاح الدين الأيوبي حتى سيرة الملك الأشرف خليل بن قلاوون.

ب- التحفة الملوكية في الدولة التركية : الكتاب ممتاز، لكن التحقيق سيء للغاية، فقد ذكر المحقق وهو يعّلق على الخليفة العباسي الأخير المستعصم صفحة 38، أنه ثامن الخلفاء العباسيين، والأخطاء المماثلة كثيرة، وينتهي الكتاب بحوادث سنة 711هـ/ 1311م .

ج- زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة: الجزء السابع، وهذا الجزء يغطي الحقبة من سنة 650هـ - 709هـ، وهو كتاب مثل كتب المنصور الأخرى، مصدرُ ممتاز لعصر قلاوون والأشرف خليل والناصر محمد.

5- اليونيني، قطب الدين موسى بن محمد – ت 726 هـ/1326م :

ذيل مرآة الزمان: طبع في حيدر آباد في الهند سنة 1960م في أربعة مجلدات، تبدأ من سنة 654هـ وتنتهي بحوادث ووفيات سنة 686هـ . ولقد تم الإعتماد على نسخة مخطوطة لتغطية الحوادث من سنة 687هـ وحتى سنة 702هـ لأن الكتاب المطبوع لا يغطي تلك الحقبة، والكتاب غني عن التعريف، وهو واحد من ثلاثة كتب تشكل المصدر الرئيسي لقيام دولة المماليك حتى أيام الناصر محمد بن قلاوون، والكتاب هو ذيل على" مرآة الزمان في تاريخ الأعيان" لسبط ابن الجوزي .

6- العسقلاني، شافع بن علي - ت 730 هـ/1329م :

الفضل المأثور في سيرة السُّلطان الملك المنصور: والكتاب مصدر مهم لأن المؤلف شارك في معركة حمص مع التتار سنة 680هـ/1281م، وانفرد بمعلومات عن السلطان المنصور قلاوون، لا نجدها في غيره من المصادر.

7- أبو الفداء، إسماعيل بن علي الملك المؤيد - ت 733هـ/1332م:

المختصر في أخبار البشر، المعروف بتاريخ أبي الفداء: طبعة مصورة عن الطبعة الأولى، دار الكتاب اللبناني، مجلدان في سبعة أجزاء 1970م.

والمؤلف معاصر للأحداث، وساهم بنفسه في عدد من المعارك أيام المنصور قلاوون والأشرف خليل والناصر محمد ولا سيما تحرير قلعة المرقب سنة 684هـ / 1285م، وبذلك كان شاهد عيان على هذه الأحداث، قام أبو الفداء باختصار كتب غيره ولا سيما كتاب "الكامل " لابن الأثير، وهو

يبدأ كتابه من ابتداء الزمن وحتى قبيل وفاته، وقد كان الكتاب مصدراً مهماً جداً من مصادر البحث مع أن القسم الأخير من الكتاب للسنوات العشرة الأخيرة من حياة أبي الفداء جاء مختصراً جداً، ويكاد يكتفي بحوادث الوفاة التي تقع في السنوات التي دونها، لأن الكتاب اعتمد أسلوب الحوليات .

8- النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب- ت 733 / 1332م:

نهاية الأرب في فنون الأدب: عاصر المؤلف السنوات الأخيرة من حكم قلاوون، كما عاصر ابنيه الأشرف خليل والناصر محمد . والكتاب موسوعي يشمل سائر النشاط العلمي من زراعة وصناعة وتجارة وإدارة واجتماع وأخلاق، ولقد استفيد من هذا الكتاب الكثير عن الحقبة المملوكية وخصوصاً في الإدارة والضرائب والمالية وأبحاثه التي جاءت في الجزء الثامن من الكتاب، والكتاب مهم جداً، أخذ من مصادر موثوقة واستند إلى وثائق بين يديه، قدم منها نصوصاً كاملة مع ذكر المصدر أو صاحب الوثيقة أو الرسالة أو نصوص محاضر مجالس الحكم وكتب دواوين الإنشاء.

9- الجزري، شمس الدين محمد بن إبراهيم الجزري – ت 739ه/1338م :

أ- تاريخ حوادث الزمان وأنبائه، ووفيات الأكابر والأعيان من أبنائه، المعروف بتاريخ ابن الجزري: لم يتحدث أحد مَّمن ترجم للجزري عن بداية الكتاب ونهايته، وجاء في الموسوعة العربيَّة أنه بدأ بسنوات تسبق ميلاد مؤلفه، والواقع أنه يبدأ بحوادث سنة 593 هـ ويستمر حتى سنة 738 هـ، كما ذكر الذهبي الذي اختصر قسماً من الكتاب . وقد نشرت المكتبة العصرية في صيدا قطعة من تاريخ الجزري بتحقيق : عمر عبد السلام التدمري سنة 1993م وتشمل:

-المجلد الأول: وفيه الحوادث والوفيات من سنة 689هـ- 699هـ/1290م-1299م

-المجلد الثاني: وفيه الحوادث والوفيات من سنة 725هـ- 732هـ/1325م-1332م

-المجلد الثالث: وفيه الحوادث والوفيات من سنة 73هـ- 738هـ/1333م-1338م.

والكتاب يشكل مع تاريخ اليونيني و البرزالي أفضل مصدر لتاريخ دولة المماليك، ولاسيما في دمشق منذ قيامها حتى سنة 738هـ . وابن الجزري ينقل كثيراً عن تاريخ البرزالي، كما أنَّ اليونيني نقل كثيراً عن تاريخ ابن الجزري، ويمتاز عن تاريخ البرزالي بما فيه من معلومات تاريخية .

ب- المختار من تاريخ الجزري: الذي نقله الحافظ الذهبي، وقد اختار حوادث متفرقة من سنة 593هـ - لسنة 698هـ، وقد نشر بتحقيق خضير بن محمد خليفة، والتحقيق سيء، وقد نشرته دار الكتاب العربي في بيروت سنة 1408هـ - 1988م، وفي هذا المختصر حوادث لا توجد فيما نشر من الكتاب الأول "الأصيل".

10- الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك- ت 763ه/1362م :

أ-أعيان العصر وأعوان النصر: الكتاب من المصادر المهمَّة لعصر المماليك الأوَّل.

ب- الوافي بالوفيات: وقد قامت جمعية المستشرقين الألمانية بإصدار هذا الكتاب في حوالي ثلاثين مجلد، فهو بذلك من أوسع كتب التراجم في التاريخ العربي، وهو موسوعة تاريخية وأدبية مهمة .

11- ابن حبيب، الحسن بن عمر- ت 779هـ / 1377م:

تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه: 3 مجلدات. والكتاب موسوعة مختصرة عن عصر السلطان المنصور قلاوون وأولاده، والمؤرخ ، فهو معاصر لأولاد الناصر محمد وأحفاده، ومن هنا تأتي أهميته .

12- ابن الفرات، محمد بن عبد الرحيم- ت 807ه/1405م:

تاريخ الدول والملوك، المعروف بتاريخ ابن الفرات: على الرغم من أن ابن الفرات ليس معاصراً للأحداث مثل اليونيني وأقرانه، إلا أن كتابه ضمَّ معلومات مهمَّة ومفصَّلة عن تاريخ السلطان المنصور قلاوون والأشرف خليل، لا نجدها في الكتب الأخرى، ولا سيمَّا نصوص المعاهدات التي أمضاها المنصور مع الفرنجة.

13- القلقشندي، شهاب الدين أحمد بن علي - ت 821هـ / 1418م :

صبح الأعشى في صناعة الإنشا: وهو موسوعة حضارية كاملة للعالم الإسلامي تغطي النواحي التاريخية والجغرافية والسياسية والأدبية والاجتماعية والعلمية والإدارية ونظام الحكم، وقد اعتمد المؤلف على مصادر مهمة منها تقويم البلدان لأبي الفداء ومسالك الأبصار لابن فضل الله العمري، ويضيف المؤلف عما استقاه من معلومات عن المصادر الموثوقة ما أتيح له معرفته والوثائق التي تحت يديه بصفته رئيساً لديوان الإنشاء، ويقدم المعلومات ويوثقها بالوثائق الرسمية الصادرة عن ديوان الإنشاء.

14- المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي الشافعي المقريزي– ت 845 هـ/ 1441م:

أ- السلوك لمعرفة دول الملوك: تحقيق محمد مصطفى زيادة، التحقيق ممتاز ضاعف من قيمة الكتاب، ولكن أساء إليه أمران:

- الطباعة السيئة للكتاب – وتقسيمه إلى أجزاء وأقسام، ولو أعيد نشره كما نشرت الخطط للمقريزي لكانت الفائدة عامَّة، لأنَّ المقريزي مؤرخ مدقق عالم بما يكتب، وكتاب السلوك موسوعة تاريخية إسلامية ممتازة، وقد قام عبد القادر عطا بتحقيق الكتاب من جديد عام 1997م، و أصدرته دار الكتب العلمية في بيروت في ثمانية مجلدات، ولكن التحقيق سيءٌ للغاية، حذف فيه المحقق كل التعليقات المفيدة الموجودة في الطبعة الأولى، ووقع في أخطاء كثيرة أساءت إلى الكتاب.

وللسخاوي ذيل على السلوك سماه "التبر المسبوك في ذيل السلوك".

ب- المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار المعروف بخطط القاهرة، تحقيق: أيمن فؤاد السيد، في خمسة مجلدات، والتحقيق الممتاز جعل من الكتاب أفضل موسوعة لتاريخ القاهرة على مدى 15 قرناً، وهو ما لم يتوفر لأي عاصمة عربية أخرى.

ج- شذور العقود في ذكر النقود. تحقيق: محمد بحر العلوم، وقد تم الاستفادة من معلوماته فيما يخص الجانب المالي والتعاملات الإدارية في دولة المماليك .

15- ابن سباط، حمزة بن أحمد الغزي – ت 930هـ/ 1531م :

صدق الأخبار، ويعرف بتاريخ ابن سباط: تحقيق: عبد السلام تدمري. والكتاب يؤرخ للحقبة من سنة 526هـ حتى سنة 926هـ أي لأربعة قرون كاملة، وفيه نقص كبير، وقد اعتمد على من سبقه من المؤرخين، أما في القرن العاشر، فالمؤلف يذكر مشاهداته الخاصة وهنا تكمن أهمية الكتاب .

وهنا لابد من ذكر بعض المراجع العربية والمعربة التي تمت الاستعانه بها في إنجاز البحث وهي:

1- رنسيمان، ستيفن :

تاريخ الحروب الصليبية. ترجمة: السيد الباز العريني، طبعة مصورة نشرتها دار الثقافة في بيروت سنة 1980م، في ثلاث مجلدات، والكتاب من المراجع المهمَّة التي تعكس وجهة نظر المؤرخين الغربيين المنصفين، كما أن الكتاب يبين موقف الصليبيين من المسلمين وينتقد التصرفات غير الإنسانية لعدد من قادة الحروب الصليبية الغربيين، وفيه معلومات مهمَّة عن التحالف المغولي – الصليبي.

2- زكار، سهيل:

الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية: دار الفكر، دمشق 1995 م. يعد هذا العمل الذي قام به سهيل زكار والبالغ ثمانين مجلداً ، محاولة جدية لإرساء مصادر التأريخ لحروب الفرنجة من وجهة نظر عربية إسلامية، ولم يهمل وجهة النظر الغربية وعرضها كما هي.

3- سرور، محمد جمال الدين:

دولة بني قلاوون في مصر: القاهرة 1947م، مرجع ممتاز وموثق، ويتحدث فيه المؤلف أيضاً عن العلاقات السياسية والاقتصادية والعسكرية بين مصر وأوربا ودولة المماليك في حماية الإسلام والمسلمين.

4- الصالح، صبحي:

(النظم الإسلامية): منشورات مؤسسة الشريف الرضي، إيران 1996م. والكتاب يقدم تحديداً دقيقاً للمكاييل و الموازين و المقاييس الإسلامية.

الفصل التمهيدي

أولاً- قيام دولة المماليك

- دور المماليك في حماية العرب والمسلمين.

ثانياً- أوضاع الصليبيين عشية حكم قلاوون :

أ- الخطط الصليبية في أوربا عشية ظهور قلاوون.

ب- مجمع ليون 1274م.

ج- المغول في مجمع ليون.

د- ماهية الحروب الصليبية.

الفصل التمهيدي

أولاً- قيام دولة المماليك:

في يوم السبت 30 ربيع الآخر 648هـ 30 تموز 1250م اتفق أمراء المماليك في القاهرة على تنصيب أتابك* العسكر عز الدين أيبك سلطاناً على مصر، وبذلك يكون المماليك، وللمرة الأولى في التاريخ الإسلامي، قد مارسوا الحكم بصورة مباشرة، بعد أن كانوا يحكمون من خلف الستار. وقد عرف هؤلاء بالبحرية، أو المماليك البحرية وهم في غالبيتهم من مماليك السلطان الكامل الأيوبي وولده الصالح نجم الدين أيوب، وكان كبيرهم فارس الدين إقطاي، ومنهم بيبرس البندقداري وقلاوون الألفي وخشداشيتهم أي (رفاقهم المقربون)، وكان في دمشق الملك الناصر يوسف الأيوبي (الثاني) ومعه فئة من المقاتلين عرفت بـ"المماليك القيمرية" الذين لم يرضوا بما قام به البحرية في مصر، وحصلت مناوشات بين الناصر في الشام والبحرية في مصر، واتفق الطرفان على أن يستقل الناصر بحكم الشام، ويحكم البحرية مصر، وقد ساهم آخر الخلفاء العباسيين المستعصم بواسطة رسوله نجم الدين البادراتي مساهمة فعالة في إقرار هذا الصلح.[1]

وبذلك يكون التاريخ الرسمي لقيام دولة المماليك في مصر هو سنة 650هـ / 1250م، والتاريخ الرسمي لانضمام الشام إلى دولة المماليك هو شوال سنة 658 هـ/ أيلول 1260م عقب معركة عين جالوت. وبذلك غدت القاهرة عاصمة الكفاح العربي الإسلامي على مدى أكثر من 250سنة، وانتهى دور بغداد تماماً، وقد حكم هذه الدولة سبعة وثلاثون سلطاناً. وهو عدد السلاطين العثمانيين نفسه[2].

أ- دور المماليك في حماية العرب والمسلمين:

بعد ما قام به نور الدين وصلاح الدين من أعمال جهاد مستمر ضد الصليبيين، جاء المماليك وبالتحديد الملك الظاهر بيبرس، والمنصور قلاوون والأشرف خليل ليكملوا هذه المسيرة التي زاد

---

*- أتابك: لفظة تتألف من كلمتين مركبتين : أتا ؛ بمعنى أب - بك ؛ بمعنى السيد . أي السيد الأب، أو أبو الأمراء الذي مهمته الوصاية على أولاد السلطان وتربيتهم ، وفي العصر المملوكي تطور مدلول هذا اللقب ليطلق على أمير الجيش وقادته- القلقشندي، أحمد بن علي : صبح الأعشى ، تح : محمد شمس الدين ، بيروت 1987 م ، 14 مجلد، ج4، ص 20 .

(1) الجزري، محمد بن ابراهيم : تاريخ حوادث الزمان وأنبائه ووفيات الأكابر والأعيان من أبنائه، المعروف بتاريخ ابن الجزري، تح : عمر عبد السلام التدمري، 3 مجلدات، المكتبة العصرية، صيدا 1998م، م3، ص 230.

- المنصوري، بيبرس: التحفة الملوكية في الدولة التركية، تح :عبد الحميد صالح حمدان - الدار المصرية اللبنانية، القاهرة 1987م، ص27.

(2) أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر دار المعارف، القاهرة 1998م، م2 في ست أجزاء، ج3، ص190و214.

- المنصوري، بيبرس : التحفة الملوكية في الدولة التركية، ص43 وما بعد .

- زامباوَر : معجم الأنساب والأسرات الحاكمة، دار الكتاب العربي، بيروت 1980، ص 163 و240.

من أعبائها ظهور عدو جديد على جبهة جديدة وهم المغول ، فبعد سقوط بغداد سنة 656هـ/1258م ظهر خطر المغول وانتشرت في العالم الإسلامي أخبار المذابح الجماعية التي أعدّت للمسلمين في الدولة العباسية ولا سيما بغداد، حيث تقدم المغول نحو مصر والشام بالتنسيق مع الصليبيين، كل ذلك جعل صورة المسلمين وأوضاعهم مرعبة وفي خطر عظيم .

فالحصون الصليبية على الساحل في عكا وطرابلس وصيدا وصور وبيروت وأرواد وغيرها ما تزال قوية تتلقى الدعم من أوربا بصورة مستمرة، والباباوات وجدوا الفرصة سانحة لتنصير المشرق والعودة به خمسة قرون إلى الوراء، وملك فرنسا لويس التاسع يقود الحملة بعد الحملة للسيطرة على الشرق الإسلامي بحقد دفين وعزم مكين .

ومن هنا فقد كان ما قام به سلاطين المماليك الأوّلين ولا سيما قلاوون وأولاده يعد صفحة ناصعة في تاريخ هؤلاء القادة الذين جيء بهم إلى مصر والشام رغماً عنهم، ولم يكونوا يحسنون لغة أهلها، ومع ذلك حاربوا بقوة نادرة الشعوب التي جاؤوا منها، ووقفوا مع العرب والمسلمين مواقف مشرّفة، حاول الكثيرون في الغرب والشرق على حد سواء أن يصفوها بأنها استعمار تركي للعرب والمسلمين.

يقول وليم موير: " إننا نعجب أشد العجب من أن نيراً أجنبياً يثقل كاهل الناس ويخوفهم طويلاً ثم لا يحاولون القضاء عليه. والحق أنني لم أستطع تفهم السبب في استمرار هذا الحكم، ومن العسير أن نجد سبباً لخضوع سوريا خضوعاً تاماً للمماليك. إن سيادة المماليك لا تزال ظاهرة من الظواهر الغريبة التي تجّل عن الاستقراء في هذه البلاد كثيرة العجائب ".[1]

إن ما يذكره "موير" وغيره من الغربيين الذين كتبوا عن المماليك يدل على عدم معرفتهم بالشعب الذي يدافعون عنه.

لقد رحب أهل الشام بقدوم الملك المظفر قطز بعد انتصاره التاريخي على التتار في عين جالوت، كما رحبوا بانضمام الشام إلى مصر لأنهم وجدوا أن هذا الاتحاد منذ عصر نور الدين قد حقق لهم تلك الانتصارات الخالدة على الصليبيين في حطين والمنصورة وغيرهما.

ليس ذلك فحسب، بل إنه على كثرة القلاقل السياسية التي أتت على دولة المماليك فإنه لم يفكر أحد في فصل الشام عن مصر وهو ما لم يفهمه من جاء بعدهم من الناطقين بالضاد.

لقد كان طبيعياً أن يلتف الناس حول سلاطين المماليك الذين أنقذوهم من خطر الإبادة الشاملة التي سمعوا عنها من أجدادهم في أنطاكية والمعّرة والقدس في بدايات الحروب الصليبية، لقد كانت دولة المماليك هي القلعة التي ردت عن المسلمين في مصر والشام هجمات الصليبيين وحلفائهم التتار وإزاء ذلك لا نرى وجهاً لاستغراب "موير " وأنصاره وإن الغرابة الحقيقية ليست في الخضوع لحكم

---

(1) موير، وليم : تاريخ دولة المماليك، القاهرة 1924م، ص189 و190.

المماليك المسلمين، ولكنها في عدم فهم هذه الظاهرة البسيطة وهي عدم اتحاد شعب مسلم، اتحد الصليبيون في العالم لإبادته.[1]

لقد كان المسلمون يعلّقون آمالهم على الخلافة العباسية ودولة الفاطميين في مصر. فأما الخليفة العباسي في بغداد، فقد بكى لتأثره بما فعله الصليبيون في الشام، وبكى المسلمون في مساجد بغداد، وقرئت الختمات على نية النصر للمسلمين، وانتهى الأمر عند هذا الحد، وأما الفاطميون والذين سقطت القدس وهي في أيديهم فقد كانوا في مرحلة من الضعف تسلط فيها قادة الجيش على الخلفاء، ورغم ذلك الوضع قاموا رداً على سقوط القدس بثلاث حملات هي الرملة الأولى والثانية والثالثة، حققوا من خلالها انتصارات لا بأس بها.

يقول وليم الصوري: إنه عندما كان الصليبيون يحاصرون أنطاكية وصل إليهم وفد "رسمي"من مصر، ذكر أعضاؤه أن خليفتهم وحكومتهم قد سرّوا كثيراً بالانتصارات التي يحققها الصليبيون على قلج أرسلان وسقوط نيقية بأيديهم، ورأى الخليفة الفاطمي أن خسائر الأتراك مكسب له، ولذلك أكد على الصليبيين بضرورة مواصلة حصار أنطاكية، وحضر قادة الفاطميين مع الصليبيين المداولات المتكررة لبحث الأمور العسكرية.

هنا نهض كل العرب والمسلمين من المغرب والمشرق للجهاد ضد الصليبيين وقاد هذا الجهاد سلاطين وأمراء لم يكونوا من الجنس العربي ، فأول من تصدى للصليبيين في مصر والشام كان الأمير التركماني طغتكين وابنه بوري وابنه شمس الملوك، والأمير معين الدين أنر، والأمير عماد الدين زنكي، وابنه نور الدين محمود، ومن بعده صلاح الدين الأيوبي، والصالح أيوب، ثم المعز أيبك، ثم المظفر قطز، والظاهر بيبرس، ثم قلاوون وأولاده .

وهؤلاء الحكام كانوا من التركمان والأتراك والأكراد والقبجاق وغيرهم، وهذا لا يعني أن دولة المماليك كانت تركية أو أعجمية، بل كانت عربية بلغتها ودواوينها وأدبها وتراثها وحضارتها، تماماً كما كانت في العصر العباسي ونشأ في ظلها العلماء والمؤرخون وأصحاب الموسوعات الكبرى، كما هو معروف ومتواتر. ولم تصبح الدولة العربية في مصر والشام تركية إلا في العصر العثماني الذي فرضت فيه اللغة التركية لغة رسمية للدولة، ونقلت العاصمة للمرة الأولى في التاريخ العربي إلى خارج الوطن العربي، وهو أمر ليس هذا مكانه.[2]

---

(1) العلبي، أكرم حسن : دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين ، الشركة المتحدة للطباعة والنشر، دمشق 1982 م، ص20.

(2)العلبي : دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين، ص 21 .

ثانياً- أوضاع الصليبيين عشية حكم قلاوون:

لا بد لمعرفة ما قام به السلطان المنصور قلاوون وولده الأشرف خليل والناصر محمد، وما فعله السلطان كتبغا و لاجين وبيبرس الجاشنكير من الإلمام بأمرين:

- الوضع السياسي والقوة العسكرية للصليبيين في سورية.

- الاستعدادت الأوربية لدعم الصليبيين في سورية والقيام بحملات صليبية جديدة، ويدخل في ذلك بداهة التآمر والتحالف الصليبي - المغولي ضد المماليك على جميع المستويات.

فأما الصورة السياسية لبلاد الشام عشية ظهور قلاوون فكانت كالآتي:

1- الإمبراطورية البيزنطية في أقصى الشمال، وهذه كانت دولة صديقة للمماليك في الغالب.

2- مملكة الأرمن وكانت محصورة بين الدولة البيزنطية ودولة المماليك وكانت تساعد سراً وعلناً كل من يريد القضاء على دولة المماليك في الشرق والغرب، وكانت رأس حربة للتتار وقد شارك أهلها في جميع معارك المغول في الشام منذ عين جالوت وحتى معركة شقحب سنة 702 هـ/ 1303م.

3 - دولة المماليك في الشام ومصر وبرقة والسودان واليمن والحجاز وسآتي على تفصيل ذلك.

4- الإمارات الصليبية وهي:

أ- مملكة عكا، وهي قاعدتهم الأولى وحصنهم الحصين والتي عجز الملوك منذ عصر صلاح الدين وحتى عصر الأشرف خليل عن فتحها .

ب- إمارة طرابلس ولم تكن أقل حصانة وخطراً من عكا .

ج- اللاذقيةو طرطوس و أرواد وبيروت وصيدا وصور وحيفا وعثليث وما حولها.

د- جزيرة قبرص، التي كانت المركز الرئيسي لإعداد الحملات الصليبية وإرسالها إلى الشام.

أ- الخطط الصليبية في أوربا عشية ظهور قلاوون:

كان يعاصر قلاوون في أوربا رئيس أساقفة لييج الذي صار فيما بعد " البابا جريجوري العاشر" وقد كان شغله الشاغل قبل البابوية وبعدها إحياء الروح الصليبية في أوروبا، وانتشرت دعواته لرفع الصليب والقتال في الشرق حتى وصلت إلى أيسلنده وفينلنده وجرين لاند، غير أنه كان ينفخ في قربة مثقوبة، ولم تلق دعواته أدنى استجابة من أحد، لأن ملوك أوربا وأمراءها وحتى رهبانها كانوا من أكثر الناس معرفة بعيوب الكنيسة الكثيرة، وكانوا ينشرون ملحوظاتهم عنها، وانتقاداتهم لها على الملأ، ومن هذه التقارير وهو أولها ما كتبه الراهب الفرنسيكانى "جليبرت توركاي" الذي عزا إخفاق الحروب الصليبية إلى فساد رجال الدين ،وقد قال: إن كبار رجال الكنيسة كانوا ينفقون أموال الكنيسة في اقتناء الخيول وجباية الأموال، ولم يحاول أحد على حد قوله تأدية

الضرائب لدعم الحروب الصليبية، على الرغم من جمع ضرائب باهظة من أجل حروب صليبية لم تحدث أصلاً [1]

بدوره رفع "وليم الطرابلسي" وهو راهب دومنيكاني يقيم في عكا، مذكرةً إلى البابا، أكد فيها النبوءات التي تشير إلى أن نهاية الإسلام أضحت وشيكة الوقوع على يد المغول، ثم قال: « لقد حان الوقت للقيام بنشاط تبشيري، وبوصفي عضواً في هيئة تبشيرية أؤمن بتأثير العظات وقوتها ». [2]
وقد كان اعتقاده أن البعثات التبشيرية لا السيف هي الكفيلة بالظفر في الشرق، وقد ساند ه في رأيه المفكر الكبير "روجر بيكون".

ثم جاء إلى البابا تقرير وافٍ من راهب دومنيكاني آخر كان مقدماً لطائفة الدومنيكانيين اسمه همبرت:(Humbert of Romans) وقد ضمّن آراءه في كتاب سماه :(Opus Tripartitum) وضعه بمناسبة انعقاد مؤتمر عام لمناقشة الحروب الصليبية .

وقد أعرب فيه عن عدم قناعته بتحول المسلمين إلى المسيحية، وطالب بإنفاذ حملة صليبية إلى الشرق. وقال: «إن أسوء الرذائل أنه لم يكن في أوربا إلا فئةً قليلة تؤمن بالمزايا الروحية التي وعد بها المقاتل الصليبي» ونشر في أوربا قصائد فحواها أن الله لم يعد له اهتمام بالحروب الصليبية.[3]

ب- مجمع ليون - أيار 1274 م :

دعا إلى عقده البابا جريجوري العاشر الذي أصبح البابا بين عامي 1276/1271م، وهو مجمع صليبي في مدينة (ليون) الإسبانية التي ضمها فيليب الرابع عام 1312م إلى فرنسا، وهي المدينة التي وصلت إليها جيوش العرب في العصر الأموي، وقد شهد المؤتمر عدد كبير من أساقفة الشرق، يتصدرهم أسقف طرابلس، ومقدم الداوية " وليم بوجيه".

وقد عقد في شهر أيار 1274م وقد سعى البابا في العام التالي لإقناع أوربا بتنفيذ قرارات ذلك المجمع، فبادر ملك فرنسا فيليب الثالث الذي حكم بين عامي 1285/1270م إلى المساهمة في حملة صليبية بالتعاون مع ملك الدولة الرومانية المقدسة "رودلف الأول هابسبورج" الذي حكم ما بين عامي 1291/1273م ، مقابل الحصول على وعد بأن يتوجه البابا في روما امبراطوراً. وفي نفس الوقت حاول البابا أن يهيئ الأرض المقدسة لقدوم الحملة الصليبية فأمر بإصلاح الحصون في الشرق وعمارتها وإرسال أعداد كبيرة من العساكر المأجورة والمدربة تدريباً عالياً إلى الشرق.[4]

---

(1) رنسيمان، ستيفن: تاريخ الحروب الصليبية، تر:السيد الباز العريني، دار الثقافة، بيروت 1969، م3، ص 581.

(2) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية،م3،ص،582.

(3) رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية، م3، ص585 .

(4) رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية، م3، ص586 .

ج- المغول في مجمع ليون :

وقد حضر هذا المجمع مبعوثون من المغول، تنصر اثنان منهم على يد كاردينال أوستيا البابا "انوسنت الخامس"الذي لاحقاً أصبح البابا في عام1276م .

وقد تلقى المغول ردوداً ودية من البابا والمجلس البابوي حول تنسيق الجهود بين الطرفين ضد قلاوون ودولة المماليك ، حيث وصل وفد المغول إلى انكلترا سنة 1276 م وسلموا ملكها ادوارد الأول الذي حكم انجلترا بين عامي 1307/1272م ، رسالة من سيدهم أباقا، ولم يحبط هذا التحالف الصليبي المغولي إلا ملك صقلية شارل الأول (الأنجوي) الذي حكم صقلية ما بين عامي1285/1266م،[1] حيث قال إن المغول يحالفون أعداءه البيزنطيين، وكان لدوره أثر كبير في فشل مجمع ليون الذي كان أقرب إلى المجامع العسكرية منه إلى المجامع الدينية .[2]

د- ماهية الحروب الصليبية:

إن الواقع أبعد عن الحقيقة التاريخية من القول بأن الحروب الصليبية لم تكن إلا حروباً تحمل الطابع الديني، قام بها أناس أداروا ظهورهم للدنيا ومتاعها، ولم يستهدفوا غرضاً سوى الدين وخدمة الدين .

وإن نظرة يلقيها الباحث على سلوك الصليبيين في الشرق سواء فيما يتعلق بالمعاملات فيما بينهم وبين بعض، أو فيما يتعلق بتصرفاتهم تجاه أهل البلاد الأصليين ، يتوضح منها أن أولئك الصليبيين لم يكن لهم من (المسيحية إلا اسمها)، وأنهم ظلوا دائماً أبعد ما يكونون عن روح المسيحية ، وهي الديانة السماوية الكريمة التي حرص القرآن على تكريم نبيها تكريماً لم يحظ به أحد من الأنبياء السابقين .

فأي وازغ ديني كان عند أولئك الغزاة الذين لم يحجموا عن ذبح سبعين ألف مسلم في المسجد الأقصى غداة سقوط بيت المقدس في أيديهم سنة 1099م ؟.

بل أي وازغ ديني كان عند أولئك الصليبيين الغربيين عندما اقتحموا القسطنطينية سنة 1204م،"وهو البلد المسيحي الأمن" وعندئذ لم يتورعوا عن نهب كنائسها والإعتداء على أهلها المسيحيين وهم أخوانهم في الدين .

ولعل في هذه الشواهد ما يدفع إلى البحث عن عوامل أخرى غير العامل الديني حركت تلك الجموع إلى الشرق. [3]

---

(1) فرح، نعيم : تاريخ أوربا السياسي في العصور الوسطى ، ط2، منشورات جامعة دمشق، 2000م، ص300.

(2) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، م3، ص593.

(3) عاشور، سعيد عبد الفتاح: أضواء جديدة على الحروب الصليبية، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، 1964م، ص 10.

الفصل الأول

دولة المماليك في عصر قلاوون وخلفائه

أولاً – انتقال سلطة المماليك من بيت بيبرس إلى أسرة قلاوون.

ثانياً- قيام أسرة قلاوون:

1- **ظهور قلاوون .**

2- **صفاته و أخلاقه .**

3- **تطور أحوال قلاوون .**

ثالثاً – حكومة قلاوون و سياسته ومركزه الديني:

1- **سلطنة قلاوون .**

2- **سياسته الداخلية .**

3- **حكومته و أعوانه .**

4- **سياسته الخارجية .**

رابعاً – أسرته ومن حكم بعده .

خامساً : حدود دولة المماليك في عصر قلاوون .

سادساً: الجيش المملوكي .

سابعاً : وفاة المنصور قلاوون .

دولة المماليك في عصر قلاوون وخلفائه

أولاً – انتقال سلطة المماليك من بيت بيبرس إلى أسرة قلاوون:

كان بيبرس بعد أن وطد سلطته في مصر يسعى إلى أن يكون حكم المماليك وراثياً في أسرته من بعده ، وقد مهد لذلك بأن جعل الأمراء يقسمون يمين الطاعة لابنه الملك السعيد بركة سنة 660ه/ 1261م، ثم ما لبث أن ولاه عهد السلطنة عندما وافته الأخبار بقدوم التتار إلى بلاد الشام سنة 662ه/ 1263م لينوب عنه في مصر أثناء اشتغاله بمحاربتهم ، وأقام لذلك احتفالاً كبيراً قرئ فيه تفويض عهد السلطنة للملك السعيد.[1]

في 28 المحرم سنة 676هـ/ 1277م توفي الملك الظاهر بيبرس في قصره الأبلق بدمشق . فاتفق رأي الأمراء على إخفاء خبر موته، وفي آخر الليل حمله سيف الدين قلاوون ورفاقه إلى القلعة و صبّروه بها، ثم جُعل في تابوت وعُلق في أحد بيوت البحرية في قلعة دمشق إلى أن تم الاتفاق على دفنه فيما عُرف بالمدرسة الظاهرية وكان ذلك يوم الخامس من رجب سنة 676 هـ / 1277 م.[2]

في ربيع الأول سنة 676هـ / 1277م استقر الملك السّعيد بركة مكان أبيه سلطاناً على مصر، وكان في حدود العشرين من عمره، وقد قرب إليه مجموعة من المماليك الأحداث وسرعان ما ازداد نفوذهم وصاروا يتدخلون في تعيين نواب السلطنة وعزلهم وتوزيع الإقطاعات، وأدى ذلك إلى قيام النزاع بين السلطان السعيد ونائب السلطنة الأمير سيف الدين كونداك الساقي الذي تمكن من ضم جماعة من كبار الأمراء إلى جانبه، وكان من أثر تحيز الملك السعيد لمماليكه وإطلاقه يدهم في إدارة شئون الدولة وإغداق الأموال الوفيرة عليهم أن استاء منه الأمراء الصالحية ، وخاصة الأمير سيف الدين قلاوون الذي أوجس خيفةً منه على نفسه، وبقي الحال نحواً من سنتين ، فقرر على أثرها الأمراء تنحية الملك السّعيد وتولية أخيه العادل سلامش وأن يكون سيف الدين قلاوون أتابك العسكر، والأمير شمس الدين سنقر الأشقر نائباً بدمشق، وكان ذلك في ربيع الآخر سنة 678 هـ/ 1279 م.[3]

وكان الملك السعيد قد طلب أن يعطوه الكرك فأجابوه طلبه ، وبعد رحيله كان الأمراء قد عرضوا السلطنة على الأمير سيف الدين قلاوون ، فأمتنع عن قبولها وقال " أنا لم أخلع الملك

---

(1) النويري، أحمد بن عبد الوهاب : نهاية الأرب في فنون الأدب، تح: سعيد عاشو، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1992م، ج 28، ص160.

(2) المنصوري: مختار الأخبار، ص30 .

(3) اليونيني: ذيل مرآة الزمان، م3، ص247 .

السعيد شرها إلى السلطنة وحرصاً على المملكة، لكن حفظاً للنظام وأنفة لجيوش الإسلام أن يتقدم عليها الأصاغر، والأولى ألا يخرج الأمر من ذرية الملك الظاهر". [1]

على أن الأمير قلاوون لم يمتنع عن قبول السلطنة رغبة منه في الاحتفاظ بها لذرية بيبرس أو احتراماً لمبدأ وراثة العرش ، بل رأى أن أغلبية الجيش كانت من الظاهرية ، أنصار الظاهر بيبرس، فخشى قيامهم بثورة ضده، كما أن أكثر البلاد كان يتولى إدارتها أمراء موالون لأسرة بيبرس، ولذلك عول على عدم قبول السلطنة إلا بعد إقصاء هؤلاء الأمراء عن مناصبهم في الدولة ، حيث بادر إلى تقريب الأمراء البحرية من مماليكه وخشداشيته ، وأحسن إليهم ورفع درجاتهم وولاهم النيابات، وأقصى الأمراء الظاهرية والسعيدية، فرضي أمراء قلاوون بهذا الأمر واتفقوا على تولية الأمير بدر الدين سلامش بن بيبرس وكان عمره سبع سنين ، سلطنة مصر ، ولقبوه بالملك العادل ، وعينوا الأمير قلاوون أتابكاً له، وعز الدين أيبك الأفرم في نيابة السلطنة . [2]

وذكر المنصوري:" أنه عندما عيّن سلامش سلطاناً حلف الأمراء لقلاوون معه وذُكرا معاً في الخطبة، وضربت السكة بوجهين: وجه لسلامش والآخر لقلاوون، وبقي الحال على ذلك مدة شهرين". [3]

على أن قلاوون سرعان ما استغل صغر سن العادل سلامش فقبض على زمام الأمور في البلاد، وأخذ يتطلع إلى سلطنة مصر ، فحبس بعض الأمراء الظاهرية ، وأمر بالقبض على عز الدين أيدمر نائب الشام، وعين شمس الدين سنقر الأشقر بدلاً منه، كما استمال إلى جانبه الصالحية وأغدق عليهم الإقطاعات.

بعد ذلك دعا قلاوون أمرائه، وحدثهم عن صغر سن سلامش، فوافقوا على عزله، ونادوا بقلاوون سلطاناً في شهر رجب سنة 678 هـ / تشرين الثاني 1279م.[4]

وبذلك زال الملك من بيت بيبرس على يد قلاوون الذي كان رفيقاً له وارتبط معه برباط المصاهرة، حيث زوج ابنه السعيد من ابنت قلاوون الذي لم تمنعه هذه المصاهرة من التطلع إلى عرش مصر، فأنتهز فرصة ضعف الملك السعيد والخلاف بينه وبين أمرائه وعمل على خلعه ليحل محله، وأبعده مع أخويه نجم الدين خضر والملك سلامش إلى بلاد الشام. [5]

---

(1) النويري : نهاية الأرب ، ج28، ص 126.

(2) المقريزي : السلوك ، ج1، القسم الثاني ص 656-657.

(3) المنصوري: مختار الأخبار، ص 64 .

(4) الصفدي: الوافي بالوفيات، م24، ص 267 .

(5) المقريزي: السلوك ، ج1 ، ص 655-658.

- ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج7 ، ص 270 وما بعدها .

ثانياً: قيام أسرة قلاوون :

يتمتع بيت قلاوون بأهمية خاصة في تاريخ دولة سلاطين المماليك ، فمع أن المماليك لم يؤمنوا بمبدأ وراثة الملك ، إلا أن بيت قلاوون شذ عن هذه القاعدة ، واستطاع أن يحتفظ بمنصب السلطنة في ذرية المنصور سيف الدين قلاوون مدة طويلة أربت على قرن (678-784ه/ 1279-1382م)، مما يعتبر حالة فريدة في تاريخ دولة سلاطين المماليك .

هذا إلى أن العصر الذي حكم فيه بيت قلاوون يمثل عصر الإزدهار في الدولة المماليكية، إذ نضجت في ذلك العصر كافة خصائص تلك الدولة، واكتملت معالمها، وازدهرت حضارتها ، وذلك بعد أن انتهى الدور التأسيسي الذي قام به السلطان الظاهر بيبرس، وبعد أن أثبت المماليك قدرتهم على الحكم، وعلى مواجهة الأخطار الكبرى التي هددت مصر والشام في ذلك العصر .

ويرجع الفضل إلى المنصور قلاوون في إرساء هيبة بيته في النفوس، وفي إحاطة اسمه واسم أسرته بهالة من المجد والعظمة، مما دفع المعاصرون يتمسكون بأبنائه وأحفاده من بعده، ويرون في بيت قلاوون رمزاً للقوة والعظمة والأستقرار والنهضة في الداخل، والأمن والسلام في الخارج .

ثالثاً - المنصور قلاوون:

1- **ظهور قلاوون**: معنى قلاوون: البّطة[1]، وهو من القبجاق التي تقع جنوب روسيا ومن قبيلة تسمى برج أوغلي.

والقبجاق فرع من الترك، مساكنهم الأصلية حول نهر الفولغا، جنوب روسيا.[2]

كان من مماليك الأمير علاء الدين آق سنقر العادلي الكاملي الساقي، أحد مماليك الملك العادل الأيوبي.

وفي مختار الأخبار للدواداري المنصوري أن أستاذه قرا سنقر الكاملي.

وذكر ابن تغري بردي أن الملك الصالح اشتراه من والده الكامل، ثم قال: والصواب ما ذكره الصفدي من أن الذي اشتراه إنما هو الأمير آق سنقر الكاملي. [3]

---

(1) اعتمد البحث هنا على مقال المستشرق الفرنسي سوفاجيه المسمى: (أسماء وألقاب المماليك) Noms et swnoms de Memlouks .j.Savaget - Paris 1948. - في شرح أسماء المماليك وألقابهم، وكتابتها بالشكل الصحيح، نظراً لتعذر لفظها بشكلها الصحيح عند كثيرين، وحتى لا نثقل الهوامش بالشروح فقد ألحقت بهذه الرسالة جدولاً بمعاني الأسماء المذكورة .

(2) النويري : نهاية الأرب ، م 31، ص7.

(3) المنصوري، بيبرس: مختار الأخبار، تح: عبد الحميد حمدان، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة 1993 م، ص 238 .

- المقريزي، أحمد بن علي: السلوك لمعرفة دول الملوك، تح :محمد مصطفى زيادة، القاهرة 1970-1972 م،ط02، أربعة أجزاء في 12 مجلد، م4-م1، ص 663.

وقد ذكر جميع المؤرخين الذين عاصروه ولا سيما مملوكه بيبرس الدواداري ومحيي الدين بن عبد الظاهر أن قلاوون عرف بالألفي لأنه اشتري بألف دينار، اشتراه أستاذه علاء الدين بألف دينار فعرف بالألفي.

والغريب أن هناك عدة أمراء من "خشداشية" قلاوون أي أصحابه المقربون، بيعوا بألف دينار أيضاً، ولم يعرفوا بالألفي، منهم فارس الدين إقطاي الذي ذكر الجزري عنه أنه بيع بألف دينار، والأمير شمس الدين سنقر بيع كذلك بألف دينار .[1]

وقد ذكر الصفدي شعراً لعبد الوهاب بن فضل الله في قلاوون منه:

تهب الألوف ولا تهاب لهم ألفا إذا لاقيت في الصفّ

ألف وألف في ندىً ووغًّىً فلأجل ذا سموك بالألفي[2]

والواقع أنه سمي بالألفي لأنه بيع بألف دينار، لأنه عرف بهذا اللقب منذ أن كان شاباً وقبل أن يصبح سلطانا ويهب الألوف.

2- **صفاته وأخلاقه**:

قال المنصوري: وهو من مماليك قلاوون ومن أقرب الناس إليه:"إنه كان وسيماً جسيماً حسناً ، من أحسن الأتراك صورة وأكثرهم هيبةً" .[3]

وقال المقريزي: «وكان جميل الصورة مهيباً،عريض المنكبين قصير العنق فصيحاً بليغاً بلغة الأتراك و القبجاق، قليل المعرفة بالعربية ».[4]

- ابن تغري بردي (أبو المحاسن جمال الدين يوسف) : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، تح :محمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت 1992م، 16 مجلد، م7، ص 278 .

- الصفدي، خليل بن أيبك : الوافي بالوفيات، طبعة ألمانيا في تواريخ مختلفة وفي حوالي 30 مجلداً، م3، ص 197.

(1) الجزري: تاريخ ابن الجزري، م3، ص 238.

(2) الصفدي، خليل بن أيبك : أعيان العصر وأعوان النصر، تح : عدد من الأساتذة، دار الفكر، بيروت 1988م، خمسة مجلدات، م3، ص 198.

- المنصوري، بيبرس: التحفة الملوكية ، ص 87.

- اليونيني، قطب الدين: ذيل مرآة الزمان، طبعة الهند 1960م، أربعة مجلدات، م3، ص 245.

- المقريزي،أحمد بن علي: خطط القاهرة، تح: أيمن فؤاد السيد، مؤسسة الفرقان، لندن 2004 م،م3، ص 770.

(3) المنصوري، بيبرس: زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة. تح : دونالد ريتشاردز، الشركة المتحدة،بيروت 1998، ج9، ص175.

(4) المقريزي : السلوك ،م1،ص756.

وقال ابن حبيب:«كان ملكاً مهيباً عليماً، قليل سفك الدماء، كثير العفو شجاعاً خيراً، حسن السياسة، وافر الوقار عليه جلالة عظيمة».[1]

وقال ابن تغري بردي: «إنه كان مستدير اللحية، على وجهه هبة الملك، وكان لا يفصح بالعربية، عجمي اللسان لأنه أتي به من بلاد الترك وهو كبير». بينما ذكر المقريزي أنه أتي به وهو صغير.[2]

وهكذا أجمع المؤرخون على أنه كان جميل الصورة، تام الشكل مهاباً،عليه ملامح السلطنة وهيبة الملك، عالي الهمة، حسن الأخلاق،لا يحسن النطق بالعربية.

ولعل أهم ما كان يميزه عن الملك الظاهر بيبرس - ومع اشتراكهما في أمور كثيرة – أنه كان قليل سفك الدماء، يقف عند حدود الشرع الشريف،لا يغضب ولم يقتل في حياته إلا أربعة من المتآمرين عليه، وهم كوندك وأصحابه كما سيأتي.[3]

وقال محي الدين ابن عبد الظاهر إنه لم يكن بالسلطان الدموي الذي يسارع إلى القتل، بل كان أقرب إلى الرأفة.

وذكر أنه في ذي القعدة 684هـ / 1286م وصل البريد من دمشق بأن جندياً اتفق مع نصراني وآخر يهودي سامري في دمشق على تزوير توقيع السلطان، وكتب الثلاثة "تواقيع ومراسيم" بتملك أراضي شاسعة في منطقة دمشق، ولما اطلع السلطان على ذلك،أمر بتسمير النصراني واليهودي وقطع لسان الجندي وأرسل ذلك بالبريد.

ثم استفتى الفقهاء فقالوا إنه لا يجوز قتل النصراني واليهودي ولا قطع لسان الجندي، و يكتفي بتعزيرهم وصرف الجندي من الخدمة.

فأرسل السلطان بطائق الحمام بتعديل الحكم، فأدركوهم في الورادة وعادوا إلى مصر وأعطوا كتباً جديدة .[4]

وقد تسلطن من ذريته 15 سلطاناً كان آخرهم المنصور حاجي.

- ابن حبيب،الحسن بن عمر: تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه، تح :محمد أمين، 3 مجلدات، مطبعة دار الكتب بالقاهرة 1976م،ج1، ص3.

(1) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ، م7،ص276، والسلوك،م1،ص663.

(2)- ابن علي، شافع: الفضل المأثور في سيرة الملك المنصور، تح :عمر عبد السلام التدمري، المكتبة العصرية صيدا-1998، ص5 .

(3) تآمر الأمير" كوندك " وهو من مماليك الظاهر بيبرس مع الفرنجة على قتل المنصور قلاوون فيما كان متوجهاً إلى محاربة التتار سنة 680هـ / 1281م .

وسيأتي ذكر ذلك مفصلاً عند الحديث عن الجيش في عصر قلاوون، ص 2 .

(4) ابن عبد الظاهر، محي الدين: تشريف الأيام والعصور بسيرة الملك المنصور، تح: مراد كامل، الشركة العربية ، القاهرة1961، ص 122.

ويقول ابن تغري بردي: إما كانوا من أولاده أو أحفاده ، أو مماليك ذريته.[1]

3- تطور أحوال قلاوون 647-678 هـ / 1249- 1279م:

عندما مات أستاذه علاء الدين سنة 647هـ /1249م آلت ملكيته إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب، فعرف بقلاوون العلائي الصالحي الألفي، وقد جعله الصالح من جملة المماليك البحرية الذين بنى لهم قلعة في جزيرة الروضة، فعرفوا بالبحرية لذلك.

في سلطنة المعز أيبك، كان إقطاي أمير الجيش رأس المماليك البحرية والرجل الأول في الدولة [2] وكان بيبرس وقلاوون وسنقر الأشقر من رجاله الذين بلغ عددهم زهاء 700 رجل. ولما فتك المعز أيبك بإقطاي في شعبان 652هـ / 1254م هرب "البحرية" إلى الشام، وكان كبيرهم سيف الدين بلبان الرشيدي، وفيهم قلاوون وسنقر الأشقر وبيبرس و أزدمر السيفي وبيسرى وسيف الدين المستعربي.[3]

وكما ذكرنا فقد التجأ بيبرس وقلاوون إلى الناصر الأيوبي، وحرضوه على قصد مصر ونزع المماليك، ثم استقر الحال على بقاء الناصر في دمشق، والمعز أيبك في مصر، كما تقدم. وأسر قلاوون وسيف الدين الرشيدي وآخرون عندما هاجموا المعز في مصر ثم أطلق سراحه فعاد إلى الشام.[4]

وعاش قلاوون مع بيبرس سنوات من التشرد والاخفاق واليأس، ثم اتفقا مع زملائهم "البحرية"على العودة إلى مصر التي كان يحكمها المظفر قطز، فعادوا في ربيع الأول سنة 658هـ / 1260م ورحب بهم قطز.

وبعد سبعة شهور من ذلك التاريخ كانت معركة عين جالوت الخالدة التي وحّدت مصر والشام وحطّمت أسطورة المغول وجيوشهم التي لا تقهر.

وانقض بيبرس على سيده قطز فقتله وأعلن نفسه سلطاناً، ولم يشارك قلاوون في الأمر، لكنه ظل على صداقته وولائه للسلطان الجديد الملك الظاهر بيبرس، وبادر قلاوون مع أتابك العسكر فارس الدين إقطاي وآخرين إلى السيطرة على قلعة الجبل بانتظار قدوم السلطان الظاهر بيبرس، وأصبح قلاوون الساعد الأيمن له طوال حكمه وحكم أولاده على مدى عشرين عاماً من سنة 658هـ - 678 هـ/ 1260م - 1279م.

---

(1) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ، م7، ص278 .

(2) المقريزي : السلوك ، م1، ص 663 .

- النويري : نهاية الأرب ، م 31، ص 7 .

(3) الجزري : تاريخ ابن الجزري، م3، ص 228 .

- المنصوري : مختار الأخبار، ص 70.

(4) المنصوري : التحفة الملوكية ، ص39 .

ويعد تحالف قلاوون مع الظاهر بيبرس واشتراكهما معاً في معارك التحرير، البداية الحقيقية لحكم قلاوون، ذلك أن عشرات المعارك شارك فيها من طوروس حتى العريش.

والمهمات التي كان يكلفه بها الملك الظاهر، وما اكتسبه خلال تلك المدة الطويلة من تجارب في الإدارة والسياسة والحكم، قد صقلت شخصية قلاوون وجعلته قادراً على الحكم ومتابعة معارك التحرير وتنظيم أمور الدولة، وهو ما بدا واضحاً منذ الأيام الأولى لحكمه .

وهنا يذكر بعضاً من الأعمال التي قام بها خلال العشرين عاماً التي سبقت حكمه بإيجاز شديد مع مراعاة التسلسل الزمني.

ففي سنة 660هـ / 1262م بنى الظاهر "قم بحر أشموم" وأصلحه وعين قلاوون مسئولاً عنه.

وفي جمادى الأول 663هـ / 1265 م شارك مع الظاهر في فتوح قيساريّة وعثليث. (1)

وفي رمضان من العام نفسه، شارك في فتح قرقيسيا.(2)

وفي رجب من العام نفسه، شارك في فتح أرسوف .(3)

وفي آخر شعبان سنة 664 هـ/ 1266 م قام قلاوون وأيدغدي بالإغارة على عكا وصور وغرقد وطرابلس وحصن الأكراد في يوم واحد.(4)

وفي شوال 664هـ / 1266م شارك مع الظاهر في تحرير صفد وكانت قمة الفتوحات.(5)

وفي ذي القعدة من العام المذكور انطلق من دمشق مع الملك الظاهر نحو قاعدة الأرمن "سيس" التي تم تحريرها وتدمير قلعة الداوية فيها.(6)

ثم كان تدمير يافا سنة 666هـ / 1268م(7)، وفي رمضان من العام نفسه كان فتح الفتوح وهو تحرير أنطاكية معقل الصليبيين الأكبر والذي كان حربةً في جسم دولة المماليك، ثم كان تحرير بغراس وجبلة في العام نفسه.(8)

وفي سنة 669هـ/ 1271م كان الفتح العظيم الثاني وهو تحرير حصن الأكراد وحصن عكار.(9)

---

(1) المنصوري : التحفة الملوكية ، ص 41 .

(2) المنصوري : مختار الأخبار، ص30 .

(3) المقريزي: السلوك ، م1، ص 529 .

(4) اليونيني: ذيل مرآة الزمان، م2، ص 337 .

(5) اليونيني: ذيل مرآة الزمان، م2، ص 338 .

(6) اليونيني: ذيل مرآة الزمان، م2، ص 344 .

(7) المنصوري: التحفة الملوكية ، ص 62 .

(8) المنصوري: التحفة الملوكية ، ص 64 .

(9) اليونيني: ذيل مرآة الزمان، م2، ص 447 .

وفي سنة 671هـ / 1273م وأثناء تحرير البيرة، تقدم قلاوون ورمى بنفسه في الفرات وهو على فرسه، وتبعه الجيش حتى حلوا بالبر الشرقي وتم تحريرها، وقد منحه الظاهر 3000 دينار لشجاعته.[1]

وفي سنة 673هـ / 1274 م تم تحرير المصيصة ودربند، وفي سنة 675هـ /1276م قاتل التتار مع الملك الظاهر عند النهر الأزرق الذي يمر بين بهنسا وحصن منصور في طرف بلاد الروم من جهة حلب، وقُتل من التتار مقتلة عظيمة وغنم المسلمون منهم غنائم كثيرة .[2]

وكان من نصيب قلاوون فيها الأمير سلاّر الذي خصّه بولده الصالح علي.

رابعاً– حكومته و سياسته ومركزه الديني:

1- سلطنة قلاوون:

جلس على سرير الملك في قلعة الجبل في القاهرة باتفاق الأمراء، ولُقب بالمنصور تيمناً بالانتصارات التي كان يخطط لها، وأمر أن يُكتب في صدر مناشيره وتواقيعه عبارة "الصالحي" وفاءً لسيده الصالح نجم الدين أيوب، مع أن المنطق يقتضي عدم تذكير الناس بماضيه يوم كان مملوكاً للصالح، وهكذا صار لقبه الرسمي:السلطان الملك المنصور أبو الملوك سيف الدنيا والدين أبو المعالي قلاوون العلائي الصالحي النجمي الألفي.[3]

ويذكر مملوكه بيبرس المنصوري ، إنه في سنة 656 هـ / 1258 م كان قلاوون وبيبرس في أسوأ حالاتهما ومعهما جميع البحرية، فقد نقم عليهما حكام الشام ومصر معاً وأصبحا هائمين على وجهيهما بين مدن فلسطين والشام.

ثم يقول: «لقد طلبني المنصور قلاوون وحدثني عن تلك الأيام فقال: - عزمنا- هو والظاهر- على زيارة الشيخ علي البكّاء في زاويته في الخليل*، فأكرمنا، وعندما هممنا بالخروج بشّر الظاهر بملك مصر، وأوصاه بالعدل، ثم بشَّرني مثلما بشّره، فتعجبنا من قوله ونحن في تلك الحالة، ثم تحقق ظنه بفضل الله تعالى».[4]

---

(1) اليونيني: ذيل مرآة الزمان، م 3، ص3 .

(2) المنصوري: التحفة الملوكيّة ، ص 80 .

(3) ابن الفرات، محمد بن عبد الرحيم : تاريخ ابن الفرات، تح : قسطنطين زريق ونجلاء عز الدين، الجامعة الأمريكية، بيروت 1939م،ج7، ص 52 .

* - الخليل : اسم موضع وبلدة فيها حصن وعمارة وسوق بقرب البيت المقدس، فيه قبر الخليل علية الصلاة والسلام في مغارة تحت الأرض- الحموي، ياقوت : معجم البلدان، تح: فريد الجندي،دار الكتب العلمية، بيروت،بدون تاريخ،5 مجلدات، مج2، ص 378 .

(4) المنصوري: زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، م9، ص35 .

ويقول المنصوري:« إنه عندما جلس المنصور على العرش وانتقل إلى دار الملك السعيد بقلعة الجبل أمرني سراً أن أكتب أسماء عدد من الملوك، ثم استدعى خالي محي الدين بن عبد الظاهر وناوله إضبارة فيها أوراق وقال له : خذ ولدك فتح الدين واكتب على هذه الأوراق.
وكتب إلى اليمن والمغرب والعراق وماردين، وإلى سائر ملوك الفرنجة المهادنين والموادعين، كتب لهم بسلطنته وحلف قادة الجيش يمين الولاء والطاعة، ثم أرسلت الكتب إلى" الممالك الشامية" وسائر بلاد السلطان.

ومما جاء إلى دمشق قوله: « رسمنا أن تزين دمشق وتضرب البشائر في البلاد».[1]
وقد وصلت كتبه إلى دمشق يوم 28رجب على خيل البريد في ظرف (55) ساعة فقط، وهو رقم قياسي في مدة الانتقال من مصر إلى دمشق، وبايع الناس للمنصور، ماعدا خشداشيِّهُ سنقر الأشقر الأمير الذي أتعب قلاوون كثيراً طوال حكمه.[2]

ويقول البرزالي: " إنه في يوم 21 رجب خُلع العادل سلامش وتسلطن المنصور. وفي يوم الأحد 26 رجب وصل البريدية إلى دمشق ومعهم نسخ الأيمان، فبايع الجميع إلا سنقر الأشقر وأتباعه. وفي 2 شعبان خُطب للمنصور بدمشق .وفي 3 شعبان ركب بأبهة السلطنة في القاهرة " [3]

ويذكر الصقاعي: « إنه تولى الحكم في رمضان سنة 678 هـ /1280 م وهو واهم في ذلك».[4]

وفي الواقع إنّ سلطنة قلاوون طوال عصره لم تكن كاملة ثابتة، لأن سنقر الأشقر "خشداشيه القديم" خالفه وأعلن نفسه سلطاناً ولقب نفسه بالملك الكامل، وسيطر على الكثير من حصون الشام .
ودخلت سنة 679 هـ / 1280 م وسنقر الأشقر على حاله، وقد جّهز عسكره إلى غزة فالتقى عسكر قلاوون، وهزم سنقر الأشقر على يد علم الدين سنجر الحلبي، فالتجأ إلى أمير العرب عيسى بن مهنا في صفر سنة 679 هـ / 1280 م.

ثم أقدم سنقر الأشقر على الالتجاء إلى التتار والاحتماء بهم وتحريضهم على غزو الشام ومصر، ثم راسله المنصور قلاوون وخوّفه من عاقبة أعماله وأعلن عفوه عنه إن عاد إلى الشام،

- المنصوري: التحفة الملوكية ، ص41 .

(1) المنصوري، بيبرس: كنز الدرر وجامع الغرر، تح : بيرند راتكة، المعصر الألماني للآثار، القاهرة، 1982،م8،ص233 .

(2) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك، م7، ص152.

(3) البرزالي، علم الدين : المقتفي على تاريخ أبي شامه، تح :عمر عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية، صيدا 2006، 4 مجلدات، م1، ص 260.

(4) الصقاعي، فضل الله : تالي وفيات الأعيان، تح :جاكلين سوبليه، المعصر الفرنسي للدراسات العربية، دمشق 1974م، ص 129.

فعاد وقاتل مع السلطان في معركة حمص سنة 680 هـ / 1281 م، وكان ممن انهزم في المعركة، ثم انسحب إلى قلاعه وبقي كذلك طوال عصر قلاوون.[1]

2- **سياسته الداخلية**:

كان أول ما فعله المنصور قلاوون أنه وضع خطة محكمة لتثبيت ملكه أمام أتباع الملك الظاهر وولده السعيد وهم الذين عُرفوا بالسعيدية.

ولذلك قرّب خشداشيتّهُ البحرية ومماليكه، ووضعهم في الأماكن الحساسة، وأبعد الأولين الذين كانوا مع سنقر الأشقر من أخطر الناس عليه .

وكما قال مملوكه بيبرس المنصوري: " رفع مماليكه إلى الإمارة، كل منهم على قدر طبقته وشركهم في نعمته، وسرت فيهم أنفاس سعادته من بعده، فمنهم من رقي إلى السلطنة المعظمة ومنهم من ولي النيابة بالديار المصرية والممالك الشامية والحصون الإسلامية، ومنهم من اجتمعت له الوزارة والإمارة في وقت واحد " .[2]

وعندما توجه المنصور قلاوون لحرب التتار في حمص سنة 680 هـ / 1281م ألقى القبض على الأمير كوندك الساقي وجماعته وأمر بإعدام كبيرهم وثلاثة معه هم: أيدغمش الحكيمي، وبيبرس الرشيدي وساطلمش الظاهري، واعتقل بقية المتآمرين في صفد، وبذلك ضمن تلاحم الجبهة الداخلية.

ثم كان نصره الساحق على المغول في حمص سنة 680 هـ / 1281 م الذي دعم حكمه وجعله في نظر الناس يضاهي الملك الظاهر بيبرس.[3]

وقد أصدر في بدايات حكمه عدداً من المراسيم والقرارات التي دأب الحكام على إصدارها في بدايات حكمهم لتثبيت مركزهم وجلب التأييد لهم.

وأول مرسوم داخلي أصدره كان إبطال مرسوم الدولبة، وهذه الرسوم كانت تؤخذ في عصر الملك الظاهر على المشتغلين بالدولاب أي الآلات والعجلات في الري والغزل والصناعة، فهي ضريبة تؤخذ على الآلات الصناعية والزراعية، وهي مما يعرف بالرسوم العرفّية أي التي لا أساس لها في الشرع.[4]

---

(1) المنصوري : التحفة الملوكية ، ص 93 وما بعد.

(2) المقريزي، أحمد بن علي : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف اختصاراً بالخطط - المقريزية، دار التحرير، القاهرة 1962 م، ج1، ص 286.

- المقريزي، أحمد بن علي : السلوك، ج1 ، ص664.

(3) الجزري: تاريخ ابن الجزري ، م3، ص 258 .

(4) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ، ج7 ، ص10.

كما أسقط ما كان يؤخذ بدون وجه حق وهو ثلث زكاة الأموال وثلث التركات، ودينار عن كل إنسان، وأعاد مصارف الزكاة إلى وجهها الشرعي، وقد كان ريع ذلك 600,000 دينار في السنة، فقدتها الخزينة.[1]

وفي يوم الأحد 25 ربيع الأول 680هـ / 1280 م خرج مرسوم السلطان المنصور قلاوون وهو بدمشق بإراقة الخمور وكانت قد ضُمنت بمليون درهم في السنة.[2]

وذكر ابن عبد الظاهر: " أن المنصور حنق في شوال 678هـ / شباط 1280م على النصارى وخصوصاً كتّاب الجيوش، فصرف الأسعد ابراهيم النصراني وثّبت مكانه القاضي أمين الدين، كما رسم بهدم دير الخندق بظاهر القاهرة " .[3]

3- حكومته وأعوانه:

أ- نوابه ومساعدوه :

أما من ساد من مماليكه الذين اشتراهم بعد سلطنته، وقادوا الجيوش، وتقدموا على الألوف وحفظوا البيت المنصوري، فكثيرون، من أبرزهم :

- الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير: الإستادار ثم السلطان.
- الأمير سيف الدين بكتمر الجوكندار : إمرة مائة وتقدمة ألف .
- الأمير آقوش الأفرم: نائب السلطنة في الشام.[4]
- الأمير سيف الدين طغجي: نائب السلطنة بمصر.

وهناك سيف الدين قجقار وسيف الدين بلبان الجوكندار وعلم الدين سنجر المصري وسيف الدين طغريل وشمس الدين آقوش الأشرفي والأمير عز الدين أيبك وغيرهم ممن تولى الوظائف العالية.[5]

وسيذكر بعض من ذكرت بتراجم أوسع ولا سيما ممن تسلطن أو ساهم في محاربة الصليبيين سلطاناً أو قائداً أو أميراً .

1- حسام الدين طرنطاي :

أبو سعيد المنصوري، نائب المملكة في القاهرة، كان من رجال الحكم رأياً وحزماً ودهاءً وشجاعةً وسياسةً وسطوة، اشتراه المنصور وجعله نائباً له عندما تولى السلطنة ولم يكن يمانعه في

---

(1) ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام والعصور، ص 58 .
- ابن الفرات: تاريخ الدول والملوك ، ج7، ص 158 .
(2) المنصوري: التحفة الملوكية ، ص 97 .
(3) المنصوري: التحفة الملوكية ، ص 98 .
(4) هو صاحب جامع الأفرم بالمهاجرين ، " توثيق " الباحث .
(5) الصفدي : الوافي بالوفيات ، م16 ، ص 429.

شيء، وبنى مدرسة في القاهرة، وكان مليح الشكل، وله دورُ ظاهر يوم معركة حمص سنة 680هـ / 1281 م. [1]

وذكر اليونيني: " أنه كانت به بذاءة وشح ولكنه معدوم النظير، وخلّف 160,000 دينار وما لا يحصى من المتاع والمجوهرات " .

وقد كانت نهايته على يد الأشرف خليل مأساوية، وكان ذلك في ذي القعدة 689هـ / 1290 م بعد أيام من سلطنة الأشرف، وقيل بأنه تآمر على قتله وقيل غير ذلك.

وقد كان طرنطاي هذا نموذجاً للأمراء الكبار في دولة بني قلاوون يعطي فكرةً عن مدى الغنى الفاحش عند الحكام، كما يظهر بوضوح القوة المادية لدولة المماليك.

2- الأمير علم الدين سنجر الشجاعي المنصوري:

من أعظم مماليك قلاوون على الإطلاق، كان ذا قدرة تنظيمية وإدارية خارقة لا يمكن تصورها بجميع المقاييس، ولذلك كان السلطان يعصر إليه بالمهمات العسيرة والصعبة فيقوم بها بما يشبه المعجزات.

وكان من أعظم أعماله بناء مجمّع قلاوون في حي بين القصرين وهو يضم البيمارستان والمسجد والمكتب والتربة خلال فترة وجيزة وسيتم ذكر ذلك فيما بعد.

وعندما احتل الأشرف خليل قلعة الروم وسماها قلعة المسلمين عصر إلى الشجاعي بإعادة بناء القلعة فأعاد بناءها في وقت قصير، وفعل الشيء نفسه في مدن الساحل.

وعندما كان نائبا في دمشق أراد إجراء تغييرات شاملة في بنيان المدينة، وباشر بهدم المنطقة الممتدة من القلعة إلى القصر الأبلق، ثم عُزل عن الولاية وتولى الوزارة في مصر.

وقد ساعد الملك الأشرف في مهمات كثيرة، وبعد استشهاده قام كتبغا بقتل الأمير الشجاعي وداروا برأسه في القاهرة، فكان جزاؤه جزاء سنمّار[2]، وفقدت الدولة عبقرياً في الإدارة والتنظيم والإعمار.

3- السلطان العادل كتبغا المنصوري:

هو من التتار الذين أُسِروا في حمص سنة 658هـ / 1260م وكان من عسكر هولاكو، وقد كان من نصيب الأمير قلاوون الذي ضمه إلى مماليكه وأمّره وأصبح من أمراء الألوف.

وقد بقي مخلصاً للسلطان الأشرف خليل طوال حكمه، وهو الذي انتقم له من قتلته جميعاً ، لم يفلت منهم إلا حسام الدين لاجين.

---

(1) المنصوري : مختار الأخبار، ص 89 ، وفيه واسع التفصيلات عن جميع أمراء السلطان قلاوون ووظائفهم .

(2) سنمّار: مثل عربي يضرب على من يعاقب على إحسانه، وسنمار: هو باني قصر الخورق للنعمان المنذري قرب الكوفة.

وبعد مقتل الأمير علم الدين الشجاعي، أصبح كتبغا الرجل الثاني في مصر بعد السلطان الناصر محمد، وعُين نائباً له وكان السلطان في العاشرة، مثل العادل سلامش ولد الظاهر، ولذلك بادر كتبغا إلى عزل الناصر وحل محله وسمَّى نفسه الملك العادل وكان ذلك يوم 11 المحرم 694 هـ / 1294 م.[1]

وقال ابن الجزري إنه كان عند تسلطنه من أبناء الخمسين وهو شديد السمرة صغير العينين مربوع القامة، وكان معروفاً بالدين وحسن الإسلام والتواضع ودماثة الأخلاق بين أقرانه، وفيه سلامة وسكون وقلة ظلم، وهو معدود من الشجعان في الحرب.

وقد عُين الأمير حسام الدين لاجين نائباً، فانقض عليه في صفر سنة 696 هـ - 1296 م، ثم ولاه قلعة صفد ، ثم ولاّه الناصر محمد حماة.[2]

وشارك في معركة شقحب 702 هـ / 1303 م وهو في محفّة،وتوفي بعدها بقليل في حماة، ثم نقل إلى تربته في قاسيون بدمشق المعروفة بالمدرسة العادلية البّرانية، وما تزال هذه المدرسة إلى اليوم.[3]

ولم يكن له في سلطنته همّ إلا مقاتلة بني جنسه التتار بعدما تمت تصفية الصليبيين.

4- السلطان حسام الدين لاجين المنصوري :

من مماليك المنصور قلاوون، وهو دموي مثل الظاهر بيبرس، أمّره المنصور لما تسلطن وعيّنه نائباً له في دمشق، وأقام فيها والياً من سنة 679هـ حتى سنة 690هـ / 1280م-1291م، وقد أحبه أهل دمشق وأحّبهم، وعندما تسلطن الأشرف اعتقله ثم عفا عنه.

وقيل: إن المنصور أوصى ابنه الأشرف بألا يتعرض لطرنطاي، وإذا اعتقل لاجين أو عزله لا يبقي عليه، فخالف والده في الحالين، وكان لاجين هو أول من شارك في قتل الأشرف ومع ذلك فقد عاد و احتمى بخشداشيه "كتبغا" فأخذ له العفو من السلطان الناصر، ولم ينجُ أحد من قتلة الأشرف إلا لاجين هذا.[4]

---

(1) المقريزي : السلوك، م1 ، ص 716 و 725.

- ابن عبد الظاهر : تشريف الأيام والعصور، ص 26.

- المنصوري : التحفة الملوكية ، ص 111.

(2) الصفدي : أعيان العصر، م4، ص 146.

- المنصوري: مختار الأخبار، ص 88.

- الصقاعي : تالي الوفيات، ص 130.

(3) الجزري : تاريخ ابن الجزري، م3، ص 369.

- ومدرسته أو تربته على بعد أمتار شمال ساحة المالكي بدمشق ."مشاهدات الباحث "

(4) العلموي، عبد الباسط، مختصر تنبيه الطالب- تح : صلاح المنجد، دمشق . 1947م، ص 201 .

- الصفدي: أعيان العصر، م4 ، ص 168 .]

وكما قيل انقّض على كتبغا رغم إحسانه إليه وتسلطن في صفر 696هـ / 1296م، وفي العاشر من ربيع الآخر سنة 698هـ / 1299م دخل عليه الأمير كرجي وأعوانه فقتلوه، وكان مثل كتبغا في الخمسينيات من عمره.[1]

5- الملك المظفر بيبرس الجاشنكير المنصوري:

من مماليك المنصور وممن تسلطنوا، و كان له دور مهم في الدفاع عن مصر ضد الحملات الصليبية. وهو الذي بنى الجسر الطويل من قليوب إلى دمياط، كما هو آت لاحقاً.

وهو زميل الأمير سلارّ وخشداشيه، وهو من الجراكسة.

بدأ ظهوره سياسياً في دولة الناصر محمد وكان واحداً من ثمانية أمراء يحكمون مصر في فترة حكم الناصر الثانية.

كان أستاذ دار الملك الناصر محمد ولكنه كان في الواقع مع زميله سلارّ أوصياء عليه ولا حول له ولا قوّة معهما.

استمر حكمه من خلف الستار نحواً من عشر سنين.

وأخيراً وفي سنة 708هـ / 1309م أقنعه سلاّر بالسلطنة فتسلطن ولقب نفسه بالملك المظفر ركن الدين بيبرس المنصوري ، وكان نائبه سلارّ.

ومعنى الجاشنكير الذي يذوق الطعام قبل السلطان حتى لا يكون فيه سمّ .

وقد عزل الناصر محمد وأسكنه تحت الإقامة الجبرية في الكرك وذلك في شوال من العام المذكور، وفي شوال من العام التالي 709 هـ / 1310م " تأمر" عليه عددُ من أمرائه وفروا إلى الناصر محمد في الكرك وخرجوا معه إلى الشام، وأرسل المظفر جيشاً لملاقاة جيش الشام فهزم هذا الجيش، فهرب المظفر والأمير سلارّ، ثم وقع في الأسر هو وعدد من أتباعه فأعدمه الناصر فوراً بعدما شتمه وعذبه، وله في مصر آثارٌ مهمة منها إعمار الجامع الحاكمي والخانقاه الركنية إضافة إلى عمله العظيم في بناء جسر قليوب – دمياط.[2]

---

(1) الصفدي : أعيان العصر، م4 ، ص168.

- الصقاعي : تالي الوفيات، ص 132 .

- ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، م 8، ص182.

- الجزري: تاريخ ابن الجزري، م3، ص 393 حتى 395 وهو أفضل من كتب عنه.

(2) الصفدي: أعيان العصر، م2 ،ص 171 .

- الصفدي: الوافي بالوفيات ،م10،ص348 .

- المنصوري: التحفة الملوكية ، ص201 .

- الجزري: تاريخ ابن الجزري، م3، ص 393 .

6- الأمير سيف الدين سلاّر المنصوري:

من رجال الحكم المشهورين الذين ظهروا بعد مقتل الأشرف خليل، وحكموا مصر من وراء ستار أكثر من عشر سنين.

وهو من التتار مثل كتبغا، قدّمه الملك المنصور لولده الصالح علي، كان عاقلاً شهماً شجاعاً خبيراً بالأمور. وحصّل ثروةً لم يجمعها أحد قبله، حتى ذكر أن إيراده اليومي من أملاكه كان 100,000 درهم يعني 10,000 دينار، وقد عتب عليه الناصر إذلاله له وتقنينه عليه في الطعام. هرب مع زميله الجاشنكير، ثم وقع في قبضة الناصر، فسجنه حتى مات جوعاً وهو في أواخر الأربعينيات وذلك في ربيع الأخر سنة 710 هـ / 1310م.[1]

7- محيي الدين عبد الظاهر"كاتب الإنشاء":

كان الساعد الأيمن للسلطان المنصور قلاوون، واسمه: محيي الدين عبد الله بن الشيخ رشيد الدين ابن عبد الظاهر بن نشوان الرومي السعدي، كاتب الإنشاء.

ولد سنة 620هـ / 1223 م وتوفي سنة 692هـ /1293 م، كان من سادات الكتّاب وفضلائهم ومن أرباب المروءات، كثير الإحسان إلى الناس، ولم يكن في زمانه مثله، وكان له ولد مثله ، يكتب للمنصور أيضاً وهو فتح الدين الذي توفي في حياة والده سنة 691 هـ /1292 م.

ووظيفة كاتب الإنشاء من أرفع الوظائف، وصاحبها بمثابة وزير الخارجية وكاتم أسرار السلطان، يطلع على مراسلاته مع الملوك والأمراء، ويأخذ السلطان رأيه في الكبيرة والصغيرة ولا يعرف أحد غيره أسرار العمل، ولما تولى ابن السلعوس الوزارة للأشرف خليل حاول الإطلاع على ما يرد وما يرسل من السلطان عن طريق ابن عبد الظاهر، فامتنع من ذلك ووافقه السلطان على موقفه.

وكان يكتب للسلطان مناشير التعيين والعزل والمراسلات الخارجية بالتفصيل، وقد خلّد سلطانه بكتابه الرائع" تشريف الأيام والعصور بسيرة الملك المنصور".[2]

---

(1) الصفدي: أعيان العصر، م2، ص489 -494 . وقد سرد الصفدي ثروته بالتفصيل التام .

- الصفدي : الوافي بالوفيات ، م16 ، ص55 .

(2) ابن علي: الفضل المأثور، ص 51 .

- الجزري: تاريخ ابن الجزري ، م3، ص 359 .

- ابن حبيب: تذكرة النبيه ،م1، ص164 .

- النويري: نهاية الأرب ، م31 ، ص 256 .

4- سياسة قلاوون الخارجية:

بعد سقوط الخلافة العباسية في بغداد سنة656 هـ / 1258م أصبح سلاطين مصر هم حماة العالم الإسلامي، وقد تأكد ذلك عندما نجح قطز في سحق أقوى جيوش العالم آنذاك وهي جيوش التتار التي لم يقف في طريقها أحد من الصين حتى أبواب مصر، والمدعومة من أمراء الصليبيين، ولذلك كان السلطان المملوكي قطز و الظاهر بيبرس ثم قلاوون فالأشرف خليل ثم الناصر محمد والعادل كتبغا ولاجين والجاشنكير يعدون أنفسهم مسئولين عن أمن وسلامة المسلمين في الشرق والغرب.

ولم تكن سلطتهم تنطلق من المبدأ الضيق"مصر للمصريين" بل أنهم كانوا الملاذ الآمن والحصن الحصين لكل المسلمين الذين ابتلوا بمحاربة الأوربيين و التتار.

وكان المنصور قلاوون يسير على مبدأ المعاملة بالمثل مع حكام الغرب الأوربي، وكلما وقع ضيم على مسلمي الأندلس من إمارات الصليبيين وبلادهم، كان يرسل الوفود للإطلاع على الظلم الواقع على المسلمين هناك، ويحذر الملوك من ذلك أو يهدد بمنع الفرنجة من زيارة الأماكن المقدسة في القدس الشريف أو يلوّح بمبدأ المعاملة بالمثل إذا لم يجد ذلك كله.

وكان يعقد المعاهدات مع الصليبيين في الداخل والخارج عندما يكون متوجهاً لحرب المغول، ثم ينقضها لأي سبب عندما يرى الصليبيين قد خالفوا شروطها، وهو ما يظهر بوضوح في عمليات التحرير الواسعة في الفصل التالي.

وعلى سبيل المثال، فإنه عندما تسلطن المنصور قلاوون بعث برسالة إلى إمبراطور "القسطنطينية" ميخائيل الثامن مع بطريرك الأقباط حنا السابع والأمير ناصر الدين الجزري، الأول لتذكير الإمبراطور بأن هناك نصارى تحت حكم السلطان، والثاني لنقل أخباره إلى السلطان. وقد أعلمه السلطان بسلطنته ورغبته في تجديد الود ومعاهدات السلام المبرمة مع سلفه الظاهر بيبرس، وقد أجابه ميخائيل إلى المسالمة ودامت هذه المسالمة طويلاً حتى عصر الناصر محمد وعصر أندرنيكوس ولد ميخائيل.[1]

كما أرسل إلى صاحب(قشتالة) ألفونسوا أوف كاستيل سنة 681هـ / 1281م رسولين وأبرم معه معاهدة دفاع مشترك.

وكذلك أبرم الأخوان ملك "صقلية"وملك" أرغونه"معاهدة مماثلة مع قلاوون ضدّ أي حرب صليبية محتملة وضد اللاتين في الساحل السوري.[2]

---

(1) سرور، محمد جمال الدين: دولة بني قلاوون في مصر، مطبعة الاعتماد، القاهرة1947م، ص256 .

(2) سرور: دولة قلاوون، ص262 .

وقد استمرّت السفارات بين دولة المماليك وأرغونه، ففي سنة 699هـ / 1300م بعث جيمس الثاني ملك أرغونه برسالة إلى الناصر محمد أشار فيها إلى إغلاق بعض الكنائس في مصر والتمس من الناصر محمد إعادة فتحها.

فرد الناصر رداً واقعياً نابعاً من معرفته بقدره وقدر دولة المماليك في العالم الإسلامي، وكان مما ذكره في ردّه الدبلوماسي الحاسم:

«لقد فتحنا كنيستين، مع أن أمرهما إلى الشرع الشريف، ومقتضى الشرع الشريف ألا يبقى منها شيء قائماً إلا ما كان منها قائماً عند العصر العمري».

ثم قال: «إن كل ما تجدّد يقضي شرعنا هدمه، وقد اتفق أن جُدِّدت كنائس بعد الفتح العمري، والملك يعلم كما أنكم تحترمون دينكم، كذلك نحن يجب أن نقف عند شرعنا وأحكام ديننا».[1]

وهذا الرد الدبلوماسي الحاسم يبين أن دولة المماليك كانت تتعامل مع دولة الفرنجة بمبدأ المساواة والقوة والاقتدار، وترى أنه إذا كان ملك أرغونه يرى نفسه حامياً للنصارى في بلاد السلطان، فإن السلطان بالتالي يرى نفسه حامياً للمسلمين في الغرب.

ثم يقول الناصر في رسالته إلى جيمس الثاني ملك أرغونة في إشارة واضحة وجريئة إلى حسن معاملة المسلمين للنصارى وسوء معاملة النصارى للمسلمين:

«إن النصارى عندنا موقّرو الجانب لأنهم رعايانا، ونحن نعرّفه أنه بلغنا أن جماعة من المسلمين في بلاده، كانت لهم عوائد متقدمة بالكرامة والرعاية وعدم المعارضة في المساجد المستقّرين فيها،وإنهم الآن ربما تغيرّت عوائدهم وصاروا لا يتمكنون من الأذان في مساجدهم وإقامة الصلوات فيها، والمراد منه إزالة ذلك وإعادتهم إلى عوائدهم القديمة، وألا يغير عليهم شيئاً في مساجدهم، ويكف الضرر عنهم .

فهو يعلم أن الله تعالى ألقى إلينا مقاليد سائر أهل الإسلام حيث كانوا ويتعين علينا حمايتهم».[2]

وهكذا نرى أن مصر كانت قلب العالم الإسلامي حتى من قبل سقوط بغداد، ولكن مكانتها توطدت مع ظهور دولة المماليك وأصبحت مع – دمشق – قاعدة الجهاد الإسلامي.

- والغريب أنه بعد انقضاء ثلاثة قرون على ذلك، لم يعد في الأندلس مسلم واحد أو حتى قبر لمسلم بينما يعيش الأقباط في مصر عيشة يتمناها المسلمون خلفاء عمرو ابن العاص فاتح مصر.

---

(1) سرور: دولة بني قلاوون، ص265.

(2) سرور: دولة بني قلاوون، ص271.

خامساً - أسرة قلاوون ومن حكم بعده :

لم يذكر على كثرة من أرّخوا للمنصور قلاوون من تناول بالتفصيل أزواجه وأولاده، وإنما ذكروا بعض آله وذويه، وهذا ما ستتناوله هذه الفقرة

أ – **أزواجه**: أحصيت ست نساء اقترن بهن المنصور قلاوون وهنّ:

الزوجة الأولى: كانت من الإماء، تزوجها أو تسرّى بها في حدود سنة658هـ / 1259م، وأنجبت له ابنته الكبرى غازية خاتون، أخت الأشرف لأبيه والتي اقترن بها الملك السعيد بركة بن الملك الظاهر في ذي الحجة 674هـ / 1276م.[1]

الزوجة الثانية: هي أم ولده الصالح علاء الدين علي، ويقول المنصوري: «إنه وفد على مصر الأمير سيف الدين كوندك سنة 661هـ / 1263م، ومعه ثلاث بنات مستحسنات هنّ بنات سيف الدين كرمون: تزوج إحداهن المنصور قلاوون ورزق منها ابنه علي - وتزوج الثانية واحد من التتار. وبقيت الثالثة بكراً فتزّوجها الملك الظاهر بيبرس ثم طلقها فتزوجها كوندك.

وقد أقترن بها المنصور سنة 664 هـ/ 1226م، وحضر الملك الظاهر العقد، ودفع المهر من ماله، وتم العقد في سوق الخيل بالقاهرة، وقدم كل أمير ثلاث رؤوس من الخيل وثلاث "بقج"من القماش الفاخر للمنصور، وقد توفيت في شوال سنة682هـ / 1283م ودفنت في تربة السيدة نفيسة». [2]

الزوجة الثالثة: هي أخت الثانية تزوّجها سنة 682هـ / 1283م بعد وفاة أختها السابقة،وكما ذكر الدواداري: «كانت أمة – أم ولده علي- بنت سيف الدين كرمون، وقد توفيت في حياة السلطان،فتزوّج بعدها بأختها وهي مطلقة كوندك».[3]

الزوجة الرابعة: الخاتون أشلون بنت سكتاي، هي أشلون بنت سكتاي بن قر الجين، وفد أبوها إلى مصر سنة 674هـ / 1275م أيام الملك الظاهر بيبرس، تزوجها المنصور سنة681هـ / 1282م وهي أم ولده الناصر، ماتت في زمن سلطنت ولدها الثانية بحدود سنة705هـ / 1305م.[4]

الزوجة الخامسة: هي بنت الأمير سيف الدين التكريتي الظاهري، كان أبوها معتقلاً فأفرج المنصور عنه وعقد على ابنته سنة 687هـ / 1288م، ثم انفصل عنها من غير أولاد.[1]

---

(1) المقريزي: السلوك، م1، ص623 .

(2) المنصوري، زبدة الفكرة، م9، ص 102 و164 .

- ابن علي: الفضل المأثور، ص27 و236 .

- المقريزي:السلوك، م1، ص721 .

- الجزري: تاريخ ابن الجزري ، م3، ص363

(3) المنصوري: زبدة الفكرة، م9، ص228.

(4) ابن حجر، أحمد: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تح: محمد سيد جاد الحق، دار الكتب الحديثة، القاهرة 1966، ط2،4 مجلدات،م1، ص412 .

الزوجة السادسة: هي والدة ابنه أحمد، تزوّجها بعده الأمير بيسرى.[2]

ب - أولاده:

- الولد الأول : الخاتون غازيّة :

تزوجها الملك السعيد سنة 674هـ / 1275م، وهي كبرى أولاده، ولدت في حدود سنة 660هـ / 1262م، وماتت في رجب سنة687هـ / 1288م قبيل وفاة أخيها لأبيها علاء الدين علي في شعبان.

- الولد الثاني الملك الصالح علاء الدين علي:

أكبر أولاده الذكور وولي عصره، ولد في حدود سنة 665هـ - 1266م لأن أباه اقترن بأمه سنة 664هـ / 1265م. وفي شهر رجب سنة 679هـ / 1280م فوض له أبوه الحكم وجعله ولياً لعصره ولقبه بالملك الصالح تيمناً بالصالح أيوب، وقرن اسمه باسمه وأخذ له البيعة في جامع القلعة وكتب له التقليد محي الدين بن عبد الظاهر، وخطب له على منابر مصر والشام،وكان في الرابعة عشرة [3] ، وشق القاهرة من باب النصر إلى قلعة الجبل .[4]

وانفرد المقريزي بذكر رواية "رومانسية" عن هذا الزواج فقال: «إن "منك بك " هذه كانت تحت زين الدين كتبغا المنصوري، فرآها الملك الصالح علاء الدين علي في فرح والده على "أشلون" ففتنه حسنها حتى كاد يهلك، فما زال السلطان بطرنطاي حتى أقنع كتبغا بطلاقها،فطلقها واقترن بها علاء الدين علي » .[5]

وقد توفي يوم الجمعة 4 شعبان سنة 687هـ / 1288م بعلّة الزحار الكبدية ، وصلى عليه أبوه وأخوه الأشرف خليل، وخلف ولداً ذكراً واحداً من زوجته منك بك بنت الأمير سيف الدين نوكيه،اسمه الأمير مظفر الدين موسى.[6]

---

(1) المنصوري: زبدة الفكرة، م9، ص264 .

(2) المقريزي: السلوك،م1،ص835 .

(3) ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، م7،ص186 .

- المقريزي :السلوك،م1،ص682 وفيها أن البيعة كانت في 27،ج1،ص679 .

- النويري : نهاية الأرب،م31،ص68 .

- ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام والعصور، ص288 .

- المنصوري: زبدة الفكرة،م9، ص185،وفيها أن ذلك كان في رجب وليس جمادى الأولى.

(4) المنصوري: زبدة الفكرة، م9، ص228 .

(5) المقريزي: السلوك، م1، ص709 .

- النويري: نهاية الأرب، م31، ص91 .

(6) ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، م8، ص70 .

- النويري : نهاية الأرب، م31، ص159 .

ولما قامت دولة عمه الناصر محمد صار في زمرة الأكابر وأمّره بمائة فارس.

ومن الأمور الطريفة أن المقريزي ذكر أن والده المنصور قلاوون استدعى الفقراء ليدعوا لابنه قبل وفاته، وحضر الشيخ عمر، خليفة الشيخ أبي السعود إلى السلطان وجمع الفقراء وعملوا سماعاً، ثم عاد إلى السلطان وقال: (طيب خاطرك، الفقراء كلهم سألوا ولدك من الله فوهبه لهم) وفي اليوم التالي مات عليّ، فرأى السلطان الشيخ عمر فقال له الشيخ عمر بداهة: (إن الفقراء طلبوه ووهبهم إياه ألا يدخل جهنم، ويدخله الله الجنة. فسكت السلطان)[1].

وذكر المقريزي أن عمره زاد على الثلاثين.

وذكر ابن حبيب أنه كان في العشرين من عمره وقد دفن في تربة والدته في السيدة نفيسة.[2]

- الولد الثالث- الملك الأشرف خليل:

ولد في حدود سنة 666هـ / 1268م وتولى الملك يوم وفاة والده في سادس ذي القعدة سنة 689هـ / 1290م، وخطب له يوم الجمعة في 12ذي القعدة 689هـ / 1290م وركب في الموكب، وخلع على الأمراء ووجوه الدولة.

وقد وصف بأنه كان مفرط الشجاعة، وأجمع المؤرخون على أنه أشجع سلاطين المماليك على الإطلاق، ومن بعده الناصر فرج بن برقوق.

حكم قرابة ثلاث سنين وشهرين أمضاها في الجهاد. وقد بدأ سنة 690هـ - 1291م بفتح عكا والساحل السوري كله، وفي سنة691هـ - 1292م فتح قلعة الروم وسماها قلعة المسلمين.

وكما قال ابن تغري بردي: «لو طالت أيامه لأخذ العراق وغيرها، فإنه كان بطلاً شجاعاً مقداماً مهيباً عالي الهمّة، يملأ العين ويرجف القلب، وكان ضخماً سميناً كبير الوجه بديع الجمال مستدير اللحية، على وجهه رونق الحسن، وهيبة السلطنة، وكان غاية في الكرم، وكان مخوف السطوة شديد الوطأة قوي البطش، تخافه الملوك في أمصارها، وكان منهمكاً على اللذّات لا يعبأ بالتحرز لفرط شجاعته».[3]

- الدواداري : زبدة الفكرة، م9، ص263 .

- ابن علي : الفضل المأثور، ص164 .

(1) المقريزي : السلوك، م1، ص745 .

(2) ابن حبيب : تذكرة النبيه، م1، ص114 .

- المنصوري: التحفة الملوكية، ص114 .

(3) ابن تغري بردي: المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي ، تح : محمد أمين، مطبعة دار الكتب، مصر 1976، م5 ، ص 270 – 272 .

وثمة أوجه تشابه كثيرة ومحيّرة بين مقتل الملك الأشرف خليل، ومقتل المعظم تورانشاه بن الملك الصالح أيوب، فالعمر متقارب في العشرينيات، وكل منهما حقق انتصارات تاريخية خالدة على الصليبيين، وكل منهما قتلُ ظلماً بدون وجه حق، ولُفّقت له اتهامات لا أصل لها.
وكل منهما مثّل به بعد موته تمثيلاً بشعا، فالمعظم مات حريقاً وغريقاً والأشرف ألقي في العراء يومين بعدما شُوّهت جثته.

وقد ذكر المؤرخون أنه في يوم السبت الثاني عشر من المحرّم سنة 693 هـ / 1293 م كان الأشرف قد أعطى إجازةً للعسكر، وخرج مع خاصّته يتصيّد في ضواحي الإسكندرية بدون أن يكون معه حرس أو سلاح، وقد فاجأه عدد من أمرائه المتآمرين، والذين عفا عن بعضهم مراراً، وكان على رأسهم الأمير بدر الدين بيدرا، نائب السلطنة، وحسام الدين لاجين الذي مثّل بجثته.[1]
وقد عاجله بيدرا بضربة لم تكن مؤثرة، فانقض لاجين عليه وضربه بسيفه ضربةً أتت عليه، ثم جاء الآخرون كل يحاول أن يفوز "بشرف قتل الأشرف "وقد قُتل هؤلاء القتلة في اليوم التالي والأيام التالية، ومُثل بهم، وألقي بأجسادهم في مستوقد الجير والكلس وكان بيدرا الذي تسلطن مدة 12 ساعة فقط أول القتلى. وبعد يومين من مقتله غُسل وكفن ووضع في تابوت ودُفن في تربة أمه قرب مشهد السيدة نفيسة وقد ترك ابنتين ، ولم يكن له أولاد ذكور.[2]

- الولد الرابع - الملك الناصر محمد بن قلاوون:

أشهر سلاطين المماليك وأطولهم مدة في الحكم.

أمه: أشلون خاتون بنت سكتاي الذي كان قد وفد إلى مصر أيام الملك الظاهر سنة 674 هـ /1275 م، تولى الملك للمرة الأولى بعد مقتل أخيه الملك أشرف في المحرم 693 هـ / 1293 م وحلف له الأمراء.

وفي رجب من العام المذكور صدر المرسوم بأن يخطب له وللأمير زين الدين كتبغا، وكان الناصر في التاسعة وقد أقام في السلطنة شكلاً ولم يكن له من الأمر شيء، وهذه سلطنته الأولى التي استمرت حتى سنة 694 هـ / 1294 م.[3]

---

(1) البرزالي: المقتفى، م2، ص 347 .
- الدواداري: كنز الدرر، م3، ص 345
(2) المقريزي: السلوك ، م1 ، ص 790 .
- ابن تغري بردي : المنهل الصافي ، م2 ، ص 278 .
- الجزري : تاريخ ابن الجزري ، م3، ص 360 وما بعد .
(3) العمري، أحمد بن يحيى : مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تح: أيمن فؤاد السيد،المعصر العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة 1985، م 27، ص473 .

وفي المحرم 694 هـ / 1294 م فعل كتبغا بالناصر مثلما فعل سيده قلاوون بالعادل سلامش ابن الملك الظاهر، فقد عزله وسجنه في داره، وأقام معزولاً حتى سنة 698 هـ / 1298 م عندما قُتل السلطان حسام الدين لاجين المنصوري.[1]

وعاد السلطان الناصر ثانية إلى الحكم وأقام نحواً من عشر سنين لم يكن له من الحل والربط شيء، حتى وانه عندما ظفر بغريمه السلطان بيبرس الجاشنكير بعد أسره، قال له:هل تتذكر يا عم عندما طلبت منك اللوز والسكّر نهرتني وقلت لي: أفي كل يوم تطلب اللوز والسكر؟.[2]

وفي شوال 708هـ / 1309م عُزل الناصر للمرة الثانية واستقرّ في الكرك وتسلطن مكانه بيبرس الجاشنكير، وأخيراً كانت عودته الثالثة، وهي الثابتة حكم خلالها على مدى ثلاثين سنة كاملة بصلاحيات مطلقة، وكان ذلك في شوال709هـ / 1309م وبقي في الحكم حتى سنة 741هـ / 1340م. أما دوره في الحروب ضد الصليبيين:

تحقق في عصره تصفية الوجود الصليبي تماماً من الشام.

هزم التتار وهي الهزيمة التي أطاحت بالتحالف الصليبي- المغولي في معركة شقحب .[3]

أصبح الناصر سلطان المسلمين في العالم كله وحارب الصليبيين سنوات طويلة حروباً دبلوماسية وعسكرية عاتية. وهو ما لم يذكره أو يعرفه الكثيرون.

- **الولد الخامس - الأمير أحمد** :

مات صغيراً في سلطنة أخيه الأشرف.

وللمنصور ثلاث بنات هن:

الأولى: الخاتون غازية .

الثانية: التطمش وتعرف بدار مختار.

الثالثة: دار عنبر الكمالي.

كما ترك المنصور أرملته أشلون التي ماتت في سلطنة ابنها الناصر محمد.[4]

---

(1) العمري: مسالك الأبصار، م27،ص503.

(2) المقريزي: السلوك، م2، ص80 .

(3)المقريزي : السلوك، م1، ص 936 .

(4) المقريزي : السلوك ، م1 ،ص 755 .

سادساً - حدود دولة المماليك:

ليس الغرض هنا كتابة وصف تفصيلي شامل لدولة المماليك، وإنما التعريف بحدود هذه الدولة كما كانت في أيام المنصور قلاوون، لمعرفة إمكاناتها المادية والعبء الكبير الذي وقع على كاهل حكامها في الدفاع عن هذه الدولة المترامية الأطراف وفي زيادة مساحتها على حساب الدول المتحالفة مع الصليبيين والمغول في الشمال. ولم تكن دولة المماليك التي ضمت الشام ومصر والحجاز والنوبة إلا وريث لدولة الأيوبيين التي وضع قواعدها السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي.

1- حدود مصر في عصر المماليك :

وصلت حدود مصر في الجنوب إلى خط العرض 15 شمالاً إلى مدينة دنقلة والنوبة وهو ما يعرف اليوم بالسودان الشمالي، أم حدود الدولة المملوكية من الجنوب إلى الشمال كان يعادل حوالي 4000 كم.

وأما خط الحدود الشرقي فكان جزيرة العرب، فيما وراء جبال الحجاز عند خط طول 42 + 42 شرقاً لمسافة تقرب من 2800 كم.[1]

وذكر القلقشندي: «أن برقة بلاد متسعة الأرجاء، وأكثرها مراعي وتشبه أطراف الشام، وكانت عاصمتها قديماً طبرقا وطرابلس وهي قسمان: قسم محسوب على الديارالمصرية وهو القسم الشرقي، وقسم محسوب من أفريقيا وهو القسم الغربي، وأمرها جميعاً إلى صاحب مصر».[2]

وتضم ثلاث قواعد[3] وخمس كُوَرُ[4] رئيسية:

القواعد : فهي ثلاث تقاربت واختلطت حتى صارت قاعدة واحدة وهي:

1- مدينة الفسطاط:

بناها والجامع فيها عمرو بن العاص، وكانت مدينة عظيمة فيها القصور الكبرى، ثم هدم الظاهر بيبرس الكثير منها، ولم يبقَ فيها إلا ما هو على شاطئ النيل والجامع العتيق، ودُثرت أكثر الخطط.[5] ويقابلها في الجهة البحرية جزيرة الصناعة، التي عُرفت بجزيرة الروّضة وفيها الجامع الكبير وجامع أحمد بن طولون.

---

(1) مؤنس ، حسين : أطلس تاريخ الإسلام ، القاهرة 1987 م ، ص 304 .

(2) القلقشندي : صبح الأعشى، م 3 ، ص 447 وما بعد .

(3) القواعد : هي العواصم، وهي هنا : الفسطاط والقطائع والقاهرة، عواصم مصر الثلاث . انظر ؛القلقشندي : صبح الأعشى، م3، ص392 .

(4) الكُوَرُ : مفردها كورَةُ : المدينة أو الصُقعُ . انظر، العلايلي : الصحاح، م2، ص417 .

(5) القلقشندي : صبح الأعشى، م3، ص366 .

2- **مدينة القاهرة**:

وهي عاصمة مصر الفاطميّة، يحيط بها سور طوله (29300) ذراع.[1]

3- **القلعة**:

وهي ضمن القاهرة، لكنها من بناء الطواشي* بهاء الدين قراقوش، الذي بناها بأمر من الناصر صلاح الدين.[2]

وهي مدينة ضمن مدينة، فيها يقيم السلطان ومماليكه، ومن سيطر عليها فقد سيطر على الدولة كلها.[3]

وفي القلعة معالم مشهورة منها :

- الجبّ: وهو السجن الذي بناه المنصور قلاوون.
- دار العدل: بناها الظاهر بيبرس.
- الإيوان: أنشأه المنصور قلاوون.
- القصر الأبلق : أنشأه الناصر محمد بن قلاوون.
- قصر الأشرفية : أنشأه السلطان أشرف خليل.
- جامع القلعة: أنشأه الناصر محمد بن قلاوون.
- خزانة الكتب.
- دار النيابة: عمّرها المنصور قلاوون.[4]

وقد استمرت هذه القلعة مركزاً للحكم في مصر حتى عصر محمد علي باشا.

كُوَرُ مصر: وتضم مصر خمس كُوَرُة كبرى:

كورة الصعيد: من جنوب الفسطاط حتى أسوان، وفيه عشرون كورة فرعية أشهرها الفيوم، منف، أسيوط، وقنة، أرمند، أسوان.

الوجه البحري: وفيه 33 كورة تضمها أربع نواحٍ هي:

من الناحية الشرقية: 8 كور منها: عين شمس، العريش، صان الحجر.

كور بطن الريف: وهي سبعة منها: بوصير، سمنود، الدقهلية، دمياط.

كورة الجزيرة: وفيها خمس كور وهي التي عُرفت فيما بعد بالدلتا، وهي محصورة بين فرع رشيد وفرع دمياط وأشهر كورها: منوف، سخى.

---

(1) القلقشندي: صبح الأعشى ، م3 ، ص 399 .

* الطواشي:هم المعروفين بالخدم، وكان لهم في دولتهم مكانة جليلة -القلقشندي :صبح الأعشى،م3،ص 477 .

(2) القلقشندي: صبح الأعشى ، م3 ، ص 421.

(3) المقريزي : خطط القاهرة ، م3 ، ص 650.

(4) المقريزي : خطط القاهرة ، م3 ، ص 652 حتى 695.

كور الغربيّة: وهي إحدى عشرة كورة أشهرها: خرتبا، مريوط، البحيرة، رشيد.

كور القبلة: في الجنوب الشرقي وتضم خمسة كور وهي: الطور، فاران (السويس)، القلزم، أيلة (العقبة)، مدين، شعيب، وهي محاذية للبحر الأحمر.[1]

كور الواح: وهو ثلاث كورة :

1- واح الأولى: مقابل البهنا والفيوم.

2- واح الثانية: مقابل أسيوط.

واح الخارجة: جنوب واح الثانية.

هـ - كور برقة: وسبق الحديث عنها.[2]

2- **الحجاز واليمن** :

كان الحجاز تابعاً لدولة المماليك بعد سقوط الخلافة في بغداد، وبذلك أصبح سلاطين المماليك حماة الحرمين الشريفين، وهو ما أكسبهم ثقة العالم الإسلامي.

وكان أشراف الحرمين يعيّنون من القاهرة ويعزلون منها.

كما أن محمل الحج المصري انطلق من القاهرة وكسوة الكعبة إلى الحرمين الشريفين منذ أيام الملك الظاهر واستمر ذلك حتى سقوط الحجاز بيد آل سعود، وبعكس سلاطين العثمانيين الذين لم يحجّ أحد منهم على الإطلاق، فقد كان سلاطين المماليك يؤدون هذه الفريضة وكان الظاهر أولهم.

ومن جهة أخرى كانت المواد التموينية والإعانات لأهل الحرمين الشريفين تصل مع قافلة الحج المصري والشامي حتى سقوط الحجاز.[3]

أما اليمن فقد كانت تابعة لمصر منذ أيام صلاح الدين تبعيّة متراخية لاعتبارات مذهبية معروفة واستمر الحال كذلك حتى سقوط دولة المماليك.

3- **بلاد الشام**: وتسمى: الممالك الشاميّة:

كان خط الحدود الجنوبي يمتد من خليج العقبة حتى العريش.

والغربي: من رفح جنوباً حتى طرسوس شمالاً.

والشمالي: بلاد الأرمن والإمبراطورية البيزنطية.

والشرقي: من العقبة حتى الفرات، ومن الفرات حتى مرعش و طرسوس.

وأقصى امتداد لهذه البلاد هو 850كم من الجنوب إلى الشمال و350كم من الشرق إلى الغرب، بمساحة إجمالية تصل إلى حوالي 400000 كم^2.

---

(1) القلقشندي : صبح الأعشى، م3 ، ص 430 حتى 439 .

(2) القلقشندي : صبح الأعشى ، م3 ، ص443 حتى 447 .

(3) سرور: دولة بني قلاوون في مصر ، ص 117 وما بعد .

وتشمل هذه الممالك ست نيابات أو ولايات تسمى عادة بالممالك وهذه النيابات هي: - مملكة حلب - مملكة حماة - مملكة طرابلس- مملكة صفد - مملكة الكرك والشوبك - مملكة دمشق.[1]

- مملكة دمشق:

كانت دمشق من أهم الممالك في دولة المماليك، لأن الذي يسيطر عليها قد يصبح السلطان وهو ما كاد يحصل للملك المجاهد سنجر الحلبي الذي رفض الاعتراف بسلطنة الظاهر، وما حصل للملك الكامل سنقر الأشقر الذي تسلطن في القاهرة وتوجّه نحو مصر، وما حصل للملك الناصر محمد الذي هرب من الكرك إلى دمشق ثم تقدم منها إلى القاهرة وعاد إلى السلطنة، وما حصل فيما بعد للملك المؤيد شيخ المحمودي، وغيرهم. وكانت مملكة دمشق تضم خمس مناطق كبرى:

1- منطقة دمشق : وتضم المدينة وريفها في الشرق والغرب من الكسوة حتى النبك.

2- منطقة غزّة وهذه تضم: - عَمَل غزّة وبرّها و اللدّ* وقاقون والقدس والخليل ونابلس.[2]

3- منطقة حوران: وتعرف بالقبليّة وتضم عشرة أعمال هي: بيسان وبانياس والشعرا وعاصمتها القنيطرة ونوى وأذرعات وعجلون والبلقاء وصرخد وبصرى وأزرع.

4- منطقة بعلبك: وتضم خمسة أعمال هي: مدينة بعلبك وما حولها ، مدينة بيروت وما حولها، مدينة صيدا وما حولها ، البقاع العزيزي، البقاع البعلبكي.

5- منطقة حمص: من النبك حتى سلميّة، ومن الفرات حتى العاصي وتضم ست أعمال هي: مدينة حمص وضواحيها، مصياف وقراها وكانت مركز قلاع الدعوة، مدينة قارا شمال النبك، تدمر، السّلميّة، الرحبة على الفرات قرب الرقة.[3] وكان يربط دمشق بالقاهرة طريق دولي يمر من المصطبة عند قرية القدم جنوب بوابة دمشق ويضم 15 مركزاً رئيساً، ثمانية منها في الشام وسبع في مصر وهي: الصنمين وطفس وإربد وجينين وقاقون واللد وغزة والعريش وهي آخر حدود الشام وعندها يتفرع الطريق الدولي إلى ثلاثة فروع هي: دمشق والكرك وصفد .

وأما محطات مصر فهي: الودّادة والمطيلم و قطيا والصالحية وبلبيس والخانكاه وأخيراً قلعة الجبل في القاهرة.[4] وكانت الجيوش تقطع الطريق من القاهرة إلى دمشق بحوالي الشهر، يزيد أسبوعاً أو ينقص أسبوعاً بحسب الأحوال، أما الراكب العادي فيقطع الطريق بسبعة أيام، وفي الأحوال

---

(1) العلبي : دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين، ص24 .

* - اللد : بلده من جند فلسطين، بينها وبين الرملة ثلاثة فراسخ والفرسخ يعادل 5544م، القلقشندي : صبح الأعشى ، ج4 ، ص 100.

(2) العلبي : دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين ، ص 37 .

(3) القلقشندي : صبح الأعشى ، م 2 ، ص 77 .

(4) ابن طولون، محمد : مفاكهة الخلان في حوادث الزمان ، تح : محمد مصطفى ، القاهرة 1962م ، جزءان ،ج2، ص7 .

المستعجلة النادرة كانت هذه الطريق تُقطع بأقل من 60 ساعة، كما هو الحال عندما وصلت الكتب بسلطنة قلاوون من القاهرة إلى دمشق على خيل البريد في غضون 55 ساعة فقط.[1]

سابعاً - الجيش المملوكي:

نشأ المماليك نشأة عسكرية بحتة، ومهروا بالفروسية وركوب الخيل ورمي النشاب والرماح والقتال البحري، وتصنيع السفن الحربية المختلفة والمنجنيقات والنار اليونانية وساترات السهام والأكباش المدمِّرة، وطريقة دك الحصون والقلاع بأساليب علمية متطورة شارك فيها المماليك فئات كثيرة من فئات الشعب. وبصورة عامة فقد جمع المماليك عدة أمور جوهرية ضمنت لهم النصر في حروبهم ضد أعدائهم وهي :

تمسّكهم الشديد والمدهش بعقيدتهم الدينية، مع أنهم في معظمهم نشئوا في ظل ديانات أخرى، ولم نشاهد عند كل سلاطين المماليك والأمراء والقادة من خان البلاد، أو هادن أو تآمر مع قومه السابقين ضد دولة المماليك، وهو ما حيّر المؤرخين، تماماً مثلما أذهلتهم فرق "الإنكشارية" العثمانية فيما بعد، بل إن السلطان قلاوون، وابنه الأشرف خليل وابنه الناصر محمد اتخذوا إجراءات صارمة ضد بعض الحكام والمسئولين في الدولة ،عندما شكوا في ولائهم لها، وأقرب الأمثلة لنا هو السلطان العادل كتبغا، فهو من التتار، أُسر في حمص ثم تسلطن، ولم يساير قومه أو يهادنهم بعدما دان بالدين الإسلامي. بالإضافة إلى ذلك، فإنهم لم يكونوا يحاربون بإسلوب "السيف والترس" بل إن الحرب عندهم كانت إضافة للشجاعة فناً قائماً بذاته له قواعده وأصوله وتدريباته، مثلما يجري اليوم في الكليات العسكرية العليا تماماً. وقد كان ميدان سوق الخيل في القاهرة، وميدان ابن أتابك في دمشق المكان الرئيسي للتدريبات العسكرية العالية.

والأمر الثالث أنهم صنّعوا أسلحة متطورة تضاهي الأسلحة الأوربيّة وتزيد عليها، وكانت هذه القوّة معترف بها ضمناً في أوربا، وقد تجلّت بأسمى معانيها في فتح عكا.

والأمر الرابع أنّ المماليك وضعوا مؤلفات عدّةً في الأسلحة وفنون القتال وطرق عمل الألغام والمتفجرات والنار الحارقة وما إلى ذلك وهي كتبٌ مشهورةُ ومعروفة.

أ- ديوان الجيش:

وهو يعادل وزارة الدفاع اليوم تماماً، وكان يرأسه ناظر الجيش، وهو من أبناء البلد وليس من المماليك، وهو الذي يتولى نظر الإقطاعات في مصر والشام، وهي المورد الأساسي للضباط والعسكر، ويدوّن كل شيء في سجلات خاصة،على درجة عالية من الدقة والإحكام.[1]

---

(1) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ، م7 ، ص 152 -157 .

وكان لدى دولة المماليك ديوانان هما ديوان " الجيش المصري" ، وديوان " الجيش الشامي" ، وكان يقوم على إدارة كل ديوان أربعة مساعدين هم:

صاحب ديوان الجيش: وهو بمثابة النائب له.

مستوفي الجيش: ومهمته تحديد مرتبات الجنود، وكان يقوم بهذا العمل موظف في مصر وآخر في الشام.

مستوفي إقطاعات العرب: هو الذي ينظم إقامة البدو والعرب ويشرف على الأراضي التي يقيمون عليها.

مستوفي الأرزاق: يقوم بصرف رواتب الجنود.

وهناك منصب " نقيب الجيش" وهو بمثابة قائد الجيش ورئيس الحرس الملكي، وكانت سلطاته واسعة وهو من المماليك.

ب- فرق الجيش:

كان الجيش المملوكي موزّعاً بين السلطان في معسكرات القلعة، وبين أقطار الدولة في مصر والشام. وكان الجيش يتكوّن من فرق نظامية كل أفرادها من المماليك وهذه الفرق هي:

المماليك السلطانية: كان السلطان يجلبهم إلى مصر ولذلك عُرفوا بالجلبان والأجلاب.

المماليك القراصنة: وهم مماليك السلاطين السابقين، ويعرفون بالمماليك السيفية.[2]

المماليك السلطانية الخاصكية : هم مماليك السلطان عند اعتلائه العرش وهم من المقربين للسلطان ويعرفون أيضاً بالمشتروات، ويسكن هؤلاء في مساكن تسمى "طباق" القلعة، وكان قلاوون أول من أسكنهم فيها.

أجناد الحلقة: وهم من محترفي الخدمة العسكرية مثل الجنود المتطوعين اليوم، وهم عصب الجيش المملوكي والقوة الضاربة الرئيسية فيه وهم ثابتون لا يتغيرون بتغير السلطان، وهم دائماً تبع السلطان القائم أياً كان.[3]

مماليك الأمراء: وأفرادها يتلقوّن الأوامر من أمرائهم مباشرةً ويترفعون بارتفاعهم وينحطون بانحطاطهم، وكان ثمة فرق من المماليك تسمى "أولاد الناس"وهم من ولد في مصر ولم يمسسهم الرق، وكانت مكانتهم الإجتماعية أقل من المماليك، وكانوا بمثابة الجيش الاحتياطي، تُدعى في حالة الحرب وتتقاضى الرواتب الثابتة على مدار العام في الحرب والسلم.

أما جنسية الجيش فكان من التتار والجركس والكرج والتركمان والروم والأكراد، وغير ذلك.

---

(1) القلقشندي:صبح الأعشى، م4 ، ص 18-34 ،للإستزادة يمكن الرجوع إلى وصية ناظر الجيش في المصدر المذكور ج 11، ص314 .

(2) القلقشندي : صبح الأعشى ، م4 ، ص 14 .

(3) المقريزي : خطط القاهرة ، م 3 ، ص700 .

أما أولاد البلد أي العرب، فكان منهم في الجيش النظّار والأئمة والقضاة والمتعيّشة والصناع وكلهم من غير المقاتلين، إضافةً إلى فئة محدودة كانت تبرز في القتال والحصار بصورة غير عاديّة مثل تسلّق الأسوار، أو مخترعي الأجهزة الحربية الجديدة.

وكان العسكر يقيمون في قلعة الروضة التي بناها الصالح أيوب على "بحر النيل" ولذلك عُرفوا بالبحرية، ثم نُقلوا إلى القلعة وسكنوا في أبراجها فعرفوا بالبرجيّة منذ أيام المنصور قلاوون.[1]

ج- أعداد الجيش:

ذكر المقريزي أن عدد قادة الجيش المصري كان 24,630 رجلاً، من جميع الطوائف السابقة. وهم:

كبار الضباط الأمراء "أمراء الألوف" وعددهم مع مماليكهم 2424 رجلاً منهم 24 ضابطاً فقط في كل مصر، من الضباط الأمراء.

أمراء المئات: وهم دون الأولين وعددهم مع أتباعهم 820 فارساً.

أمراء العشرات ومماليكهم :2200 فارساً.

ولاة الأقاليم 77 أميراً.

مقدمو الحلقة والأجناد 11,176 فارساً.

نقباء الضباط الأمراء "الألوف" 24 نقيباً .

مماليك السّلطان وأجناد الحلقة 8,932 فارساً .

أما ابن شاهين الظاهري فكان له رأيٌ آخر، إذ ذكر ما يلي:

عدد الجنود والضباط في كل مصر 24000 فارساً.

أما في الشام فكانوا:

أجناد الحلقة ومماليك النائب والأمراء بدمشق 15000 فارساً.

وفي حلب 8000 فارساً.

وفي طرابلس 5000 فارساً.

وفي صفد 2000 فارساً.

وفي غزة 1000 فارس.

مجموع أجناد الحلقة في مصر والشام 73,000 فارساً.

مجموع أجناد النواب في مصر والشام 60,000 فارساً.

المجموع العام لجيش المماليك 133000 فارساً إضافةً إلى حوالي 314,000 من العرب.[2]

---

(1) المقريزي : السلوك ، م1 ،ص 690 .

(2) الظاهري، عزالدين خليل بن شاهين: زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ، باريس 1894 م، ص103 - 105.

أما الرواتب فكانت تتراوح بين 85,000 ديناراً في السنة لأمراء الألوف و40,000 ديناراً لأمراء المئات و10,000 للخاصكية، ثم يتدنى الراتب إلى 1000 دينار فقط لمقدّمي الحلقة.[1]

د- أسلحة الجيش :

1- **الأسلحة الفردية** :

أ- السيف ومنه أنواع كثيرة مثل الطويل والقصير والعريض والدقيق.

ب- الخنجر والبلطة والفأس أو الطبر والدبّوس.

ج- حملة الفأس "الطبرداريّة" هم الحراس المختارون للسلطان يلازمونه حيثما تحرّك.[2]

د- وهناك المقالع والأقواس والحراب وقوارير النفط المملوءة بالنفط والصبر وبذور القرطم (العصفر).

2- **الأسلحة الجماعية**:

المنجنيقات:

هي السلاح المدّمر في جيش المماليك ولولاه ما فتح قلاوون ولا أولاده حصناً واحداً. وكانت هذه المنجنيقات تُصنع في دمشق من أشجار لبنان، وكانت على درجة عالية من الدقة والقوة والردع، وكانت تُجر جرّاً إلى المدن الساحلية السهلة أو تحمل أجزاؤها على الجمال إلى الأماكن الوعرة والجبلية وهناك يُعاد تركيبها بواقع منجنيق واحد في بضع ساعات فقط. وكان لهذه المنجنيقات أنواع مختلفة لكل منها قوة تدميرية محسوبة وعدد من العجلات، ولكل منها أيضاً مزايا فنية وقتالية.

ومن هذه المنجنيقات "المنجنيق المنصوري" الذي كان له دور حاسم في تحرير عكا وتدمير استحكاماتها الحصينة، وكان يجر على مائة عجلة (دولاب)، وعشرات الثيران.[3]

وذكر ابن عبد الظاهر، الذي كان شاهد عيان عند محاصرة قلعة صهيون وهي حصن حصين من أعمال حمص ، سنة 686 هـ / 1287 م: " أنه في تاسع صفر سنة 686 هـ - 1287 م، نُصب منجنيق يسمى "بقشتمر" وهو من المجانيق المصنوعة في دمشق، ورُمي به على قلعة صهيون فكسر منجنيقاً في صهيون، ثم أُدير فكسر منجنيقاً آخر، ثم أُدير فكسر منجنيقاً آخر من منجنيقات صهيون المنصوبة داخلها وهي منجنيقات كبيرة من طراز إفرنجي " .[4]

ومن الأسلحة الجماعية الأخرى: "**القلاع المتحركة**" وهي أبراج من الخشب الملبّس بالجلود غير القابلة للاحتراق، تُحمل عليها مجانيق صغيرة وسريعة الحركة ويساعدها عدد من السلالم الطويلة.

---

(1) المقريزي : خطط القاهرة ، م3 ، ص 708 .

(2) القلقشندي : صبح الأعشى ، م5 ، ص 430 .

(3) أبو الفداء : المختصر، م 4 ، ص 25 .

(4) ابن عبد الظاهر : تشريف الأيام والعصور ، ص 149 .

وهنالك "الكباش" وهي أعمدة خشبية قوية وطويلة، توضع على عجل وتدك الأسوار المتينة.
وكانت هذه الأسلحة تحفظ في "الزردخانة" ويشرف عليها "الزردكاش" وأمير السلاح والسلحدارية.[1]

هـ - الأسطول ودار الصناعة:

بدأ الملك الظاهر بيبرس ببناء الأسطول المصري لمواجهة أساطيل الصليبيين في البحر ولغزوهم في عقر دارهم، وقد وصل هذا الأسطول إلى قبرص،قاعدة الصليبيين الأولى في البحر المتوسط. أما الأشرف خليل، فقد بنى أسطولاً ضخماً في دار الصناعة بالروضة مؤلفاً من خمسين قطعة بحرية مختلفة وأجرى عرضاً عسكرياً في بحر النيل كان حديث أهل القاهرة والفسطاط، كما كان في الفسطاط والإسكندرية ودمياط مصانع للسفن.

وكان في كل سفينة برج وقلعة وكانت تضّم أنواع السفن المختلفة من الشواني والحراريق والطرائد والأغربة والبطس والقراقير والعشاريات والفلاك، وهي كالتالي:

- الشواني: فهي سفن حربية كبيرة، بها أبراج وقلاع للدفاع والهجوم وتجهز بالسلاح والنفط والجنود الماهرين في السباحة والغطس والقتال، وفي أسفلها ملاحون بالمجاديف التي تبلغ 140 مجدافاً.[2]

الحراريق أو الحراقات: هي سفن كبيرة تستعمل في حمل الأسلحة النارية، وقد نجحت مع الشواني في فتح وتحرير جزيرة أرواد.

الطرائد: هي سفن حربية سريعة الحركة تستخدم لحمل الخيل والفرسان، وكانت تسع ما بين 40 و80 فارساً.[3]

الأغربة: مفردها غراب، وهي سفن مطاردة سريعة.

البطس: مفردها بطسة، اقتبسها المماليك من الصليبيين وهي سفن كبيرة الحجم تستخدم لحمل المجانيق وما شابهها.

القراقير: وهي سفن إمداد وتموين للأسطول تزوده بالماء والسلاح والرجال.

العشاريات: هي الزوارق والمراكب النيلية.

الفلاك: جمع فلوكه وهي القوارب.

وقد استطاع الناصر بهذه السفن أن يدرك جزيرة رودس رأس الحربة الصليبية على المسلمين.[4]

---

(1) القلقشندي : صبح الأعشى، م4، ص11.

(2) المقريزي : خطط القاهرة، م2، ص 571 .

(3) إسماعيل، البيومى : النظم المالية في مصر والشام زمن سلاطين المماليك، الهيئة المصرية العامة للكتاب، فرع الصحافة 1998م .

(4) النويري : نهاية الأرب، م1، ص247، م14، ص338 .

و - قلاوون والعسكر الجديد:

اشتدّت الهجمات المغولية على بلاد الجراكسة في القرن 7 ه /13م ، وعلى سواحل البحر الأسود وأطراف بلاد الأبخاز الذين من فروعهم: السركس والأركس والكسا والآص، ولذلك امتلأت أسواق المماليك في مصر بهؤلاء الجركس، وقد اشترى قلاوون منهم نحواً من 3700 جندي وأسكنهم في أبراج القلعة بالقرب من مكان إقامة السلطان وقال: "هؤلاء كالأسوار والحصون المانعة لي ولأولادي وللمسلمين"، وقد أضاف قلاوون إلى أبراج القلعة برجاً عظيماً بجانب باب السر الكبير، وبنى في مستواه طباقاً ألحق بها عدة قاعات مرّخمة.[1]

وقد أطلق قلاوون على هذا البرج اسم: البرج الكبير، وكان ثمة في القلعة أيضاً: البرج الأحمر وبرج الزاوية وبرج الحدّاد وبرج الرملة وبرج الإمام وغيرها.[2]

وقد جعل البرج الكبير لمماليكه الجدد وفصلهم عن الفرق المملوكية المعروفة لدى المؤرخين باسم الترك. وقد عني قلاوون عناية فائقة بمماليكه الجدد، ودأب على الجلوس في القلعة ليشهد تدريباتهم، وألبسهم لباساً جديداً، وأبطل لباس العسكر القديم، وظهر العسكر بلباسهم الجديد.

وعندما جاء الأشرف خليل أنشأ منهم فرقة عسكرية خاصّة اسمها "الأشرفية".

وكان عددها 5000 فارساً يأتمرون بأمره مباشرة، وهي التي تولت تصفية جميع الأمراء الذين اشتركوا في اغتياله.[3]

ز - الاستخبارات (الجواسيس و العيون):

لجا قلاوون وأولاده في تعاملهم مع الإمارات والممالك المحيطة بهم إلى وضع نظام أمني يضمن الحفاظ على الدولة من أي خطر يهددها ، وكذلك في كشف المؤامرات الداخلية على السلطان وكان الدافع لذلك كثرة الأعداء المحيطين بالدولة، ففي الداخل هناك الأمراء الطامعون بالسلطة من أمثال سنقر الأشقر وكوندك الظاهري وغيرهما، وفي الخارج كانت للتتار والأرمن والبيزنطيين ودول أوربا حتى الأندلس "عيون" داخل دولة الممالك لتلقّط الأخبار وجمعها .

ولذلك فقد اهتم قلاوون بإنشاء ما يمكن تسميته بجهاز "الاستخبارات" تجاوزًا، وقد استطاع بهذا الجهاز أن يعرف بدوره أخبار أعدائه المذكورين بواسطة أعوانه وعملائه وأنصاره في تلك البلدان، وكان معظمهم من أهل تلك البلاد أنفسهم.

---

(1) المقريزي : خطط القاهرة، م3، ص648 .

(2) القلقشندي، أحمد بن علي : ضوء الصبح المسفر، القاهرة 1906م، ص233 .

(3) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة، م7، ص279 .

- القلقشندي : صبح الأعشى، م11، ص86 .

فقد ذكر كاتبه شافع بن علي:«أنه عندما توجه السلطان إلى دمشق لملاقاة التتار سنة680هـ /1281م، أقام ابنه عليّاً في السلطنة وسلّمه كتاباً فيه جميع التعليمات التي تكفل سلامة الدولة في غيبة السلطان، ومن هذه التعليمات:

لا تسمح للمسافرين بالسفر إلا في النهار، ومن سافر في الليل فهو الجاني على نفسه، وعلى المسئولين عن "الحمام الرسائلي" لأجل البطاقات ألا يسيّروا إلا الطيور الجيدة، ومحطتها الأولى غزّة ولا يسمح لأحد بتجاوز هذه المحطة قبل تبديل الطيور، ولا يجوز أيضاً لفرس البريد أن يتعدى المحطات المعينة له، أو يقطع منزلتين معاً، بل يجب تبديل الخيل عند كل محطة، مثل الطيور. وعلى والي الشرقية ووالي الغربية، حفظ الطريق من جهة غزّة والكرك،بحيث لا يفوتهم الطائر إن طار، وكذلك من تعمّد ترك الطريق السالك وسار في طرق ملتوية، فيجب مراقبته ومعرفة حقيقة أمره .

وعلى الخفراء حفظ طريق السّويس، وإقامة الخفراء في كل المواقع، واستطلاع الأخبار من جهة الثغور وما يتجدد من جهة البحر من الأمور، ويؤكد على والي الإسكندرية في حفظ فنادق الفرنج، وحفظ مفاتيحها في الليل، وفي وقت صلاة الجمعة، وفي حفظ الأماكن المجاورة لها، وفي حفظ الموانئ. وهذا يعني أنه لم يكن يسُمح للأجانب بالخروج من فنادقهم ليلاً، ولا حتى نهاراً أثناء صلاة الجمعة لخوف السلطان من أن يقوموا بعمل ضار بالمسلمين في تلك الساعة، ويؤكد على والي قطيا في حفظها، وقطيا من المحطات المهمة على الطريق الدولي بين القاهرة وفلسطين ودمشق .[1]

ثم يلفت السلطان نظر ولاة الثغور، أي مدن الساحل والحدود إلى ضرورة: " تطييب قلوب التجّار، واستمالة خواطرهم،حتى يعودوا إلى بلادهم حامدين شاكرين ليستجلبوا خواطر من وراءهم من التجار في تلك البلاد، مع عدم التفريط في حقوق الديوان ".[2]

هذا عن المبادئ العامّة وهي طويلة جداً ومفصّلة. وأما التطبيق العملي لذلك، فسيتم ذكر نماذج ذكرت عرضاً في المصادر، منها: إن قلاوون عندما توجّه نحو دمشق سنة 680هـ / 1281م لملاقاة التتار، وصلته عند منزلة الروحا وهي بلد بالساحل من فلسطين قرب عكا رسالة سرية من عميل له في عكا يقال له :"جوان"

جاء فيها بالحرف: " يا سلطان الإسلام، لقد سيّر "كوندك" إلى قادة عكا كتاباً مضمونه أنكم أي قادة عكا، لا تسمعوا لقلاوون ولا تطيعوه، فإنا عازمون على قطعه وقتله، فتكونوا معنا، ونحن نردّ لكم

---

(1) ابن علي : الفضل المأثور، ص118 .

(2) ابن علي : الفضل المأثور، ص 87 .

كل القلاع التي فُتحت، حتى بيت المقدس نفسه، ونرد لكم "صليب الصلبوت" وكنيسة القيامة، فاحفظوا ما معكم، وانتظروا نُجح القصيد".[1]

وعندما تّرجم هذا الكتاب، وكان باللاتينية، اعتقل الذين ترجموه احتياطاً حتى لا يُذاع الخبر. وهذا يدل على مدى حزم السلطان واحتياطه للأمور، فقد خشي أن يصل الخبر إلى كوندك وأعوانه فيبطل تدبير السلطان، وعند منزلة بيسان تمّت تصفية كوندك بعدما اعترف بكل ما نُسب إليه، والعجيب في الأمر أنّ قلاوون كانت له عيون في عكا مع أنه لم يكن قد مضى عليه عام واحد في الحكم.[2]

ومن أطرف حوادث "جهاز المخابرات المملوكي" ما ذكره ابن عبد الظاهر: «أنه في سنة 681 هـ -1282 م بلغ المنصور قلاوون أن ملك الكرج = جورجيا حليف التتار والعدو الأول للمماليك واسمه "كلباري" وتقدير عمره أربعون عاماً، وهو أصفر اللون أسود العينين، قد ركب من ساحل البحر الأسود ومعه المدعو: "طيبيغان بن أنغرد" وهو رجل طويل القامة، ومعهما مترجم، وذلك بنيّة الوصول إلى القدس الشريف سرّاً، وقد علم السلطان قلاوون به قبل أن يتحرك، بواسطة عيونه في جورجيا، فأمر الولاة بحفظ الطرق عليه، ولم يكن يصل إلى مكان حتى يُطالع السلطان بأخباره، وعندما وصل مع صحبه إلى القدس الشريف، أُلقي القبض عليهم وأُحضروا إلى القاهرة وأُدخلوا إلى السجن ولم يخرجوا منه بعد».[3]

وعندما قدم "الشيخ عبد الرحمن" برسالة من ملك التتار المسلم " أحمد خان بن هولاكو" وكانت مهمته سلمية، تلقاه الأمير "جمال الدين آقوش الفارسي" في حلب، وعدل به عن الطريق الدولي، حتى وصل إلى دمشق ليلة 12 ذي الحجة سنة 682 هـ /1283 م فاعتقله في القلعة ولم يمكّن أحداً من رؤيته أو الاجتماع به وكان معه 150 من كبار قومه، احتفظ بهم، وبقوا كذلك حتى قابلهم السلطان[4]. وذلك حتى لا يطلعوا على مرافق الدولة وطرقها.

---

(1) ابن علي : الفضل المأثور، ص 123 .

(2) المنصوري : زبدة الفكرة ، م 9 ، ص 185 .

(3) ابن عبد الظاهر : تشريف الأيام والعصور، ص 34.

- المنصوري : زبدة الفكرة ، م9 ، ص 230 .

(4) النويري : نهاية الأرب ، م31 ، ص 99 .

- ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ، م7 ، ص 279 .

ثامناً- وفاة المنصور قلاوون:

توفي عند مسجد تبر وهو يقود جيشه لتحرير عكا، يوم السبت السادس من ذي القعدة سنة 689 هـ / 1290م وكان من أبناء السبعين بحسب رواية المقريزي، ومن أبناء الستين بحسب رواية العمري.[1]

ودُفن ليلة الجمعة 11 ذي القعدة سنة 689 هـ / 1290م في تربته ومدرسته والبيمارستان. وذكر النويري :" أنه توفي في العشر الأخير من شوال سنة 689 هـ / 1291 م وحُمل ليلاً إلى القلعة واستمر فيها حتى أول المحرم 690 هـ/ 1291 م حيث نقل إلى تربته، نقله يوم ثاني المحرم ابنه الأشرف في حي بين القصرين داخل باب البرقية، بعد أن صُلي عليه بالأزهر" .[2]

والنويري هنا يخالف جميع المؤرخين في تاريخ الوفاة وهو السادس من ذي القعدة سنة 689 هـ / 1290م، كما يخالفهم أيضاً في وقت الدفن وهو ليلة الحادي عشر من ذي القعدة سنة 689 هـ / 1290 م. وقال ابن الجزري: «إنه توفي وهو يستعد للجهاد، ودفن مساء الخميس 11 ذي القعدة وفرّق ولده على روحه صدقات كثيرة من ذهب وفضة، ودخل الأمير بيدرا إلى قبره ومعه الأمير الشجاعي، وكان من أبناء الستين».[3]

وقد أثنى عليه الجميع، ولم يكن له من الأعمال الشنيعة التي يقوم بها الحكام عادة إلا بناؤه ما يعرف بـ "الجبّ" في القلعة، والجبّ هو سجن تحت الأرض عمله المنصور قلاوون كما ذكر المقريزي ليسجن فيه الرجال ذوي الخطر، ولم يكن له مثيل بين السجون في تلك الأيام، وكان هذا السجن كثير الرطوبة، كريه الرائحة، ترتع فيه الوطاويط، لا يمكن لمن أقام فيه طويلاً أن يعود إلى وضعه، وقد أمر ابنه الناصر محمد بهدمه فهُدم يوم 17 جمادى الأولى سنة 729 هـ / 1329 م، وكان الذي حدّثه عن هذا السجن الرهيب الأمير بكتمر الساقي، وقد بُنيت على السجن ثكنات للمماليك ونسي الناس أمره.[4]

---

(1) الدواداري : كنز الدرر ، ج7 ، ص 301 .
- ابن حبيب : تذكرة النبيه ، م1 ، ص 135 .
- الصقاعي : تالي وفيات الأعيان، ص 129 .
- اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج5 ، ص 18 .
(2) المقريزي : خطط القاهرة ، م3 ، ص 611 .
(3) ابن الجزري : تاريخ ابن الجزري ، ج1 ، ص141.
(4)المقريزي : خطط القاهرة ، م3 ، ص 686 .

الفصل الثاني

معارك التحرير في عصر المنصور قلاوون

أولاً : التحالف المغولي – الصليبي أيام المنصور قلاوون .

ثانياً : اتفاقيات الهدنة مع الفرنج :

1- **الهدنة مع الإسبتار 680ه / 1281م .**

2- **الهدنة مع طرابلس 680ه / 1281م .**

3- **تجديد الصلح مع بيزنطة 680ه / 1281م .**

4- **الهدنة مع الداوية في طرطوس 681ه / 1282م .**

5- **الهدنة مع عكا و صيدا وعثليث 682ه / 1283م .**

6- **الهدنة مع صاحب سيس 684ه / 1285م .**

7- **الهدنة مع مملكة صور 684ه / 1285م .**

8- **الصلح مع ملك أراغون وأخيه صاحب صقلية .**

9- **تجديد الصلح بين قلاوون وصاحب برشلونه .**

10- **الهدنة مع جنوة 689ه / 1290م .**

ثالثاً : معركة حمص 680ه / 1281م .

رابعاً: تحرير المرقب - 684ه/ 1285م :

1- **مقدمات الفتوح :**

أ- **فتوح قلعة قطيبا 682ه/ 1283م .**

ب- **فتوح حصن الكختا 682ه / 1283م .**

ج- **تحرير مدينة أياس 682ه / 1283م .**

2- **تحرير حصن المرقب 684ه / 1285م .**

3- **تحرير حصن مرقية 684ه / 1285م .**

4- **فتوح اللاذقية 686ه / 1287م .**

خامساً : تحرير طرابلس 688ه / 1289م .

سادساً: الاستعداد لفتح عكا 689ه / 1289م .

معارك التحرير في عصر الملك المنصور

سيف الدين قلاوون الألفي الصالحي

678هـ - 689هـ /1279- 1289م

أولاً- التحالف المغولي - الصليبي أيام المنصور قلاوون:

لم تكن معارك التحرير التي خاضتها الجيوش العربّية الإسلاميّة في عصر السلطان المنصور قلاوون والتي توّجت بالانتصار، إلا نتيجة لما قام به السلطان قبل بدء المعارك وأثناءها مما يمكن تسميته بالحرب الدبلوماسية وهي الاتفاقات السلمية التي وقعَّها مع إمارات الفرنج في الشام وفي أوربا حتى إسبانيا، وذلك ردّاً على محاولات المغول في تشكيل حلف هجومي مغولي- صليبي ضد السلطان، ولولا هذه المعاهدات التي أبرمها السلطان في التوقيت المناسب لأطبق المغول والفرنج على المسلمين.

ولذلك لا بد من تقديم لمحة عن هذه الاتفاقيات المغولية - الفرنجية، والاتفاقيات الإسلامية - المغولية المضادّة، التي أحبطت مخططات المغول وحلفائهم في الغرب.

وقد كان على قلاوون أن يواجه كلاً من: الإمارات الأوربية في الداخل والخارج والكنيسة البابوية والأرمن في شمال الشام والمغول في الشرق والشمال .

بالإضافة إلى بعض الحلفاء الذين كانوا ينقضون العهود بين فينةٍ وأخرى مثل الإمبراطورية البيزنطية والإمارات الإيطالية.

وكان قلاوون يتعامل مع كل فئة منهم بما تقتضيه مصلحة الدولة، فيعقد الهدنة ثم يلغيها أو يجددها، ثم يهاجم في المكان والزمان الذي يختاره، الأمر الذي كان يجعل أعداءه في حيرة من أمرهم ولا يملكون إلا "طلب رحمته ورضاه" حتى لا يكونوا هم الهدف القادم له.

لقد كان الصليبيون يعملون على تحويل المغول إلى المسيحّية للإطباق على العالم الإسلامي، وبذلك يحتفظون بالأماكن المقدسة، والمشرق العربي معها إلى الأبد.

والغريب الذي حصل هو تحوّل المغول إلى الإسلام بل إن الايلخان "أحمد بن هولاكو" أعلن إسلامه وعمل على تحويل المغول إلى الإسلام وأرسل إلى السلطان قلاوون يلتمس منه التعاون الكامل بين المغول والمسلمين، لكن مقتله على يد ابن أخيه أرغون أوقف المد الإسلامي في المشرق ورغم أن "غازان" أعلن إسلامه رسمياً وسَّمى نفسه "محمود غازان" إلا أنه كان في حقيقة أمره مجوسياً كارهاً للإسلام والمسلمين، ولذلك أمضى عمره في التآمر على المسلمين ومحاولة تدمير الدولة التي تمثلهم وهي دولة المماليك.

وارتكب في دمشق يوم احتّلها سنة 699 هـ / 1300 م، أكثر مما ارتكبه سلفه " كتبغا نوين " الذي قُتل بعد عين جالوت، وهو نفس ما فعله تيمورلنك بعد مائة عام على الرغم من أن الجميع تظاهروا بالإسلام، وكان يتطلع إلى تقديم الأماكن المقدسة هدية إلى البابا وعربوناً عن محبته له.
ولذلك كتب سنة 684 هـ / 1285 م إلى البابا "هونوريوس الرابع" يعرض عليه القيام بعمل مشترك ضد المسلمين.

وبعد سنتين أرسل سفارة إلى الغرب برئاسة جاثليق الأرمن "رابان سوما" وقد بدأ هذا زيارة للقسطنطينية، ولقي استقبالاً حاراً من الإمبراطور "أندرونيكوس" رغم ارتباطه بمعاهدات سلام مع السلطان.

ثم توجّه إلى روما فوجد صديقه البابا قد مات فتوجّه إلى جنوة حيث استقبل بحفاوةٍ بالغةٍ.[1]

ثم عبر البحر إلى فرنسا، حيث قوبل بحرارة بالغة، ووعده ملكها فيليب الرابع الذي ورث حماسة الصليبيين من لويس التاسع بإعداد حملةٍ لتخليص بيت المقدس، وأرسل معه سفيراً يدعى جوبرت هيلفيل ليصطحبه إلى بلاط الإيلخان غازان لإعداد خطة التحالف.
ثم التقى رابان "برسوما" إدوارد الأوّل ملك انكلترا، ثم عاد إلى بلاده ليقابل البابا الجديد .[2]

وفي سنة 689 هـ / 1289 م أنفذ أرغون رسولاً آخر وهو جنوي يدعى "بوسكارد" كان قد أقام طويلاً في بلاد المغول و زودّه برسائل إلى البابا وملكي فرنسا وانكلترا.

وقد أعلن في رسالته إلى ملك فرنسا باسم الخان الأعظم "قوبلاي"، أنه بعون الله سوف يصل إلى دمشق في فصل الربيع من عام 690ه/ 1291م فإذا أرسل الملك قوّات إضافية استولى غازان على القدس وجعلها ملك لفرنسا. كما أرسل رسالة مشابهة إلى ملك انكلترا الذي أحاله على البابا.[3]
واقترح أن تجتمع القوات الصليبيّة والمغولية في مدينة أياس، تمهيداً للإطباق على المماليك ، غير أن أحداً لم يهتم بهذه النصيحة .[4]

وأخيراً مات رأس الحربة المغولية "أرغون" وهو شاب، وماتت معه مشاريعه، كما ماتت من قبله مشاريع لويس التاسع والباباوات.

---

(1) رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية م3 ، ص 672 .
- الباز العريني، السيّد : المغول، دار النهضة، بيروت 1981م، ص 305 .
(2) رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية م3 ، ص 675 .
- العريني : المغول، ص 306 .
(3) رنسيمان :تاريخ الحروب الصليبية م3 ، ص 676 .
- العريني : المغول، ص 307 .
(4) رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية م3 ، ص 502 .

ثانياً – اتفاقيات الهدنة مع الفرنج:

كانت معارك التحرير ضد الفرنج التي خاضها المنصور قلاوون وأولاده ومن خلفه من السلاطين تحتاج إلى تخطيط سياسي وعسكري واقتصادي على درجة عالية من الدقة والوضوح.
وقد بدا واضحاً في سياق الفصل الأول الأعداء الكثيرون الذين كانوا يطمعون في دولة المماليك نفسها، ولا سيما الفرنج، ولذلك اضطر المنصور إلى عقد معاهدات شاملة: سياسية وعسكرية واقتصادية وأمنية وسياحية ودينية مع ملوك أوربا وأمرائها.

كما ذكر فإن المنصور كان يحدّد تاريخ المعاهدات كما يحدد متى يجب أن تنتهي، فقد كان متمسكاً بزمام الأمور بحزم ودهاء ودراية، وكان يستغل أي عمل يُقدم عليه الفرنج ويفسره بأنه "خرق للمعاهدات المبرمة معهم" ويقرر بالتالي مهاجمة هذه الدولة أو الإمارة بحيث لا يستطيع أحد أن يجرؤ على مساعدتها، وبذلك سقطت إمارات الفرنج في الساحل السوري واحدة بعد واحدة، وهو ما كان مستحيلاً بدون المعاهدات، ولا سيما مع تحريض الباباوات المستمر لملوك أوربا وأمرائها بالتكاتف والإتحاد لتوجيه حملات صليبية جديدة تقضي على دولة المماليك تماماً، ولكن المعاهدات المبرمة كبَّلت أولئك الملوك والأمراء، وشَّلت حركتهم تجاه المماليك الأمر الذي يدل على عبقرية المنصور والأشرف خليل في الحكم والسياسة والإدارة.

لقد مكنت هذه المعاهدات الملك المنصور من الحصول على مكاسب سياسية واقتصادية هائلة جعلت الانتصارات التاريخية على الفرنج قريبة المنال.

وفيما يلي عرضاً لأهم المعاهدات المبرمة بين دولة المماليك ودول أوربا، وأمراء الفرنج في الساحل السوري، بحسب التسلسل الزمني:

الهدنة مع الإسبتار 680 هـ / 1282م .

الهدنة مع طرابلس 680 هـ / 1282م .

الصلح مع بيزنطة 680 هـ /1282م .

الهدنة مع الداوية في طرطوس 681 هـ / 1282م .

هدنة مع عكا وصيدا و عثليث 682 هـ / 1283م .

الهدنة مع سيس 684 هـ / 1285م .

الهدنة مع صور 684 هـ / 1285م .

الصلح مع أرغونة وصقلية 686 هـ / 1287م .

الصلح مع برشلونة 689 هـ / 1290م .

الصلح مع جنوة 689 هـ / 1290م .

1- الهدنة مع الإسبتار 680 هـ / 1281 م:

الإسبتار: طائفة دينية عسكرية مسيحية، مركزها في عكا وهم يقابلون "المرابطين" في الدول الإسلامية تقريباً، وقد نذروا أنفسهم لحرب المسلمين والعبادة، وهم أعضاء الهيئة العسكرية الدينية التابعة لمستشفى القديس يوحنا في القدس، وعندما تحررت القدس انتقلوا إلى عكا ثم إلى قبرص ثم إلى رودس، وقد قضى السّلطان سليمان الكبير على عدد كبير منهم، فالتجؤوا إلى جزيرة مالطة سنة 1530م، وفي سنة 1798 م قضى عليهم نابليون بونابرت نهائياً وأصبحوا أثراً بعد عين.[1]

والإسبتارية كما قال عنهم ياقوت الحموي: « قوم من الفرنجة حبسوا أنفسهم على حرب المسلمين ومنعوها النكاح».[2]

كانت السنوات الطويلة التي أمضاها قلاوون مع الملك الظاهر ذات فائدة كبيرة وقد تجلّت منذ الأيام الأولى لحكمه في تجديد الأحلاف السياسية والاقتصادية والعسكرية مع عدد من الإمارات والممالك الأوربيّة، التي لم تكن مهتمّة كثيراً بتوجيهات البابا وحرماناته بعد أنهار الدم التي جرت في المشرق على مدى قرنين كاملين من المسلمين والصليبيين على حد سواء بتحريض من الباباوات خلفاء نبيّ الرحمة.

وبدورها كانت الممالك الأوربيّة حريصة على إقامة علاقات اقتصادية قوية مع دولة المماليك التي كانت تسيطر بشكل أو بآخر على البحر الأحمر، وقسم كبير من سواحل المتوسّط كما كانت تلك الممالك تريد إرضاء شعوبها في زيارة الأماكن المقدسة بيسرٍ وسهولة، وهو الهدف الذي عجزت أوربا عن تحقيقه رغم الجيوش الجرارة التي ساقتها إلى المشرق. و يلاحظ في جميع المعاهدات الموّقعة مع أوربا أنها كانت هي البادئة بطلب عقد المعاهدات، مما يدل على مركز دولة المماليك المتميّز ودورها في سياسة العالم في تلك الحقبة .

وعندما كان السلطان قلاوون متوجهاً لحرب المغول في ذي الحجّة سنة 679 هـ / 1280 م وصل إليه وهو في منزلة "الروحاء" مقدم بيت الإسبتارية وجميع الإخوة الإسبتارية بعكا، يسألونه تجديد الهدنة معهم والزيادة على الهدنة الظاهرية.

وبعد أخذ ورد تم الاتفاق بين السلطان وولده علاء الدين علي من جهة ومقدم الإسبتار في عكا من جهة ثانية على توقيع المعاهدة أو الهدنة التالية التي تضمنّت في معظمها بنوداً اقتصادية وتجارية وبنوداً سياسية وعسكرية وأمنية.

وكان الذين وقعوا الهدنة مع السلطان:

---

(1) الموسوعة العربية الميسّرة ، القاهرة 1969 م ، مجلدان ، م2 ، ص 1288م .

(2) الحموي، ياقوت : المشترك وضعاً والمفترق صقعاً ،عالم الكتب ، بيروت 1986 م ، ص 136.

مقدم بيت الداوية في عكا: السير كليام ديباجوك . ومقدّم الإسبتار : سير كليام جوان دومونفرت. وكليام أللّرن، والكوندرو جير: نائب مملكة عكا.[1]

من شروط المعاهدة:

- لا يستجّد البرنس ولا أصحابه، خارج مدينته ولا في البلاد التي وقعت عليها المعاهدة بناءً ذا صفة دفاعية.
- كذلك السلطان لا يستجد بناء قلعة في بلاده .
- لا تنقض المعاهدة بموت أحد الفريقين أو عزله.
- لا يدخل البرنس في مشورة تؤدي إلى سوء للسلطان وبلاده .
- لا يُحسّن لأحد من أعداء مولانا السلطان الاعتداء عليه برمزٍ أو خط أو مراسلة أو مشافهة .
- إذا دخل التتار أو الفرنجة إلى دولة السلطان يُساعد البرنس في ردّهم .
- مدة المعاهدة : 10 سنين و10شهور و10 أسابيع .
- أولها: السبت 12 محرم 680 هـ / الموافق :3 أيار 1592 للإسكندر/ الموافق: 3أيار 1281 للميلاد.
- البلاد المشمولة بهذه المعاهدة : جميع بلاد السلطان بما فيها من الأقاليم و الممالك والقلاع والمدن والحصون والبلاد والقرى من الفرات إلى النوبة ، مع بلاد الفرنجة بعكا.[2]

2- الهدنة مع طرابلس 680 هـ / 1281 م :

كان الملك الظاهر قد دخل طرابلس متنكراً مع الأمير فارس الدين إقطاي ومحيي الدين بن عبد الظاهر اللذين أبرما معاهدة الهدنة الظاهرية، وذلك بهدف الإطلاع على تحصينات المدينة ومداخلها ومخارجها استعداداً لمهاجمتها، وكانت مدة الهدنة المذكورة 10 سنين .

وتوفي الظاهر قبل انقضاء مدة المعاهدة.[3]

---

(1) ابن عبد الظاهر : تشريف الأيام والعصور، ص 20 .
- المنصوري : زبدة الفكرة، ص 191 .
- ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ، م7 ، ص 204 .
- شافع بن علي : الفضل المأثور، ص 141 .

(2) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، م7 ، ص 255 .
- ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ، م 7 ، ص 204 .
- النويري : نهاية الأرب ، م31 ، ص 73 .

(3) ابن علي : الفضل المأثور، ص 145 الذي ذكر أن الظاهر حدّثه بذلك.
- النويري : نهاية الأرب ، م 31 ، ص 74 .

ولما توجّه المنصور إلى دمشق لملاقاة التتار سنة 680 هـ / 1281 م جاءته رسل صاحبها بوهيموند ، وحضر الصاحب فتح الدين الكاتب والمؤرخ شافع بن علي. فسأل السلطان الوفد بالتركي فيمَ جاؤوا. فقام رجل منهم يدعى الوزير غـــُراب، والتمس من السلطان تمديد الهدنة الظاهرية. فقال له السلطان: أين المال الذي جئتم به، وأي شيء تعطونني من البلاد؟. فأجاب غُراب بدهاء شديد، حتى وافق السلطان وأحضرت نسخة الهدنة التي أبرمت مع الظاهر، وقوبلت بالنسخة الجديدة حرفاً بحرف، ووُجد أن الملك الظاهر أخرج قرية "عَرْقا "[1] من الهدنة وبقيت كذلك حتى وفاته . وقد وقّعت الهدنة بعد إخراج عرقا منها، في شهر ربيع الأول سنة 680 هـ / تموز 1281م. وقد مات بيمند هذا سنة 686 هـ / أكتوبر 1287م. وذكر ابن الفرات هذه الهدنة فقال: «وقعها المنصور قلاوون مع بيمند بن بيمند ملك الفرنجة ومدتها 10 سنين و10 شهور، أولها: 5 تموز 1592 للإسكندر 27 ربيع الأول 680 هـ - 1281 م ومعظمها في البنود الاقتصادية، وسيتم الكلام عنها، ومن بنودها السياسية والعسكرية:

- لا يستجد البرنس خارج ما وقعت عليه الهدنة بناءً يدفع ويمنع .
- كذلك السلطان لا يستجد بناء قلعة في البلاد التي وقعت عليها الهدنة.
- لا تنقض الهدنة بموت أحد عاقديها.
- لا يُحسّن البرنس لأحدٍ من أعداء السّلطان، ولا يتفق معه بأي طريقة من الطرق، وحلف السلطان على ذلك، وقام الأمير فخر الدين إياز الحاجب ليحلف الإفرنج ومقدم الإسبتار».[2]

3- تجديد الصلح مع بيزنطة 680 هـ / 1281 م:

كان قلاوون يسير على سياسة الملك الظاهر القائمة على سياسة التقرب من أعداء أعدائه لإيجاد سدٍّ منيع بين المغول في الشرق والصليبيين في الغرب، وعلى الرغم من سوء العلاقات بين القسطنطينية وروما إلاّ أن قلاوون أراد التقرب من أباطرة بيزنطة بمعاهدات ثابتة مُلزمة ،لأن اللاتين كانوا يحاولون رأب الصدع بين روما والقسطنطينية، وكان الباباوات يحاولون استغلال نفوذهم الديني لمنع جميع الدول والإمارات الصليبية من بيع السلاح أو المواد الحربية لدولة المماليك، كما كانوا يُهددون "بحرمان" كل من يقيم صداقة من أي نوع مع دولة المماليك.

وقد ذكر مؤرخ المنصور بن قلاوون بيبرس المنصوري الدواداري: " أن المنصور أرسل إلى إمبراطور بيزنطة ميخائيل الثامن رسالةً مع بطريرك الأقباط حنّا السابع، والأمير ناصر الدين

---

(1) عَرْقا ، أو عرقة بحسب رواية ياقوت الحموي كانت عاصمة إقليم عكار و قاعدته ، ويقول عمر عبد السلام التدمري إنها بالقرب من مدينة حلبا شمالي طرابلس في لبنان قرب الحدود السورية، وهي مندثرة الآن – صبح الأعشى، ج14 ،ص61.
- ابن علي : الفضل المأثور، ص 147 .

(2)المنصوري : زبدة الفكرة ، م9، ص 209 - ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ، م7 ، ص229 .

الحسني الجزري، الأول للمفاوضة والآخر لنقل الأخبار والمراقبة، وقد طلب قلاوون تجديد الودّ مع الإمبراطور فوافق ميخائيل ورحّب بذلك، وأرسل من "حمل" يمين قلاوون له بعد ما حلف هو للسلطان أمام الوفد وذلك سنة 680هـ/ 1281 م " .[1]

وعندما توفي ميخائيل هذا سنة 682 هـ /1283 م، أرسل السلطان قلاوون: نجم الدين الشويحي ليحلّف ولده أندرونيكوس الثاني فحلف للسلطان وسيّر من حَمَل يمين السلطان له. وتابع أندرونيكوس سياسة أبيه الودّية تجاه السلطان فأرسل إلى السلطان المنصور هدايا ثمينة. واستمرت هذه العلاقة في أيام الأشرف خليل والناصر محمد، وفي المصادر العربية يستخدمون عادةً كلمة "الأشكري" ويريدون بها إمبراطور القسطنطينية كائناً من كان. وكانت الإمبراطورية البيزنطية هي السّد المنيع في وجه التحالف الصليبي - المغولي، ولذلك نرى أن أندرونيكوس رفض المشاركة في مشاريع الحروب الصليبية الجديدة التي كان قد وضع قواعدها المدعو "مارينو سانودو".[2]

ونظراً لأهمية التحالف المملوكي- البيزنطي العسكرية والسياسية، وهنا مقتطفات من اليمين التي حلفها ميخائيل الثامن للسلطان قلاوون بتاريخ المحرم 680هـ / 1281م: " إن مملكتي من هذا اليوم الخميس أواخر المحرم 680هـ / 1281م. تحلف بأناجيل الله المقدسة والصليب المكرَّم المحيي، أن تكون حافظة للسلطان العظيم المنصور سيف الدين قلاوون، ولأولاده ولوارثي سلطانه، ولا أحرك أبداً على بلاده حرباً، ولا أحرض أحداً على حربه، ويحفظ السلطان العظيم مثل ذلك لبلادي.

وقد طلب مني السلطان العظيم أن أنجده في البحر ضد عدّونا المشترك، وأنا وافقته على ذلك وليرتّب نصّ اليمين كيفما شاء، وليحلف لي يميناً مثلها ". [3]

وقد كتب المنصور للإمبراطور ميخائيل صورة اليمين التالي الذي حلف عليه للإمبراطور ميخائيل:" لما رغب ميخائيل الدوقس، ضابط مملكة الروم والقسطنطينية العظمى، أكبر ملوك المسيحية، أبقاه الله، أن تكون بين مملكتي ومملكته محبة وصداقة ومودّة دائمة وأكد ذلك باليمين التي حلف لي عليها بحضور رسولي ناصر الدين الجزري والبطرك الجليل أبناسيوس بطريرك الإسكندرية، وحضر رسولاه إلى مملكتي بنسخة اليمين.

وإنني اعتباراً من هذا اليوم الأول من شهر رمضان المعظّم سنة 680 هـ / 1281م، أحلف بالله العظيم عالم الغيب والشهادة، وبالقرآن العظيم وبمن أنزله عليه، على استمرار الصداقة

---

(1) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ، م7 ، ص 229 .

(2) ابن عبد الظاهر : تشريف الأيام والعصور ، ص54 .

(3) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ، م7 ، ص 230 .

واستقرار المودّة النقية للملك الجليل ميخائيل ضابط مملكة الروم العظمى ولولده الحبيب الكمنينوس الأنجالس ولوارثي مملكته أني لا أحرك عليه أحداً ولا حرباً وتستمر المودّة بيننا دائماً ". [1]

4- الهدنة مع الداويّة في طرطوس 681 هـ / 1282 م :

الداويّة (جمعية فرسان المعبد): فرقة دينة عسكرية أسسها الفارس (هيودي بنيز) الذي آتى حاجاً إلى بيت المقدس من منطقة في بيرغندي سنة 1118م [2]، في مطلع حكم بلدوين الثاني، حيث سمح له الملك بلدوين الأول ملك بيت المقدس الصليبي ولرفاقه النزول في جناح من أجنحة القصر الملكي في ساحة المعبد – المسجد الأقصى، بجانب قبة الصخرة، ثم أصبحت طائفة مستقلة اتخذت من الصليب الأحمر شارة لها، وقد تألفت هذه الفرقة من ثلاث طبقات هي: الفرسان، الأجناد، ورجال الدين، واشتركت في جميع الأعمال الحربية التي قامت بها مملكة بيت المقدس . [3]

وقد ورد نص الهدنة كما ذكر ابن عبد الظاهر: « استقرّت الهدنة بين مولانا السلطان المنصور بن قلاوون الملكي الصالحي وولده السلطان الملك الصالح علاء الدين علي.

وبين المقدم: فرير كليام ديباجوك مقدم بيت الداوية بالساحل وعكا - Fre're Guillowme de Badjouk .

وجميع الأخوة الداوية بأنطرطوس Grand – moutre de l'ordredes Templiers.

لمدة 10 سنين و10 شهور. أولها الأربعاء 5 محرم 681 هـ - 15 نيسان 1593 للاسكندر، على بلاد السلطان وبلاد ولده كافة.

ومن شروطها:

- لا يتخطّى أحد من أنطرطوس وبلادها إلى بلاد مولانا السلطان، ولا إلى قلاعها وحصونها مما عيّن في الهدنة وما لم يعيّن.

- وتكون أنطرطوس وبلادها المعينة في الهدنة ومن بها من الإخوة والفرسان والرعايا القاطنين والمترددين آمنين مطمئنين من مولانا السلطان.

- لا يتخطى أحد من بلاد السلطان إلى أنطرطوس وبلادها بغارةٍ أو مكروه حتى انقضاء الهدنة.

- ولا يتجدد حصن ولا برج ولا قلعة في بلاد أنطرطوس». [4]

---

(1) ابن عبد الظاهر : تشريف الأيام والعصور ، ص207 .

(2) زكار، سهيل ، وأخرون: حروب الفرنجة (الصليبية): ط2، جامعة دمشق ،2004، ص220 وما بعدها .

(3) رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص 249 – 250 .

- أبو عليان، عزمي عبد محمد : مسيرة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين في عصر المماليك، ط1، دار النفائس للنشر، الأردن 1995م، ص 23 .

(4) ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام والعصور، ص 22 .

5- الهدنة مع عكا وصيدا وعثليث 682 هـ / 1283 م :

وقّعها السلطان الملك المنصور قلاوون وولده السلطان الملك الصالح علاء الدين علي مع حكام مملكة عكا وصيدا وعثليث وبلادها التي انعقدت عليها هذه الهدنة وهم:

1- السنجال : أود بوالوشيان - نائب المملكة بعكا،Le Se'chocl Odo Poi,le chsien.

2- المقدم الجليل : فرير نيكول لولورين - مقدم بيت الأمن أي (المسؤول الأمني)، chef fre're. Nicole le lorin

3- المقدم الجليل :افرير كليام ديباجوك - مقدم بيت الداوية، e fre're Guilloume de .

4- المارشان: افرير كورات - نائب مقدم بيت الإسبتار الألماني،Lefre're . Kaurat

أهم بنود المعاهدة السياسية :

- مدة المعاهدة : 10 سنين و10 شهور و10 أسابيع و10 أيام، تبدأ يوم الخميس 5 ربيع الأول سنة 682 هـ الموافق/ 3 حزيران1283م، تسري هذه المعاهدة على جميع بلاد السلطان.[1]

- لا يتعرض الفرنجة الذين يستوطنون عكا والبلاد الساحلية الداخلة في الهدنة بأي سوء لأراضي السّلطان وولده ولا لرعاياهما على اختلاف أجناسهم، وتكون بالمقابل جميع بلاد عكا وملحقاتها آمنة من السلطان وولده ومن عساكره ورعاياه.

- لا يجدد الفرنجة في عكا وصيدا وعثليث حصناً أو سوراً، وإذا هرب أحد من بلاد السلطان إلى عكا والبلاد الساحلية المعيّنة في الهدنة، ورغب في أن يدين بالنصرانية يردّ جميع ما معه من الأموال، وإذا لم يرغب بذلك يُعاد إلى السلطان بجميع ممتلكاته.

- وكذلك إذا أراد أحد من عكا الدخول في الإسلام تُعاد إلى عكا جميع ممتلكاته وإذا لم يرغب في ذلك يعاد مع ممتلكاته إلى عكا.

- إذا حاول أحد ملوك الفرنجة أو التتار غزو بلاد السلطان يلزم نائب عكا أن يخبر السلطان بحركته قبل وصوله إلى البلاد الإسلامية الداخلة في الهدنة بشهرين.

- الحجاج المسيحيون آمنون في توجههم وحضورهم إلى حدود البلاد الداخلة في هذه الهدنة .

- يتعصر السلطان بحماية البلاد التي عقد معها هذه المعاهدة من اعتداء جنوده وكذلك يتعصر حاكم عكا بنفس الآمر.

---

(1) المقريزي : السلوك ، م1 ، ص 986 .

- ابن عبد الظاهر : تشريف الأيام والعصور، ص 34 .

- ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ، م7 ، ص 262 .

- شافع بن علي : الفضل المأثور ، ص 261 .

- أبو عليان : مسيرة الجهاد الإسلامي ، ص 179 .

ولمّا حلف مولانا السلطان على هذه الهدنة، توجه الأمير فخر الدين أياز أمير حاجب والقاضي بدر الدين بن رزين لتحليف الفرنج فحلفوا واستقر ذلك.[1]

6- الهدنة مع صاحب "سيس"[2] 684 هـ / 1285م:

لما كان السلطان المنصور يحاصر حصن المرقب، حضر كبير الداوية في بلاد الأرمن ومعه رسالة شفوية من ليفون بن هيثوم صاحب سيس ورسالة من مقدم الداوية فيها ومضمونها طلب العفو عن صاحب سيس الأرمني الذي كان السلطان حتى تاريخه يتجاهل رسله، فاستعان بمقدّم الداوية.

وكان السلطان يطلب منه باستمرار مدينة بَهَنَسا وهو يُراوغ، وبعد الأخذ والرد مع "كبير الداوية" والسلطان، وافق السلطان على إمضاء الهدنة معه بالشروط التالية:

- يدفع كل سنة للسلطان مليون درهم ويُعّجل منها مليون درهم في الحال.
- وهدايا من الجياد والبغال لا تقل عن خمسين رأساً، وكمية من الأقمشة وغير ذلك
- إطلاق سراح من عنده من تجار المسلمين وأسراهم.
- إعادة أموال المتوفين منهم.

وحلف السلطان له على ذلك يوم الخميس الثاني من ربيع الآخر 684 هـ / 1285م وتوجّه الأمير فخر الدين المقري لتحليف صاحب سيس وتنفيذ الشروط المذكورة وانتظم الصلح بينهما.[3]
وقد تضمّنت الهدنة أو المعاهدة أموراً لا بد من الوقوف عندها. منها أن صاحب سيس اشترط في المعاهدة :

أن قلعة الروم وخليفة الأرمن: الجاثليق الكاتاغيكوس المقيم في قلعة الروم ورهبانه ومن يتعلق به وبما يتبعه من الرعيّة والفلاحين يكونون داخلين في هذه الهدنة، مثلما كان الحال أيام الملك الظاهر.

وهذا يعني أن صاحب سيس كان يعدّ نفسه مسؤولاً عن جميع الأرمن ومن جهة أخرى عاد الأمير فخر الدين المقري بالمال وأحضر الأسرى المسلمين في بلاد الأرمن بأموالهم وبضائعهم وحضر كبير الداوية الذي توسط بالصلح ومعه البارون بهرام. وقد أطلق السلطان جميع الرسل المعوّقين[4] بدمشق من الأرمن وغلمانهم وأمر بإطلاق الرسل المعوّقين بالقاهرة عملاً بأحكام المعاهدة.

---

(1) سرور: دولة بني قلاوون ، ص 233 حتى 236 .
- ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك، م7، ص 270.

(2) سيس: هي عاصمة أرمنية الصغرى، وموقعها بين أنطاكية وطرسوس على عين زربة - ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج 3، ص 338.

(3) ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام والعصور، ص 93.

(4) كلمة المعّوقين تعني الموقوفين .

ثم تبين للسلطان أن ثمة نقص في المال وأنّ صاحب سيس لم يطلق سراح المسلمين من أهل قرمان فردّ الرسولان بأن هناك حرباً بين بلاده وبلاد قرمان والروم له عندهم أسرى وهم أعداؤه فقال السلطان:

«المسلمون كلهم يلزمني أمرهم، ومالهم سلطان يفكك أسراهم ويقاتل أعداءهم غيري ولابد من إطلاق القرمانية لأنهم في طاعتي ويستنصرون بأعلامي[1]

فالتزم الرسولان بردّ القرمانية وهذا يبين دور السلطان المنصور والمماليك في حماية العالم الإسلامي والمسلمين.

7- الهدنة مع مملكة صور 684 هـ / 1285 م :

وُقِّعت هذه الهدنة بين مملكة صور والملك المنصور وولده الأشرف، وذلك يوم الخميس 14 جمادى الأولى سنة 684 هـ / 18 تموز 1596 للاسكندر ومما جاء فيها:

استقرّت الهدنة بين الملك المنصور وولده الملك الأشرف خليل، وبين الملكة الجليلة : دام مرغريت بنت السيد هنري بن الأبرنس بيموند Beomond .

المدة عشر سنين متتابعات آخرها سنة 694 هـ / 1295 م .

تشمل كلَّ بلاد السُّلطان وولده بأرضها وسكانها وكل ما عليها .

ويكون للسلطان وولده خمس قرى من أجود ضياع صور وأكثرها مُتحصّلاً والتي استقلت في "الخاص السُّلطاني" منذ الأيام الظاهرية وهي:

قانا ومزرعتها القروية ، أصريفيا ومزرعتها، حانا بكاملها، المجادل بكاملها، كفرد بين بكاملها . ولا يشارك السلطان أحد في هذه القرى.[2]

وتأخذ الملكة مرغريت عشراً من ضياع برج صور حسبما هو مستقرٌ في الهدنة الظاهرية

لا تبني الملكة في بلادها قلعة ولا سوراً ولا خندقاً.

ويمنع السلطان عساكره من التعدّي على أراضي الملكة المذكورة .

وبدورها تحفظ الملكة بلادها من كل عدو للسلطان أو متآمر.

ولا تحالف أياً من ملوك الفرنجة ضد السلطان .

ولا تُبطل الهدنة بوفاة أحد طرفيها أو عزله.

وتستمر الهدنة عشر سنين كاملة حتى سنة 694 هـ / الموافق 18 تموز 1295 م. [3]

---

(1) ابن عبد الظاهر : تشريف الأيام والعصور، ص 103 .

(2) هذه القرى هي من أملاك السلطان وأولاده ولا دخل لأحد من أهل صُور أو المسلمين بها ، فهي من خاص السلطان المملوكي أيّاً كان .

(3) ابن عبد الظاهر : تشريف الأيام والعصور، ص 103 - 110.

وهذه الهدنة، أو المعاهدة، شأنها شأن ما سبقها وما تلاها كانت أصلاً لصالح المسلمين، لأن السلطان المنصور هاجم طرابلس واحتلها رغم وجود المعاهدة، وكذلك فعل الأشرف خليل في عكا وصيدا وصور وبيروت وقلعة الروم وغير ذلك من المدن التي كانت تحت حكم الصليبيين والأعذار والأسباب موجودة دائماً لكل مناسبة، وهو المبدأ الذي طبقه المستعمرون فيما بعد على الأمة العربية الإسلامية بعد أن فقدت قدرتها على المبادرة واتخاذ القرار.

8- الصلح مع ملك أراغون وأخيه صاحب صقلية 689 هـ / 1290م :

في سنة 686 هـ / 1287 م وصل إلى القاهرة رسل صاحب أراغون وأخيه صاحب صقلية ، وتضرعوا إلى السلطان المنصور بتجديد علاقات الود التي كانت لبلادهم أيام الملك الكامل الأيوبي. وأحضروا معهم سبعين نفراً من الأسرى المسلمين دليلاً على حسن النية وتعصروا بعدم إلحاق الضرر بممالك السلطان ورعاياه ووعدوا بأنهم سيحاربون أعداء السلطان ويصادقون أصدقاءه.
وبعد الأخذ والرد حررت لهم نسخة من هدنة كتبها الرسل بأيديهم بلغتهم وبالعربية ، وحلف السلطان وولده الملك الأشرف خليل على ذلك، وأخذوا النسخة التي بلغتهم ليحلف عليها الملك وأخوه. [1]

خلاصة هذه المعاهدة :

اتفاق السلطان المنصور قلاوون وولده الملك الأشرف خليل مع ملك أراغون وأخيه: دون جام، صاحب صقلية وأخيهما دون فردريك، وكانت بداية هذه المعاهدة الثلاثاء 13ربيع الآخر سنة 689 هـ- الموافق 23 نيسان سنة 1289 م بحضور رسل الملك وكتّابه ومساعديه.[2]

ويلتزم الملك وأخواه بتثبيت قواعد الود والصفاء بين ممالك السلطان وولده، وممالكهم وهي: بلاد أرغن وثغورها، ومارقية وأعمالها وبلادها، بلنسية وأعمالها وبلادها، إقليم برشلونة وأعمالها وبلادها، صقلية وجزيرتها وبلادها، مانسة وبلادها، أربسويات وأعمالها. [3]
وما سيفتحه الريد اراغون من بلاد أعدائه الفرنجة المجاورين له بتلك الأقاليم، وتكون هذه الممالك آمنة من جهة السلطان وولده وعساكره.

وإن قصد البابا بروما أو ملك من ملوك الفرنجة متوّجاً كان أو غير متوّج، كبيراً كان أو صغيراً، أو من الجنوية أو البنادقة وبيوت الإخوة الداوية والإسبتارية وجميع أجناس النصارى مضرّة السلطان بمحاربة أو أذيّة يمنعهم الملك الريداراغون ويقاتلونهم في البر والبحر وحيثما كانوا بجميع الأسلحة.

---

(1) ابن عبد الظاهر : تشريف الأيام والعصور، ص 157 .
(2) ابن عبد الظاهر : تشريف الأيام والعصور، ص 157 .
(3) القلقشندي : صبح الأعشى، م5، ص 207 حتى 230 .

إذا خرج أحد من الفرنجة بعكا وصور وبلاد الساحل وغيرها عن شروط الهدنة المستقرة فيما بينهم ووقع ما يوجب فسخ الهدنة لا يُعينهم الملك الريد اراغون ولا إخوته. وإذا طلب الباب بروما وملوك الفرنجة والروم و التتار وغيرهم من الملك الريداراغون أو من إخوته إنجاداً ومعونة لا يوافقهم على ذلك، وإذا قصد أحد منهم بلاد السلطان بسوء يعلم السلطان بذلك. إذا وصل إلى بلاد السلطان من يقصد زيارة القدس من جهة الملك الريد اراغون وحلفائه، وعلى يده كتاب منه وخاتمه، إلى نائب السلطان بالقدس يفسح له بزيارة رجلاً كان أو امرأة، وإن الملك لا يكتب كتاباً لأحد من أعداء السلطان ولا يساعده في عمله ضد السلطان.[1]

ولا تنقض المعاهدة بموت أحد من الجانبين بل تستمر دائماً . وحرر في 17 ربيع الآخر 689 هـ / الموافق 23 نيسان 1289 م. ثمَّ حلف السلطان للملك وأخويه، وأرسلت صورة الحلف مع الوفد إلى الريداراغون.[2]

9- تجديد الصلح بين قلاوون وصاحب برشلونة سنة 689 هـ / 1289 م :

في سنة 689هـ / 1289م وصلت رسل صاحب برشلونة وأخيه صاحب صقلية والتمسوا من الملك المنصور إعادة الصلح الذي كان على أيام الملك الكامل الأيوبي. وتعصروا بمحالفة السلطان ومحاربة أعدائه، وقد أقاموا بالقاهرة أياماً كُتبت خلالها نسخة هدنة، كتبها رسل صاحب برشلونة بأيديهم بالعربي والإفرنجي، ووقّعوا على النسخة العربيّة، وحلف السلطان على ما تقرر بحضورهم، ثم حلف ابنه الأشرف.

خلاصة الهدنة: استقرّت الهدنة بين الملك المنصور سلطان الإسلام وولده الملك الأشرف خليل، وبين حضرة الملك الجليل دون ألفونش الريدراغون، وأخيه "دون جام" صاحب صقلية وأخويهما: دون فردريك ودُون بيدروا، وبدايتها من تاريخ الثلاثاء 13 ربيع الآخر سنة 689 هـ / 7 نيسان 1289 م لمولد السيد المسيح عيسى عليه السلام، وذلك بحضور رسل الملك ووزرائه وكتاّبه.[3]

بنود المعاهدة : استقرار المودة بين الطرفين في كل بلادهما.

- إذا قصد البابا أو أحد من ملوك الفرنجة أو ملوك جنوة أو البندقية أو الداوية أو الإسبتارية وجميع أجناس النصارى مضرّة مولانا السلطان أو بلاده ومدنه وموانيه.

- وكذلك حلفاؤهم من الفرنج بعكا وصور وبلاد الساحل وغيرها ، ووقع ما يوجب فسخ الهدنة لا يعينهم الملك الريداراغون ولا إخوته ولا جنوده بسلاحٍ أو رجالٍ أو مال .

---

(1) ابن عبد الظاهر : تشريف الأيام والعصور، ص 159- 161 .

(2) ابن عبد الظاهر : تشريف الأيام والعصور، ص 164 .

(3) ابن عبد الظاهر : تشريف الأيام والعصور، ص 157 .

- وإنه متى طلب البابا بروما وملوك الفرنجة والروم والتتار وغيرهم من الملك الريد أراغون وإخوته معاونة عسكرية أو سواها من المراكب والشواني، لا يوافقهم على شيء من ذلك لا في سرٍّ ولا في جهر، ومتى اطلع على أن أحداً منهم يقصد بلاد السلطان يعرّفه بذلك حالاً .

- ويساعد الريداراغوُن رسل السلطان العابرين في بلاده ،حتى يبلغوا مأمنهم وكذلك يفعل السلطان ولا يُمكن الريداراغوُن الحرامية "يعني القراصنة" من التزود من بلاده ولا من حمل ماء بل يمسكهم ويُسيّر من يوجد معهم من رعايا السلطان إلى بلادهم، وكذلك إذا حضر أحد الحرامية إلى بلاد السلطان يفعل معه السلطان مثل ذلك.

- ويُسمح لرعايا الريدراغوُن الذين يحملون كتباً بخاتمه ليقوموا بزيارة القدس الشريف يُسمح لهم بذلك ويساعدهم رجالاً كانوا أو نساء.[1]

ويتعاون الطرفان عسكرياً في حال اعتداء طرف ثالث على أيٍّ منهما

ولا تنقض المعاهدة بوفاة أحد أطرافها ويُطلق كل ملك أسرى الملك الآخر في بلاده. في 13 ربيع الآخر سنة 689 هـ - 23 أبريل 1289 لمولد المسيح، ثم حلف كل ملك على الوفاء بالمعاهدة.

نصُّ يمين قلاوون: « أقول، وأنا قلاوون بن عبد الله الصالحي: والله، والله، والله، وحق دين الإسلام، وحق القرآن العظيم الذي يعتقده المسلمون، إن هذا الصلح والصداقة الذي تقرر بيني وبين الملك الريداراغون، لا أغيّره، ولا أخرج عنه مادام الملك الريداراغوُن وافياً باليمين، يحلّفُه رسلي هو وإخوته، عن نفسي وأولادي، وعن أهل بلادي جميعهم، والله على ما أقول وكيل». وحلف الأشرف يميناً مشابهاً.[2]

خلاصة يمين الريدراغوُن: «أقول وأنا دون ألفونش: والله والله والله، وحق المسيح وحق الصليب، وحق السيدة ماريّا أم النور،وحق الأناجيل الأربعة التي نقلها: متّى ومرقص ولوقا و يوحنّا وحق الصوت الذي نزل على نهر الأردن فزجره، وحق ديني ومعبودي ومعتقدي، إنّني من وقتي هذا، وساعتي هذه، وما مدَّ الله في عمري، قد أخلصت نيتي ومعبودي واعتقادي في مصادقة مولانا السلطان الملك المنصور أبي الفتح قلاوون الصالحي. ومصادقة ولده، ولي عصره، المولى السلطان الملك الأشرف خليل، والملوك أولاده ، ومودتهم ، والاستمرار على محبتهم.

وإنني وحق المسيح والصليب وحق الإنجيل صديق أصدقاء مولانا السلطان الملك المنصور وأصدقاء أولاده، ومعادي معاديهم، ومحارب من يقصد بلادهم من سائر الفرنجة وأجناس النصارى، كائناً من كان، وأقاتلهم وأشغلهم بنفوسهم عن قصد مولانا السلطان بحرب أو مضرّة.

---

(1) المقريزي : السلوك، م1، ص 985 .

(2) ابن عبد الظاهر : تشريف الأيام والعصور، ص 162 - المقريزي : السلوك ، م3 ، ص 984 .

واستمر أنا وأخوتي وأولادي ومملكتي ما دامت الأيام والليالي، لمملكة مولانا السلطان الملك المنصور ومملكة ولده السلطان الملك الأشرف وأولاده .

ومتى خالفت شيئاً منه، فأكون محروماً من ديني مخالفاً لاعتقادي واعتقاد أهل ملّتي، واليمين يميني والنيَّة فيها نيّة مولانا السلطان الملك المنصور ونيّة ولده الملك الأشرف والله على ما أقول وكيل».[1]

10- الهدنة مع جنوة - 689 هـ / 1290 م :

كان بعض الأمراء الجنويين يمارسون القرصنة على الثغور الإسلامية.

ومن هؤلاء المدعو "نبيت زكريا" الذي كان قد تغلب على طرابلس ومارس القرصنة في سواحل مصر، فغنم كثيراً من بضائع المسلمين وأسر عدداً آخر وذهب بالجميع إلى جنوه ورداً على ذلك ألقى السلطان قلاوون القبض على جميع رعايا جنوه في بلاده، فبادر حكامها إلى إعادة المنهوبات والأسرى إلى السلطان والتمسوا منه إمضاء معاهدة سلام وهدنة، وحلفوا على الإنجيل أن ما قام به زكريا المذكور لم يكن بعلمهم أو تدبيرهم. ثم وقعت الهدنة في القاهرة في جمادى الأولى سنة689هـ / 1289م . ومما جاء فيها: أقول أنا: ألبرت اسبنيولا والمشايخ أصحاب المشورة في كومونة جنوه، وأحلف: " بالله، والله، والله العظيم.

وحق المسيح والصليب المقدس.

وحق الإنجيل المقدس إله واحد.

إنني ألتزم لمولانا السلطان الملك المنصور، سلطان مصر والشام وحلب واليمن والحجازوسلطان مكة البيت العالي أعزه الله تعالى، وسلطان القدس والساحل حتى طرابلس الغرب وسلطان جميع المسلمين: قلاوون الصالحي، وولده الملك الأشرف خليل .

أن حكومة جنوه، تحفظ وتكرم جميع المسلمين التابعين لمولانا السلطان الملك المنصور الذين يدخلون بلادنا من الرسل والتجار، وتحفظ سفنهم ومراكبهم والشواني ومماليكهم في البر والبحر، وفي جميع أنحاء كومونة جنوة من تاريخ هذه الهدنة " .[2]

وقد حلف اسبنيولا ومن حضر صحبته من القناصل وتجّار جنوه على نسخة هذا الصلح.

ثم حلف رسول المنصور قلاوون أسقف مصر فقال: وأنا الحقير بطرس أسقف مصر، والإنجيل المطهّر بين يدي ويد الرسول اسبنيولا، وهو واقف مكشوف الرأس.

وكتب ذلك بخطي شهادة عليهم بأنهم حلفوا باليمين العظيمة على الإنجيل والصليب بحضور من وضع خطة من الكهنة .

---

(1) ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام والعصور، ص 157 - 164- المقريزي : السلوك ، م3 ، ص 985 .

(2) ابن عبد الظاهر : تشريف الأيام والعصور، ص 165 حتى 167 .

وتحررت هذه الفصول يوم الأحد الثاني من جمادى الأولى سنة 689هـ / 1289م وقرأ ما فيها من القلم الإفرنجي المنقول إلى العربي شمس الدين عبد الله المنصوري، وترجم عليه سابق الدين الترجمان وعز الدين أيبك الترجمان .

"نسخة يمين اسبنيولا" :

«والله، والله، وحق المسيح ... وحق الصليب، وحق الست ماريه، وحق الأناجيل الأربعة التي نقلها متى ومرقص ولوقا ويوحنا .

إنني لم أخف شيئاً لهؤلاء التجار المسلمين من مالٍ وأسرى، وقد أحضرت معي ثمن السكّر والكتّان والفلفل وثمن المركب وهو 1600دينار فقط، وهذا هو المبلغ الذي أبيع فيه المركب والسكر والفلفل....» . وشهد بطرس أسقف مصر الملكي على جميع ما في أعلى هذه الورقة على رسول الجنوية اسبنيولا، وكتبت خطي نهار الخميس 9 أيار سنة 6798 (للخليقة). [1]

ثالثاً – معارك التحرير:

1- معركة حمص : (معركة صليبية بسيوف مغولية) 680هـ /1281م.

لابد من الإلمام بهذه المعركة التاريخية لعدة أسباب منها :

أن حوالي نصف الجيش المغولي كان من الكرج والأرمن والفرنجة وجميعهم نصارى، بل إن قائد المغول نفسه منكوتمر كان نصرانياً .

وكان الصليبيون في إماراتهم السّاحلية كما سنرى، يتابعون أخبار هذه المعركة باهتمام شديد، ومن ورائهم الباباوات وحلفاء المغول الأوربيين،حتى أنه يمكن القول بأن هذه المعركة كانت معركة صليبية بسيوف مغولية .

ولقد رأى المنصور قلاوون، أن اتفاقيات الهدنة التي وقّعها مع عكا وطرابلس، وهو متوجه للقاء المغول، ستكون حبراً على ورق إذا ما أنهزم الجيش الإسلامي أمام المغول، ولذلك قرّر مواجهتهم عسكرياً، لتثبيت مركزه المهم كسلطان المسلمين، ولإقناع البقية الباقية من الصليبيين بضرورة المبادرة إلى توقيع المعاهدات معه، ومن هنا كان لا بد من الإشارة إلى هذه المعركة التي تعدّ من أول المعارك العسكرية الحاسمة التي خاضها السلطان قلاوون.

وهي من الناحية العسكرية تعدّ من المعارك التقليدية العادية لعدم استخدام "الأسلحة الثقيلة" فيها، حيث التقى الجانبان وجهاً لوجه،وكانت الحرب بالسيوف والفؤوس والنبال بعكس الحروب مع الصليبيين والأرمن التي كانت المنجنيقات والأسلحة الثقيلة هي العامل الحاسم فيها، ويبدو أن المغول

---

(1) ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام والعصور، ص169 .

لم ينسوا هزيمتهم في عين جالوت فأرادوا أن يعيدوا الكرّة لإثبات وجودهم في أعين المغول أنفسهم وأعين حلفائهم الجدد: الصليبيين.

وكما هو الحال في كل زمان و مكان، فإن القويّ لا يعدم الأعذار التي يتذرَّعها لابتلاع الضعيف، وكانت أعذار المغول دائماً هي اعتداء الأمراء الموالين لدولة المماليك عليهم، ونشر الزعر على الحدود.[1]

وكان المغول كثيراً ما يجتاحون بعض المناطق الحدودية، ثم ينسحبون عندما تصلهم أخبار تحرك السلاطين، ومن المؤسف أن بعض أمراء المماليك كان لهم دور غير مشرّف مع المغول، وعلى رأسهم الأمير سنقر الأشقر، الذي كاتب "أبغا" وأرسل رسلاً من قبله إلى بلاد المغول للقدوم إلى الشام واحتلالها، مع الوعد بالمساعدة،

وكان سنقر هذا قد تزوّج من المغول وأنجب منهم، وما زال يلحّ على أبغا حتى أقنعه بإرسال جيوشه إلى الشام.

ولذلك بادر المنصور قلاوون إلى محاولة رأب هذا الصّدع فأرسل إلى الأمير سنقر يقول له: " لقد أفنيت عمرك في الإسلام، ولما اقتربت من الحمى تجاهد المسلمين مع التتار وتميل عن دينك إلى الكفّار" .[2]

والمهم أن السلطان بادر إلى التحرك الفورّي على النحو التالي :

في أوائل ذي الحّجة 679هـ / 1280م تحرك السلطان من القاهرة متوجهاً إلى الشام.[3]

ووصل السلطان إلى دمشق يوم 20 من المحرم سنة 680هـ / 1281م وهو أول دخوله سلطاناً إليها، واحتفل به أهلها احتفالاً خيالياً.

ومنها كتب إلى الأمير: شرف الدين عيسى بن مهنا بالمسير إلى الرحبة.

وكتب إلى الملك المسعود خضر بن الملك الظاهر بإرسال من عنده من العساكر إلى دمشق. فدخل المسعود نفسه دمشق يقود عساكره بنفسه، وطلب من "عرب بني عقبة" الحضور إلى دمشق.

وفي يوم السبت 18 جمادى الآخر 680هـ / 1281م وصل إلى دمشق عدد من العربان بقيادة الأمير أحمد بن حجي.[4]

وذكر شافع بن علي أن السلطان وأمراءه كانوا قد اتفقوا أن يكون اللقاء في مرج الزنبقية قرب دمشق.[5]

---

(1) المنصوري : مختار الأخبار، ص72 .

(2) المنصوري : مختار الأخبار، ص72 .

(3) الجزري : تاريخ ابن الجزري ،م3، ص305 .

(4) ابن خلكان : وفيات الأعيان، تح : إحسان عباس، دار صادر، م1، ص515 .

(5) العمري: مسالك الأبصار، م 27، ص 431 .

وفائدة هذا الرأي:

القرب من دمشق وقلعتها وأسوارها، والاستفادة من ذلك في حالة الهزيمة، لكنهم عدلوا عن هذا الرأي، لأن معظم القوات العسكرية كانت قريبة من حمص.

ولذلك قرّر السلطان التوجه شمالاً نحو حمص التي أصبحت مركزاً عاماً لتجّمع الجيوش الإسلامية والعربان والمتطوعين. وأخيراً وفي يوم السبت 26جمادى الآخرة 680هـ / 1281م خرج السلطان بجيوشه من دمشق، وخيمّ بالمرج. ووصل السلطان إلى حمص بجيوشه يوم الأحد 3 رجب 680هـ / 1281م، وفيها كانت التعبئة الشاملة، فقد راسل منها سنقر الأشقر، فلان وطلب من السلطان أن يحلف له فحلف، ودخل إلى مخيم السلطان في رجب 680هـ / 1281م فاستبشر الناس به، وقويت قلوبهم بقدومه، لأنه كان عوناً عليهم فصار عوناً لهم .[1]

وفي حمص وصلت الأخبار الأولى إلى السلطان بأن التتار جمعوا نحواً من 120,000 مقاتل، وأكد ذلك المدعو "بهادر" وهو أحد أمراء منكوتمر الكبار، الذي أسر في نواحي عينتاب، وبعد أن علم السلطان بكل ما طلب منه أودع في قلعة دمشق. ثم جاءت أخبار مؤكدة خلاصتها: أن التتار قد جمعوا 80,000 وأنهم يتقدمون نحو حمص، وأن قائدهم هو "منكوتمر" أرسله أخوه "أبغا" ملك التتار، وأقام هو على ضفاف الخابور ينتظر أخبار النصر .وأن في جيشهم 25,000من خيرة الفرسان، وأن فيه 50,000 من التتار و30,000 من الكرج والأرمن والفرنجة. ولذلك بادر السلطان إلى تفقد جيشه ورغبّهم بما عند الله وأن الشجاعة صبر ساعة، كما وعدهم وعوداً جميلة، وقد تمت تعبئة الجيش الإسلامي على النحو التالي :

1- **الميمنة وفيها**:

الملك المنصور: صاحب حماة والعسكر الحموي والأمير بدر الدين بيسري والأمير علاء الدين طيبرس الوزيري والأمير عز الدين الأفرم والأمير علاء الدين كشتغدي الشمسي ومن معهم من أتباعهم من الأمراء ومقدمي الحلقة والأجناد، والأمير حسام الدين لاجين نائب الشام والعسكر الشامي. ووضع في رأس الميمنة الأمير شرف الدين عيسى بن مهنّا وآل فضل وعربان البلاد الشامية.[2]

وقد تم التوسع في ذكر قادة الميمنة لأنها هي التي صمدت وكانت العامل الحاسم في النصر، بعكس الميسرة تماماً.

---

(1) ابن علي : الفضل المأثور، ص71 .

(2) المنصوري : زبدة الفكرة، م9، ص196 .

2- **الميسرة** :

كان في المقدمة الأمير سنقر الأشقر وعسكره ومعه عدد من الأمراء. وكان في رأس الميسرة : التركمان، وعسكر حصن الأكراد.[1]

3- **القلب** :

وفيه الأمير حسام الدين طرنطاي وجنوده، والأمير بدر الدين بكتاش وجنوده، ومن خلفهم السلطان تحت الصناجق وحوله مماليكه والسلحدارية والسنجقدارية والطبردارية. وهو ثابت على صهوة جواده. وقد لعب هذا القلب، أو الجاليش* كما كانوا يسمّونه دوراً مشرّفاً في تحقيق النصر مع الميمنة. وجملة العسكر الإسلامي كانت لا تزيد عن 50000 مقاتل. وكان اللقاء بجوار مقام سيف الإسلام خالد بن الوليد وامتد حتى الرستن. وعند الساعة الرابعة من يوم الخميس 14 رجب 680 هـ - 1281 م بدأت المعركة التاريخية، فقامت ميسرة التتار بصدم الميمنة الإسلاميّة صدمة شديدة، صمدوا لها ثباتاً عظيماً. ثم قامت الميمنة "بهجوم معاكس" على ميسرة التتار التي انهارت معنوياتها لاخفاقها في الهجوم، فانهزمت ولاذت بالفرار ووصل الفارون إلى القلب وفيه منكوتمر.[2]

أما القلب، فيقول بيبرس المنصوري الذي حضر المعركة: «إن التتار عندما يئسوا من ميمنة المسلمين توجّهوا إلى السلطان مباشرة في رأس القلب، فأشار السلطان إلينا أن نردفه فردفناه جميعاً وقتلنا الذين قصدوه، فانكسرت ميسرة العدو كسرة تامة ولاذ منكوتمر بن هولاكو بالفرار مع من بقي من الميسرة' فتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون.[3] وأبلى عيسى بن مهنا وجيشه بلاءً حسناً عندما هجم بأصحابه على التتار فتمّ النصر عند الغروب تماماً بعد ثماني ساعات من المعارك الطاحنة . ووصلت أخباره هزيمة التتار إلى أبغا، الذي كان يحاصر عينتاب فهرب بمن معه، وافترق التتار بعد الهزيمة إلى فرقتين الأولى توجهت نحو سلمية والثانية توجهت نحو حلب والفرات. فلحقهم المسلمون وقتلوا منهم مقتلة عظيمة، وغرق عدد كبير منهم في النهر.[4]

أما الميسرة الإسلامية، فإنها لم تصمد للتتار وانهزمت سريعاً ومن حسن الحظ أنه لم يشعر بها أحد، فلم يعلم أحد من ميمنة التتار والميسرة الإسلامية بانتصار الميمنة والقلب في الجيش الإسلامي. ثم

---

(1) المنصوري : زبدة الفكرة، م9، ص 196 .

* - الجاليش : معناه الراية العظيمة في رأسها خصلة شعر، ثم أطلقت على مقدمة القلب في الجيش أو على الطليعة - ابن واصل : مفرج الكروب، ج2، ص 41 ج

(2) المقريزي : السلوك، م1، ص 690 .

(3) المنصوري : زبدة الفكرة، م9، ص 201 .

(4) ابن خلكان : وفيات الأعيان،م1، ص529 .

- العمري : مسالك الأبصار، م 27، ص 432 .

عاد سنقر الأشقر وبيسري ومن معهما وتتبعوا التتار وقتلوا منهم مقتلة عظيمة ثم جاء عيسى بن مهنا فكان تمام النصر. [1]

ويقول اليونيني الذي كان في دمشق: « إنه وصلت إلى دمشق بعد صلاة يوم الجمعة 15 رجب بطاقة من القريتين فيها أخبار الظفر والنصر وانهزام العدو، فضربت البشائر على قلعة دمشق، وزينت القلعة والمدينة، وأوقدت الشموع .

فلما كان ليلة السبت 16 رجب بعد منتصف الليل، وصل إلى ظاهر دمشق جماعة كثيرة من جيش المسلمين، منهم جماعة من الأمراء والأعيان، وأخبروا بما شاهدوه من الكسرة، ولم يعلموا ما تجدّد بعدهم، فحصل لأهل البلد قلق عظيم وخوف شديد، وتجهّز منهم خلق للفرار، وفتحت بعض أبواب المدينة، فوصل في تلك الساعة بريدي من جهة السلطان يخبر بالنصر وذلك عند أذان الفجر، فقرئ كتابه في الجامع، فطابت قلوب الناس، ثم جاء بريدي آخر مؤكداً أخبار النصر، فتكامل السرور وتمّ الأمن وفرح الناس .

وفي الكتاب أن التتار كانوا أزيد من 100,000، وأن الذين استشهدوا من المسلمين كانوا دون المائتين». [2]

ودخل السّلطان دمشق يوم الجمعة 22 رجب قبل الصلاة، وخرج الناس للقائه، ودخل بين يديه جماعة من أسرى التتار وأناس يحملون رؤوس القتلى منهم، ودخل مع السلطان سنقر الأشقر واستقر السلطان في قلعة دمشق.

وفي اليوم التالي جرَّد عسكراً كثيفاً إلى الرحبة بقيادة الأمير بدر الدين الأيدمري لملاحقة التتار فوصل إلى حلب، ثم توجه في طلب التتار إلى الفرات فهربوا وغرق منهم عدد كبير وبقي قسم منهم في قلعة البيرة فقاتلهم أهلها وقتلوا منهم أكثر من 500 رجل وأسروا(150).[3]

وتوجّه منهم 1500 فارس إلى بغراس، وفيهم أصحاب سيس وأقاربهم، فخرج علهم الأمير شجاع الدين السيناني بمن معه فقتل منهم وأسر بحيث لم يفلت منهم إلا دون العشرين . وتوجه منهم 4000 إلى سلميّة، فأخذت عليهم الطرقات والمعابر فساروا في البريّة فماتوا عطشاً وجوعاً ولم يسلم منهم إلا 600 فارس، فخرج إليهم أهل الرحبة فقتلوا معظمهم، وأحضروا عدداً منهم إلى دمشق، فأمر السلطان بضرب أعناقهم.[4]

---

(1) المقريزي : السلوك، م1، ص691 .

(2) اليونيني : ذيل مرآة الزمان، مخطوط من مكتبة السلطان أحمد الثالث في استانبول ورقمه 4907 / 4 ، وفيه أوسع المعلومات ، نسخة مصورة ، م4، ص 95 .

(3) المقريزي : السلوك، م1، ص698 .

- اليونيني : ذيل مرآة الزمان، م4، ص 95 .

(4) المقريزي : السلوك،م1، ص698.

وأقام السلطان في دمشق عشرة أيام يصرف أمورها، ثم غادرها يوم الأحد ثاني شعبان سنة 680هـ / 1281م متوجهاً إلى القاهرة [1]، ووصل قطيا يوم الاثنين 17 شعبان، ووصل إلى القاهرة يوم 22 شعبان من نفس العام، ودخلها وسط احتفالات خيالية لم يسبق لها مثيل، بعد غيابه عنها زهاء ثمانية شهور قضاها في الجهاد وتثبيت أركان الدولة.[2]

أما منكوتمر فهو كما ترجمه اليونيني: « حفيد تولاي بن جنكيز خان وابن هولاكو وهو من بيت الملك، وكان عنده شجاعة وإقدام وبطش وسفك للدماء وهو نصراني الدين، جرح في المعركة على يد الأمير علم الدين الدوادار، وحصل له غم شديد على ما حصل عليه، وعلى عساكره، وحدثته نفسه بجمع العساكر من سائر ممالك بيت هولاكو، وقصد الشام والأخذ بثأره. فقدر الله موت أخيه أبغا، ففتّ ذلك في عضده. وتملك أحمد تيكودار بعد أخيه أبغا، وكان مسلماً يرى عدم محاربة المسلمين، فانكسرت همة منكوتمر، واعتراه صرع متدارك، فلم يمت حتى أكل لسانه بأسنانه، وكان في الثلاثين، وسير إلى مدينة "تلا"[3] فدفن فيها سنة 681 هـ -1282 م».[4]

وهكذا فإن وفاته ووفاة أخيه قبله في عام واحد، تعد تتويجاً رائعاً لهذا النصر العظيم، وضربة قاضية للتحالف الصليبي - المغولي.

ويقول المؤرخ شافع بن علي: «إنه أثناء المعركة، وقعت بطاقة في الجيش الإسلامي على جناح طائر مضمونها: أنه وصل الخبر من داخل طرابلس أن التتار سيرّوا جمعاً كبيراً منهم إلى طرابلس ليكونوا من وراء جيش المماليك، ثم تبين أن جماعة من الفرنجة في حصن طرابلس لبسوا لباس التتار وخرجوا ليوهموا الناس أن التتار وصلوا إلى طرابلس ».[5]

وهذا يدل على التحالف المغولي الصليبي، ومدى حرص الصليبيين على هزيمة المسلمين. كما يدل على حكمة المنصور في تحالفه مع طرابلس قبل توجهه للقاء المغول.

ويدل من جهة ثالثة على دقة "المخابرات" المملوكية، وأمر آخر وهو أنه وصلت إلى السلطان المنصور قبيل المعركة أخبار من مجهول، على جناح الطائر، خلاصتها أنّ المغول قد علموا بأمر الخزينة السلطانية التي مع الجيش، وأنها محّملة على مائة بغل، وعلى كل بغل صندوقان في كل واحد 5000 دينار ذهب عيناً، وأن التتار قرروا الاستيلاء عليها.

---

(1) اليونيني : ذيل مرآة الزمان، م4، ص97 .

(2) المقريزي : السلوك، م1، ص 701 .

(3) تلا : موقع غربي تبريز نسبة إلى بحيرة تلا المحيطة به،وهو مدفن أباطرة التتار– أبو الفداء ؛ تقويم البلدان، ص 42 .

(4) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، م4، ص 178 .

(5) ابن علي : الفضل المأثور، ص 73 .

فعمد السلطان إلى تفريغ الأموال في أكياس ووزعها على الأمراء وكتب أسماءهم، وهذا دليل على دور"سلاح المخابرات" بين المغول والمسلمين .[1]

رابعاً- تحرير المرقب : 684هـ / 1285م .

1- مقدمات الفتوح:

فتوح قلعة قطيبا - 682 هـ/ 1283م :

هي من جملة قلاع آمد - ديار بكر – وكانت تابعةّ لها ثم صارت تابعة لإمبراطور بيزنطة، ثم انتقلت إلى المغول وكان فيها ضرر بالغ على قلعة كركر الإسلاميّة والثغور المجاورة لها.[2]

وكانت تقع على الضفة اليسرى لنهر الفرات من جهة الشرق، وجرياً على سياسة قلاوون في التخلص من "المستعمرات " الغريبة سواء الصليبية أو المغولية في دولة المماليك، فقد رأى إزالة هذه القلعة فحاصرها بمائة من رجاله من قلعة كركر القريبة منها وضيّق عليها الحصار، وعجز المغول عن إنجادها فاستسلموا، وتسلّم نواب السّلطان القلعة منهم، وملأها بالرجال والعدد العسكرية ومواد التموين، وأقام فيها عدداً من الفدائيين للإغارة منها على آمد، ثم دعم ذلك بكميات كبيرة من "الزردخاناه" من دمشق حتى صارت من أقوى القلاع الإسلامّية على الحدود الشمالية.[3]

ب- فتوح حصن الكختا – 682هـ / 1281م :

هو حصن قريب من حصن قطيبا وكركر، ولا يقل مناعة عنه وهو غاية في الحصانة وبه نحو من سبعين مسكناً، وهو ثلاث طبقات وفيه صهاريج الماء العظيمة وستة أبرج وعشر بدنات (وهي تحصين دون البرج) طول الواحدة حوالي 35 متراً، ويتصل بالحصن قلعة كبرى محيطها نحو من 300 متر، وهي ثلاث طبقات أيضاً، والجميع مبني على مرتفع صخري شاهق ويشرف على وادٍ عميق مغمور بالماء، وبجانب القلعة مدينة فيها أبراج وعدد كبير من الشراريف .

وقد رأى المنصور قلاوون ضرورة السيطرة على هذا الحصن والقلعة والمدينة بالحيلة، لتعذرّ إمكانية فتحها عنوة، فأرسل إلى وجوه أهلها ومنّاهم بالوعود الجميلة ووعدهم بمزيد الإكرام، فقام جماعة منها وقتلوا حاكمها من جهة المغول وأسمه "شجاع" وأقاموا مكانه رجلاً يدعى بدر الدين، وتسلم أمراء الملك المنصور قلاوون هذه القلعة وأحسنوا إلى أهلها، وشُحنت القلعة بالأسلحة و

---

(1) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ، م7، ص272 .

(2) ابن عبد الظاهر : تشريف الأيام والعصور، ص27 .

- المنصوري : التحفة الملوكية، ص 108 .

- المقريزي : السلوك، م1، ص 714 .

(3) ابن عبد الظاهر : تشريف الأيام والعصور، ص29، وقد وصفها وصفاً دقيقاً استغرق صفحتين كاملتين .

المنجنيقات وأصبحت حصناً إسلامياً قوياً على الفرات على غرار حصن قطيبا، وذلك سنة 682هـ / 1283م .[1]

ج - تحرير مدينة أياس - 682هـ / 1283م :

كان ملك الأرمن في سيس قد هاجم حلب وأحرق مساجد فيها، وخالف شروط الهدنة مع الملك الظاهر بيبرس وآذى تجار المسلمين وأبدى عداءه للسلطان.[2]

وقد أراد المنصور أخذ الثأر لحلب، فأمر حكام الشام، ولا سيما نائب حلب، بالإغارة على بلاد الأرمن، فحاصروا مدينة أياس[3] ودخلوها بالسيف ونهبوها وقتلوا مقاتليها .

ثم هاجمتهم عساكر سيس فجأة عند باب إسكندرونة.

وأنتصر المسلمون وساقوا خلف المنهزمين إلى تل حمدون ووصلوا إلى نهر جيهان وعاد العسكر وقد غنموا ما لا يحصى كثرة، وقد تم ذلك كله دون أن يفقد المسلمون رجلاً واحداً.[4]

2- **تحرير حصن المرقب: 684 هـ / 1285 م:**

حصن المرقب : قلعة أثرية في السفوح الغربية لجبال اللاذقية، تتبع مدينة بانياس في محافظة طرطوس، وترتفع عن البحر 360 متراً.

بنيت فوق جبل بركاني بازلتي، وتتحكم بموقعها المتميّز بالطريق الساحلية، وتبعد 15 كيلومتر إلى الجنوب الشرقي من بانياس، ويربطها بها طريق معبد .

عرفت بعدة أسماء منها: ماركابوس ومرغات ومرغا توم والمرقب، ويحيط بها سوران وخندق ومجموعة من الأبراج الضخمة والمنشآت العسكرية والمدنية، بناها العرب والصليبيون. وفيها عدد من الآبار وكنيسة جيدة المعالم، ويلحق بها برج الصبّي ومرفأ صغير على شاطئ البحر، وبجوارها تقع قرية المرقب التي بنيت أيام الملك الظاهر لوجود مسجد له فيها.

شيد أول حصن فيها سنة 454هـ / 1062م بأيدٍ عربية .

احتلها البيزنطيّون سنة 489هـ / 1104م ثم استعادها العرب .

ثم احتلّها الصليبيون سنة 512هـ / 1118م على يد لاجين الصّليبي.

ثم احتلها فرسان القديس يوحنا، ورمموا أسوارها .

---

(1) ابن عبد الظاهر : تشريف الأيام والعصور، ص28 .

المقريزي : السلوك، م1، ص716 .

(2) ابن عبد الظاهر، محي الدين : الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تح :عبد العزيز الخويطر، الرياض 1976م، ص 432 وما بعد .

(3) أياس: مدينة مجاورة للإسكندرونة، وكانت حدود سورية مع تركية تبدأ من أياس شمالاً، الموسوعة الإسلامية،15 جزءاً، دار المعرفة، ج3، ص 169 .

(4) ابن عبد الظاهر : تشريف الأيام والعصور، ص 32.

حاول صلاح الدين فتحها سنة 582هـ / 1186م لكنه لم يستطع. وكذلك حاول ابنه سنة 601هـ / 1204م .[1]

وكذلك حاول نائب "حصن الأكراد " الأمير الإسفهسلار[2] سيف الدين الطبّاخي سنة 679هـ / 1280م . ثم حررها السّلطان قلاوون سنة 684هـ / 1285م.

وكانت قلعة المرقب التي تحتلها الإسبتارية، يعود حكمها إلى مقدّمهم في عكا "فرير كليام جوان دو مونفرت".

وكان الظاهر بيبرس قد هادنهم سنة 666هـ - 1268م لمدة عشر سنين، انقضت في السنة التي توفي فيها، وبقيت المرقب تشكل رأس حربة للصليبيين.

وقد خطر للأمير سيف الدين الطبّاخي مباغت الحصن بهجوم مرتجل وبدون استعداد، فوصلت أخباره لسكان الحصن فكمنوا له وأسروا من كان معه، وكانت كارثة للمسلمين .

فلمّا بلغ السّلطان ذلك، غضب منه ، وأمر أن تكتب له رسالة من إملاء السلطان نفسه جاء فيها: "يا متخلّف، متى سمعت أن أحداً هاجم في ميمنة وميسرة الجيش على قلعة من الحجر" .

وأنكر عليه ما قام به غاية الإنكار.[3]

وكان الفرنجة الذين بحصن المرقب، لمّا بلغهم هجوم التتار على الحدود الشمالية لدولة المماليك، وانسحاب العسكر الإسلامي من حلب، طمعوا وعادوا إلى عوائدهم القديمة في أذيّة المسلمين، لا سيّما بعد حملة سيف الدين بلبان الطباخي المخفقة عليهم وما وصلهم من أخبار عن عزم التتار على اجتياح دولة المماليك بالكامل.

ولذلك استقر عزم السلطان المنصور قلاوون على تأديبهم للخلاص من شرورهم من جهة ولإرهاب من خلفهم من الفرنجة في عكا وطرابلس بل وفي أوربا نفسها .

وقد غادر السلطان القاهرة في أواسط ذي الحجة 683هـ / 1285م ومعه "زردخاناه" عظيمة فيها أحمال كثيرة من النشاب وآلات الحديد والنفط .[4]

أما المنجنيقات، وهي السلاح الحاسم في تلك الحروب، فقد أعدّت جميعاً في دمشق، وكما يقول ابن عبد الظاهر: «إن المجانيق حُملت من كل جهةٍ، ومن بينها منجنيق عظيم كان رُسم بعمله في دمشق

---

(1)مجموعة مؤلفين : المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري، قسم الدراسات العسكرية،دمشق 1992م، 5مجلدات، م5، ص 206 – 207 .

ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ،ج8، ص 17 .

(2)الإسفهسلار : قائد الجيوش.

(3) ابن علي : الفضل المأثور، ص 140 .

(4) ابن عبد الظاهر : تشريف الأيام والعصور ، ص 77 .

بمباشرة الأمير الإسفهسلار عز الدين الأفرم أمير جاندار، يرمي بحجر زنته 120 رطلاً بالدمشقي».[1]

وكما قال رنسيمان: « كان مع السلطان أعداد وأنواع من المنجنيقات لم يُسمع بمثلها».[2]

وهذا يؤيّد ما ذكر من أن المماليك كانوا قوّة ضاربة يحسب لها حساب، وأن المعارك لم تكن "بالسيف والترس " وإنما كانت هناك أسلحة مدّمرة صُنعت في دمشق وجعلت الصليبيين يركعُون أمامها وهم صاغرون، وهذه الناحية المهّمة لم تأخذ حظها من الدراسات التاريخية حتى اليوم .

وقد وصل السلطان إلى دمشق يوم 22 المحرّم 684هـ / 1285م، وهناك أجرى "عرضاً عسكرياً" لجيشه بكافة أسلحته، وكان من ضمنها عدد من المنجنيقات التي صنعت في دمشق وكانت من أنواع مختلفة، منها :

- ثلاثة منجنيقات من طراز "قرابغا"، وثلاثة منجنيقات من طراز "إفرنجية كبار"، وثلاثة منجنيقات من طراز "شيطاني" .

وبعد طلب الدعاء للجيش بالنصر ، توجّه الجيش إلى حصن المرقب يوم الثاني من صفر ووصل المرقب يوم 10 صفر، وشرع الجيش في عمل الستائر لحماية المنجنيقات، وتم توزيعها على أماكن معلومة لتكون ضرباتها مؤثرة، واستعّد النفّاطون والحجّارون للعمل .

وذكر المؤرخ أبو الفداء هذا الحصار فقال: « كان حصن المرقب للاسبتارية، وهو غاية في العلو والحصانة، ولم يطمع أحد من الملوك السابقين بفتحه، ولقد حضرت حصار هذا الحصن وعمري إذ ذاك 12 سنة، وهو أول قتال رأيته، وكنت مع والدي».[3]

ويقول اليونيني: " إنه في يوم الأحد 14 صفر 684هـ / 1285م طلب الاسبتار من أهل الحصن الأمان لأنفسهم وأموالهم وكافة ممتلكاتهم بما فيها أسلحتهم وخيولهم على أن يُسلّموا الحصن، فرفض السلطان وأخذ يرمي الحصن بالمنجنيقات، فاتفق الحال أن غرقت ستارة المنجنيقات المقابلة لباب الحصن في بركة كبيرة فيها ماء متجّمع فاستشهد من على الستارة وهم أصحاب الأمير علم الدين الدواداري" .[4]

وهكذا فإنه على مدى شهر كامل كانت المجانيق الإسلامية ترمي سور المرقب الحصين حتى يوم 16 ربيع الأول 684هـ - 1258م.

---

(1) الرطل الدمشقي : أكثر من 2/5 كغ أي أن وزن الحجر الذي يقذفه المنجنيق يزيد عن 300 كغ .

(2) رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبيّة، م3، ص668 .

(3) المختصر، م6، ص27 .

- النويري : نهاية الأرب، م3، ص125 . وفيه أنه دخل دمشق يوم السبت 12 المحرم .

(4) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، م4، ص239، وفيه أن السلطان وصل دمشق بجيشه يوم السبت 22 المحرم،ص 684هـ .

وفي آخر الأمر، نجح مهندسو السّلطان في إحداث فجوةٍ تحت "برج الأمل " في نهاية الزاوية الشمالية للقلعة و ملؤوها بأخشاب سريعة الاشتعال، فأخذ البرج يهوي، ولم يسع رجال الحامية إلا الاستسلام.

ويقول ابن عبد الظاهر: " أنه اتفق أن المجانيق المسماة الفرنجية كسرت مجانيق الفرنجة، وتقدم الجيش السلطاني، ونقب الجنود السور وحُشي بالحطب وأوقد يوم الأربعاء 17 ربيع الأول فعملت النار في وسط النقب في البرج الذي في قرنة الباشورة، وتقدم المسلمون نحو الباشورة وسقط البرج و نزل النصر على المسلمين يوم الجمعة وذلك بعد حفر سراديب إلى تحت الأبراج، فبادر الفرنجة إلى طلب الأمان على نفوسهم فقط وأكرمهم السلطان فأعطاهم 25 فرساً للعجزة منهم وتسلم المسلمون الحصن في الساعة الثامنة من نهار الجمعة، 19 ربيع الأول 684هـ / 1285م، وأرتاع سكان عكا لسقوط هذا الحصن وتمسّكوا بالمعاهدات التي وقعوها مع السلطان ".[1]

ثم جهّز السلطان أهله إلى طرابلس، فساروا إليها بحراسة جند السلطان دون أن يعترضهم أحد . وقد أرسلت كتب البشرى بهذا الفتح العظيم فوصلت دمشق يوم 21 ربيع الأول،[2] وكانت موجهة إلى علم الدين الشجاعي وحسام الدين لاجين، والملك الأشرف خليل .

وأمر السلطان بتخريب حصن مرقية قرب المرقب، وأعاد بناء هذا الحصن ووضع فيه النوّاب، وما يزيد عن ألف مقاتل، وأربعمائة من أرباب الصنائع، ومجموعة من الأهراء السلطانية، وكميات كبيرة من الحطب والنشّاب والزدخانه والنفط، وخصص لهذا الحصن أموال أنطاكية واللاذقيةما يزيد عن مليون درهم في السنة ثم تقدم نحو بلنياس (بانياس) فحّررها وأقام فيها حكومة إسلامية.

ودخل السلطان المنصُور بجيشه المنصور دمشق يوم الأحد الثالث من جُمادى الأولى سنة 684هـ / 1285م ، وسافر منها إلى مصر بكرة يوم الاثنين 18جُمادى الأولى فوصل قلعة الجبل يوم الثلاثاء 29 شعبان بعد أن استراح في تل العجول مدّة طويلة .

وقد مُدح بقصائد كثيرة من أشهرها قصيدة شهاب الدين محمُود ومطلعها

الله أكبر هذا النصر والظفرُ هذا هو الفتح لا ما تزعم السير.[3]

---

(1) ابن عبد الظاهر : تشريف الأيام والعصور، ص 81 .

- رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية،م3،ص668 .

والساعة الثامنة من النهار تعني قبُيل العصر وقبل المغرب بأربع ساعات .

(2) البرازلي: المقتفى،م 2، ص63، وفيه أن الفتح كان يوم الجمعة 12ربيع الأول، وهو بذلك يخالف جميع المؤرخين، والأرجح أن هذا من أخطاء المحقق .

(3) اليونيني : ذيل مرآة الزمان،م4، ص256-259 .

- المقريزي :السلوك، م1، ص729 .

3- **تدميرُ حصن مرقيّة*:684هـ / 1285م :**

يُعدُّ تدمير حصن مرقية واحداً من الأعمال التي تدل على عبقرية السلطان قلاوون السياسية والعسكرية من جهة، كما تدل على مدى النفوذ السياسي الذي وصلت إليه دولة المماليك وكلمتها النافذة على بقايا الأمراء الصليبيين في الشام .

وقد وصف مؤرخ السلطان قلاوون الذي كان شاهداً لمعاركه الحربية، أن السلطان بعد أن استولى على حصن المرقب تفرّغ لأمر حصن مرقيّة الذي كان تابعاً للداويّة (فرسان المعبد) بناه "برتولما" الذي كان من أمراء حصن الأكراد .

ولما فتح الحصن أيام الملك الظاهر، التجأ "برتولما" إلى المغول مستجيراً ومستنصراً ولما عاد اغتنم فرصة الفوضى التي حلّت بدولة المماليك بعد وفاة الظاهر، وطلب من صاحب طرابلس عمارة مرقيّة فعجز عن ذلك، فعمر في البحر حصناً قبالتها بمساعدة صاحب طرابلس والإسبتارية أهل المرقب وغيرهم، وهذا البرج بين طرطوس والمرقب مقابل مرقيّة في البحر.

ومحيط هذا البرج 65 متراً وعرض سوره أكثر من أربعة أمتار وهو مؤلف سبعة أطباق، وفي كل سور حجرين متقابلين على كل حجر قضيبان من الحديد، وعليهما شبك من الرصاص وفي الحصن صهريج عظيم، ولا تؤثر المنجنيقات فيه مهما كانت قوتها، وفيه مائة مقاتل وخلفه برج آخر متصل به فيه ثلاثة مجانيق منصوبة، ولا يمكن الاستيلاء عليه بحصار ولا رمي.

وكان المسلمون قد بنوا برجا قريبا منه في قرية تسمى ميعار وأقام فيه خمسون رجلا، لكنه لم يكن ذا فائدة . ولما رأى المنصور الحصن والبرج، أدرك استحالة أخذ الحصن بالقوة، لأن الفرنجة كانت لهم الغلبة في البحر ولم يكن للمسلمين مراكب كافية، ولذلك أرسل إلى صاحب طرابلس يقول له :

"وهذا البرج أنت الذي عمرته في الحقيقة، وأنت المؤاخذ به، فإما أن يهدم أو نأخذ من بلادك عوضا عنه، ولن ينفعك صاحب مرقية وتندم حيث لا ينفع الندم." [1]

واتفق حضور رسل صاحب طرابلس إلى المرقب لطلب رضا السلطان، فاقترح عليه تخريب هذا البرج، وإحضار من كان فيه من جبيل، فأحضر عدداً منهم، واعتذر بأن البرج ليس في ملكه. فلم يقبل السلطان اعتذاره وصمم على طلبه منه، فقال إنه اشتراه من صاحبه بعدّة قرى وذهبٍ كثير، فصمّم السلطان على هدمه. [2]

---

* - حصن مرقية : قلعة حصينة في نواحي حمص- الحموي : معجم البلدان، ج5، ص 128 .

(1) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، م4 ، ص 241 .

(2) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، م4 ، ص 241 .

فلما علم صاحب طرابلس بجدية تهديد السلطان، بادر إلى إقناع صاحب البرج، بعد تمنع شديد، بهدمه، وأرسل له الرجال ليساعدوا في ذلك، كما أرسل المنصور مائة من مهرة الحجارين للمساعدة في هدمه بقيادة الأمير ركن الدين طقصو المنصوري الذي كان قرب جبلة ، فهُدم حجراً حجرا، وكفى الله المؤمنين القتال ومما قيل عنه :

كم حاجج الإبرنس عن مرقيهْ من أجل صاحبها وكم قد هرَّ بهْ

فغدا وسيفك خلفه وأمامهُ وسيوف كيدك للنحور مصوَّبهْ

قتل ابنه وسط عكا عامداً وأتى إلى البرج الحصين وخرَّبه

وكان ولد صاحب الحصن قد وعد السلطان بتسليمه الحصن، ثم تنكّر وذهب إلى عكا فألقي القبض عليه وجاء والده من طرابلس فقتله في الميدان العام بيديه .[1]

وتدل هذه الحادثة عموماً على هلع الصليبيين من الملك المنصور والجيوش الإسلامية.

4- **فتوح اللاذقية 686 هـ / 1287 م :**

تم الاتفاق بين السلطان قلاوون ومتملك طرابلس بيموند بن بيموند في الهدنة المبرمة في 27 ربيع الأول 680 هـ / 15 تموز 1281 م – 15 تموز 1592 للاسكندر المقدوني على شروط عديدة ذكرناها، كما تضمَّن شروطاً مفصّلة فيما يخص اللاذقية تحديداً. فقد اتفق أن تجبى الرسوم والضرائب في اللاذقيةعن طريق الميناء والبرج وتوزع مناصفة بين الطرفين. وحتى يتم ذلك كان لا بد من إقامة مندوبين عن السلطان في اللاذقيةعلى جسر أرتوسية .

وكان عدد المندوبين المسموح بهم 16 نفراً هم الرئيس والشاهد والكاتب وثلاثة غلمان لهم وعشرة رجال في خدمتهم. و ذلك حتى يراقبوا حركة الميناء والبرج وما يصدر منهما وما يُستورد وما يتجمَّع من الإيرادات من ذلك.

واتفق على أن تكون لمندوبي السلطان دُوُرُ يسكنون فيها وألا يحصل منهم أذى لجماعة الأبرنس، وإنما يمنعون ما يجب منعه مثل الأسلحة والخمور، وقد سارت الأحوال هادئة بضع سنين.[2]

ثم اشتكى تجار حلب للسلطان المنصور قلاوون، بأنهم لا يرتاحون لإرسال بضائعهم إلى الميناء المسيحي في اللاذقيةالتي كانت آخر ما بقي من إمارة أنطاكية الصليبيّة.

---

(1) ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام والعصور، ص90.

(2) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ، م7 ، ص 205 .

وفي سنة 686 هـ /1287 م وقع زلزال في اللاذقية ألحق ضرراً بأسوارها، فوجد السلطان أن الفرصة قد تهيّأت لتحريرها. فادعى صاحب طرابلس أن اللاذقية مشمولة بالهدنة لأنها تابعة لأنطاكية، وليس لطرابلس، وعلى أثر ذلك أرسل السلطان الأمير طرنطاي لاحتلالها، فسقطت بيده في سهولة ويُسر، فالتجأ حُماتها إلى برج اللاذقية.[1]

وكان هذا البرج في البحر، وكان آفةً على المسلمين، وكان يتحصّل منه للنصارى مال عظيم من ميناء اللاذقية. فقدّر الله تعالى أن تصيبه زلزلة سنة 684 هـ / 1285م أثّرت فيه كثيراً. ثم أصابه زلزال آخر في خامس صفر 686 هـ / 1287 م هدم برج الحمام ومكان الفنار.

وعندما التجأ المقاتلون إليه نصب طرنطاي الجسور إليه في البحر، وأحضر المنجنيقات، وأخذت ترمي على الأماكن التي تأثرت بالزلزلة ، فأذعن من في البرج للتسليم وكان ذلك يوم الأحد 5 ربيع الأول 686 هـ / 20 نيسان 1287 م، وخرجوا على وجوههم بأنفسهم وأموالهم وتركوا السلاح فيه ورفعت عليه الأعلام السلطانية وأذّن المؤذن فيه للظهر، ثم هدم البرج وعادت اللاذقية لاذقية للعرب المسلمين. ونقلت المنجنيق إلى حصن المرقب.[2]

خامساً- تحرير طرابلس :

1- تحرير طرابلس 688 هـ / 1289 م :

كان تحرير طرابلس من آخر الأعمال العسكرية الحاسمة التي قام بها السلطان الملك المنصور قلاوون، وقد ارتبط اسمه إلى الأبد بهذه المدينة كما ارتبط اسم المعزّ الفاطمي بمدينة القاهرة .

ويعود تاريخ بناء طرابلس إلى العصر الفينيقي القديم حوالي 2500 ق.م، ويطلق المؤرخون العرب عليها اسم أطرابلس عادة [3].

وطرابلس الحالية بلدة حديثة، أما البلدة القديمة فتقع على بعد 3 كم من طرابلس البلدة ، وأمامها في البحر عدد من الجزر منها جزيرة البقر، وهي التي كان يطلق عليها خلال الاحتلال الصليبي اسم جزيرة "سان توماس" وهي التي كانت آخر مأوى للصليبيين في طرابلس . وهناك جزيرة : سنني وجزر المقاطيع وجزيرة الأرانب أو النخيل، وجزيرة الفنار التي تبعد عن الأسكلة 6 كم .[4]

أما عن تاريخ طرابلس فقد فتحها المسلمون على يد معاوية بن أبي سفيان 16هـ / 638م.

---

(1) رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، م3 ، ص681 .

(2) ابن عبد الظاهر : تشريف الأيام والعصور، ص 152 .

- العمري : مسالك الأبصار ، م27 ، ص 448 .

- رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ،م 3 ، 681 .

(3) الحموي : معجم البلدان،م1، ص256- 257 .

(4) الزين، سميح :تاريخ طرابلس، دار الأندلس، بيروت 1969، ص 31 .

وفي سنة 502هـ / 1108م احتلها الصليبيون بعد حصار دام عدة سنوات وحكمها عشرة من الأمراء: أولهم ريموند الصنجيلي وآخرهم بيموند السابع .[1]

وفي سنة 686هـ / 1287م هلك بيموند السابع أمير طرابلس دون وريث، وعند ذلك أعلن فرسان طرابلس وتجارها قيام "كومّون "أي مجلس بلدي مستقل في طرابلس .

وفي الوقت نفسه وصلت "لوسيا" أخت بيموند وادّعت أنها وريثة بيموند، وصاحبة طرابلس، واستنجدت بالاسبتارية حلفاء أخيها لاستعادة حقّها الشرعي. وقد ردّ "كومون" طرابلس بالاستنجاد بجنوه وطلب معونتها كما استنجد بارتلميو صاحب جبيل ورئيس كومون طرابلس بالسلطان قلاوون. [2]

وقد بادرت جنوه إلى إرسال قواتها البحرية إلى طرابلس التي أصبحت تابعةً لجنوة، وحصل الجنويُّون على مقعد لهم في طرابلس، وأعلنوا "لوسيا" أميرة على طرابلس، ليس لها من الأمر إلا الاسم .

أما الأمير بارتلميو فقد رأى أنه خرج من الصفقة صفر اليدين، فأرسل للسلطان رسولين من البنادقة أعلماه أن وجود جنوة في طرابلس يعد خطراً على دولته ولا سيما الاسكندرية .

ولم يكن السلطان بحاجة إلى من يحّرضه على طرابلس، لأن بيموند السادس أمير طرابلس منذ سنة 659هـ - 1260م كان وراء استدعاء المغول إلى الشام ومحالفتهم على التنكيل بالمسلمين، وصار المماليك يتحّينون الفرصة المناسبة التي جاءتهم على طبق من ذهب على يد بارتلميو، ولكن عندما بدأت الحرب تناسى الصليبيون خلافاتهم واتحدوا لمواجهة المسلمين ولكن بعد فوات الوقت، وجاءت الأساطيل الصليبية لنجدة طرابلس ولكنها وصلت متأخرة، تماماً كما وصلت سفن الفاطميين قبل 185 سنة.[3]

وقد أجمع المؤرخون المسلمون على أن سبب مهاجمة السلطان لطرابلس، رغم وجود المعاهدة أو الهدنة، كان غدر أهل طرابلس بالتجار والمسلمين ومخالفتهم شروط الهدنة .

فقد ذكر المقريزي: " أنه في سنة 688هـ وردت الأخبار من طرابلس بأن الفرنج أقاموا في جزيرة أرواد وشحنوها بالعتاد والسلاح والسفن، وصاروا يركبون البحر، فرسم السلطان بعمل الشواني".[4]

وذكر المقريزي : " أنه وردت كتب من نائب الشام بأن الفرنجة في طرابلس نقضوا الهدنة، وأخذوا جماعة من التجار وغيرهم أسرى، وكانوا لما ملك السلطان حصن المرقب قد بعثوا إليه بهدية

---

(1) الزين : تاريخ طرابلس،ص 48-67-105 .

(2) الزين : تاريخ طرابلس،ص 134 .

(3) الزين: تاريخ طرابلس، ص 134-333 .

(4) السلوك، م1، ص 746 .

وصالحوه على أن لا يتركوا عندهم أسيراً واحداً من المسلمين ولا يتعرّضوا لتاجر ولا يقطعوا الطريق على مسافر، فلذلك قرر السلطان مهاجمة طرابلس ".

أما اليونيني فذكر: " أنّ "سير تلمييه" كان من أقارب صاحب جبيل ومن فرسان الفرنجة، فلما قام ملك طرابلس بيموند سنة 681هـ بقتل حاكم جبيل، امتعض من ذلك، فلما مات ملك طرابلس، سأل "سير تلمييه" السلطان المنصور المساعدة، وأن يأمر نائبه سيف الدين بلبان السلحدار بمساعدته وتكون طرابلس بينه وبين السلطان مناصفة، فوافق السلطان ونفّذ تعصراته. أما الآخر، فقد أخذ يُماطل ويراوغ بعدما تمّ له ما أراد، فقرر السلطان مهاجمة طرابلس ".[1]

وهذه الروايات لا تختلف كثيراً عمّا ذكر.

وذكر المنصوري: " أنه في سنة 688 هـ ، ورد إلى السلطان كتاب من نائبه في دمشق يخبره فيه أن الفرنجة بطرابلس نقضوا الهدنة واعتدوا على التجار المسلمين رغم العهود المأخوذة عليهم، وتواترت الكتب من نواب حصن الأكراد والمناصفات الساحلية* عن ظلم الفرنجة الذين في طرابلس ونقضهم العهود ".[2]

أما في الجانب الآخر، أي جانب الفرنجة ومؤرّخيهم، فقد ذكر رنسيمان:" أن الأميرة "لوسيا" أخت بيموند صاحب اللاذقية كانت "كونتيسة طرابلس". وكان البنادقة والأمير بارتليمو على اتصال بالسلطان المنصور، لعدم قناعتهم بلوسيا وحقها في حكم طرابلس. وقد أرسلوا له رسولين بأنه إذا سيطرت جنوه على طرابلس عن طريق لوسيا، فسوف تفرضُ سلطانها على شرقي المتوسط بما فيه الإسكندرية».

ويقول رنسيمان:"إن عميل الداوية في مصر "بدر الدين بكتاش الفخري وجّه رسالةً إلى مقدم الداوية في طرابلس "وليم بوجيه" يعلمه فيها بنوايا قلاوون تجاه طرابلس، ونظراً لأن سمعة وليم المذكور كانت سيئةً، فإنه لم يُصدّقه أحد، ولم يحفل أحد بالخطر إلا في آخر الأمر" .[3]

وفي يوم الخميس 10 محرم 688هـ - 1289م خيّم السلطان بظاهر القاهرة، ورحل منها نحو دمشق بعد خمسة أيام، وكتب إلى جميع نوابه بتجهيز المنجنيقات. ودخل السلطان دمشق يوم الاثنين 13 صفر، وأقام فيها أسبوعاً، ثم خرج منها يوم 20 صفر.[4]

---

(1) اليونيني: ذيل مرآة الزمان، م4، ص362 .

* - المناصفات الساحلية : هي البلاد التي كانت تقسم غلاتها مناصفة بين السلطان والفرنجة، مثل اللاذقية وسيرد ذلك بصورة مفصّلة في الفصل الأخير .

(2) المنصوري: مختار الأخبار، ص87 .

(3) رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية،م3،ص683 .

(4) العمري : مسالك الأبصار، م27،ص 450 .

- المقريزي : السلوك، م1، ص747 .

وبدأ المنصور حصار طرابلس يوم الجمعة مستهّل ربيع الأوّل 688هـ / 1289م، وكان الحصار من جهة الشرق فقط، لأن البحر كان يحيط بها من باقي الجهات.[1]

وقال المنصوري: " إنّ والده حكى له أن عدّة المنجنيقات التي نُصبت على طرابلس كانت 19 منجنيقاً: منها 6 من طراز أفرنجية و13 من طراز قرابغا. وكان عدد الحجّارين، والزرّاقين الذين يقذفون النيران على العدو 1500 نفر ".[2]

وذكر رنسيمان:" أنه عندما تحقق حكام طرابلس من عزم قلاوون على قصد بلادهم، أرسل الداوّية قوةً بقيادة المارشال "جفري فانداك"، وتولى قيادة الاسبتارية المارشال "ماثيو كليرمونت"، وأرسل الفرنسيون إلى عكا قوةً بقيادة "يوحنا جراياللي". وكان في الميناء أربع سفن من جنوه، وسفينتان للبندقية، وأرسل الملك هنري من قبرص أخاه الأصغر أملريك في أربع سفن محملة بالفرسان. وغادر طرابلس عدد كبير من غير المقاتلين إلى قبرص. وكانت طرابلس منيعة الاستحكامات، وكان لأهلها التفوق المطلق في البحر، أما المسلمون فإن تفوّقهم كان واضحاً في عدد المقاتلين وأدوات الحصار، وكانت مقاومتهم نوعاً من العبث ". [3]

وكان سور المدينة غاية في المتانة والمنعة، وقد قُدرّ عرضه بحوالي خمسة أمتار أو عرض ثلاثة فرسان على خيولهم . [4]

وقد بدأ حصار طرابلس يوم الاثنين مستهل ربيع الأوّل سنة 688 هـ / 1289م، واستمر 34 يوماً . وبدأت المنجنيقات بالعمل، فدمَّرت "برج الأسقف" في الركن الجنوبي الشرقي للأسوار البريّة، ثم انهار برج الإسبتارية، الذي يقع بين برج الأسقف والبحر.

وعند ذلك رأى البنادقة أن المقاومة ضرب من العبث فشحنوا سفنهم بأغلى ما عندهم، ثم أقلعوا خارج الميناء، ثم تبعهم الجنويون، الأمر الذي أثار الذعر في صفوف الصليبيين .

وفي صبيحة يوم الثلاثاء 4 ربيع الآخر 688 هـ / 20 نيسان 1289م، أمر السلطان بشّن الهجوم العام، ودخل المماليك المدينة فاندفع السكان نحو السفن، وهرب مارشال الدواية ومارشال

- النويري : نهاية الأرب، م31، ص 46.

(1) ابن سباط، حمزة بن أحمد الغزي : صدق الأخبار المعروف بتاريخ ابن سباط، تح : عمر عبد السلام التدمري، جزءان، طرابلس 1993م ، ج1، 491 .

(2) الدواداري، ركن الدين بيبرس: كنز الدرر وجامع الغُرر، تح : بيزيد راتكة، المعصر الألماني، القاهرة 1982م، م7، ص 283 .

(3) رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية، م3،ص 685 -686 .

(4) النويري : نهاية الأرب،م 31، ص 46 .

الإسبتارية، وصُرع قائد الداوية، وحاول بعضهم الوصول بالمراكب إلى جزيرة القديس توما فخاض فرسان المماليك بجيادهم المياه الضحلة وقتلوا من فيها، وكان سقوطها صدمة عنيفة لأهل عكا.[1]
وهكذا تحررت طرابلس بعد 185 سنة من الاحتلال، وفي اليوم التالي وصلت أخبار هذا النصر إلى دمشق فزيّنت وعَّمت الفرحة كل الدولة.
وكانت محصّلة المعارك :عدد كبير من القتلى في صفوف الصليبيين يصعب إحصاؤهم، كما وقع 1200 من الصليبيين في الأسر، وأمر المنصور بتسوية المدينة بالأرض ومعها الجزيرة، وكانت خسائر المسلمين استشهاد عدد من الأمراء و55 جندياً. وحضر "سيركي" صاحب جبيل فخلع عليه وأقرَّه على جبيل عشر سنين أخرى. وأبقى للكونتيسة لوسيا أخت صاحب طرابلس السابق قريتين من قرى طرابلس وتسلم السلطان البترون وجميع الحصون والمعاقل، كما تسلَّم حصن بديع .
ثم عمّر المسلمون بأمر السُّلطان مدينة مجاورةً للنهر، أقيمت فيها الحمامات والمساجد والمدارس والقياسر، وأجريت فيها المياه بالقساطل، وعُمرت دار للسلطنة في منطقة عالية مشرفة على المدينة، وعُين الأمير سيف الدين بلبان الطباخي نائباً بها، وتم بناء المدينة الجديدة خلال مدة قصير، ودخل السلطان دمشق يوم الاثنين 15 جمادى الأولى سنة 688هـ / 1289م وغادرها في ثاني شعبان 688هـ / 1289م واستقر في قلعة الجبل في القاهرة في أواخر شعبان .[2]

ويقول أبو الفداء:"وحصار طرابلس هو أيضاً مما شاهدته. وقد فتحها السلطان المنصور يوم الثلاثاء رابع ربيع الآخر بالسيف، ودخلها العسكر عنوة، فهرب أهلها إلى الميناء، فنجّا أقَلّهم في المراكب، وقتل غالب رجالها، وسبيت ذريتهم، وغنم المسلمون غنيمة عظيمة .
ولما فرغ المسلمون من قتال أهل طرابلس، أمر السلطان بهدمها فهُدمت ودُكَّت إلى الأرض ، وكان في موضع قريب في البحر جزيرة فيها كنيسة تسمى سنطماس هرب الفرنجة إلى هذه الجزيرة وإلى الكنيسة التي كان فيها عالم عظيم من الفرنجة والنساء، فلحقهم المسلمين فقتلوا جميع من فيها من الرجال وأخذوا من فيها من النساء والصغار. ولقد عبرتُ إلى هذه الجزيرة بعد الفراغ منها في مركب، فوجدتها ملأ من القتلى بحيث لا يستطيع الإنسان الوقوف فيها من رائحة القتلى ".[3]
وفي القرن الماضي، أجريت بعض الحفريات في الجزيرة لبناء منشأة صناعية، عُثر على الكثير من جثث الموتى الذين دفنوا فيها. [4]

وقد نُظمت قصائد كثيرة في هذا الفتح المبين، منها قصيدة شهاب الدين محمود في مدح حسام الدين لاجين الذي شارك في الفتح ومنها:

---

(1) رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية، م3، ص 683 -686 .
(2) الدواداري : كنز الدرر، م8، ص283 .
(3) المختصر ، م 6، ص30 .
(4) الزين : تاريخ طرابلس، ص 135 .

مزَّقتها وما تشكَّت ولكن ما لجرحٍ بميُّـــتٍ إيـــلامُ

هكذا هكذا الجهادُ وإلاّ فامتشاق السَّمر الرقاق حرام

وقد تتبَّع بعضهم آثار الصليبيين الباقية في طرابلس في مجال الأسماء و الكنى ومن ذلك :

أنجول من Anjou
لدُّويهي من DeDouou
دكيز من degwse
دوبليز من de Blese
شنبور من Chambor d
شنفور من Chamfort
فرنجيَّة من Frongue . [1]

2- **الاستعداد لفتح عكا- 689هـ / 1290م :**

بدأ الاستعداد لفتح عكا بصورة فعلية منذ أيام الملك المنصور، فقد وصلت إلى المنصور قلاوون في شهر شعبان سنة 689هـ / 1290م أخبار من عكا، أن أهلها ثاروا على المسلمين وقتلوهم، فأنكر السلطان ذلك، فأرسل حكام عكا يعتذرون وقالوا إن الأمر كان عربدة وسكراً بين مسلمين ونصارى، ومن جهتنا فقد شنقنا النصارى، فردَّ عليهم السلطان:" صدقتم، أنتم شنقتم، ولكن شنقتم المسلمين، ونحن واصلون بمشيئة الله تعالى إليكم، فجهِّزوا الضيافة ".[2]

وجمع السلطان أمراء المشورة عنده وفاتحهم في أمر غزو القوم بسبب هذه الفتنة، فاعترض الأمراء بحديث الهدنة ، وأنها ملزمةٌ بالأيمان، فأشار السلطان إلى كاتبه فتح الدين أن يتتبع شروط الهدنة .

ويقول شافع بن علي:" وكنت كتبت هدنتهم واجتمعت بوالده محي الدين* ودرسناها ورأي كان أن لا فسحة فيها ولا موجبُ لفسخها، فقال لي ما تقول أنت؟ فقلت للسلطان لقد خالفوا شرط الهدنة في إهمال أمر المسلمين بعكا فقال السلطان: قد وردت كتب النوَّاب أن المسلمين هم الذين شُنقوا وليس الفرنجة فقلت لقد انفسخت الهدنة بذلك عندها قرر السلطان التحرك إلى عكا ".[3]

---

(1) معلوف، أمين : الحروب الصليبية كما رآها العرب، دار الفارابي، بيروت 1989، ص338 .

(2) ابن علي : الفضل المأثور ، ص 173 .

*- محي الدين الكاتب : كان والد فتح الدين .

(3)المقريزي : السلوك ، م1 ، ص 754 .

وكتب إلى الشام بعمل المنجنيقات وتجهيز الزردخاناه وقرر الأمير سنقر الأشقر على الغوطة وضياع المرج ما قيمته 200 – 500 درهم على كل رجل.

وجاء من بعلبك وسار إلى وادٍ بين جبال عكا وبعلبك لقطع الأخشاب للمنجنيقات، فسقط عليه ثلجٌ عظيم كاد أن يُهلكه، فساق وترك أثقاله فغمرتها الثلوج وبقيت إلى زمن الصيف فتلف أكثرها.

وتحرك المنصور بجيشه نحو عكا في آخر شوال سنة 689 هـ / 1290م، ونزل بمخيمه عند مسجد تبر حيث توفي ليلة السبت سابع ذي القعدة وحُمل إلى القلعة، فقام ابنه الأشرف بإتمام ما بدأ كما هو آت. [1]

وهكذا فقد أمضى الملك المنصور زهاء ثلاثين عاماً في محاربة الصليبيين والمغول أميراً وسلطاناً.

(1)المنصوري : زبدة الفكرة ،م9، ص 270 .

الفصل الثالث

حروب التحرير و التطهير الشامل في عصر الملك الأشرف خليل و خلفائه

المرحلة الأولى - في عصر الأشرف خليل : 689ه/ 1290م:

أولاً : الملك الأشرف خليل .

ثانياً : تحرير عكا 690ه / 1291م .

ثالثاً : تحرير الساحل السوري :

1- **تحرير صور 690هـ / 1291م .**

2- **تحرير صيدا 691هـ / 1292م .**

3- **تحرير حيفا 690هـ / 1291م .**

4- **تحرير بيروت 690هـ/ 1291م .**

5- **تحرير عثليث 690هـ / 1291م .**

6- **تحرير جبيل 690هـ / 1291م .**

7- **تحرير طرطوس 690هـ / 1291م .**

8- **تحرير قلعة الروم (قلعة المسلمين) 691هـ/ 1292م .**

9- **تحرير بهنسا و مرعش وتل حمدون 692هـ/ 1293م .**

رابعاً- استشهاد الملك الأشرف خليل 693هـ / 1294م .

المرحلة الثانية- مسيرة التحرير في عصر خلفاء الأشرف خليل :

أولاً : الملك العادل زين الدين كتبغا .

ثانياً : السلطان حسام الدين لاجين .

ثالثاً : السلطان الناصر محمد بن قلاوون :

1- **معركة مجمع المروج 699هـ / 1299م .**

2- **تحرير أرواد 702هـ / 1302م .**

3- **معركة شقحب 702هـ / 1302م .**

4- **الصليبيون بعد طردهم من الساحل السوري.**

حروب التحرير والتطهير الشامل في
عصر الملك الأشرف خليل وخلفائه

يمكن تقسيم هذا الفصل إلى مرحلتين : **المرحلة الأولى** في عصر الملك الأشرف خليل بن قلاوون وتم التحدث فيها عن الانتصارات الكبرى التي حققها الأشرف الخليل والذي يعتبر أشجع سلاطين المماليك ، وقد ارتبطت هذه الانتصارات باسمه وكان أعظمها تحرير عكا ، والذي يعتبر تحريرها من المواقع الفاصلة في الصراع العربي الإسلامي مع الصليبيين لا يقل أهمية عن معركة حطين ولذلك أتيت على ذكرها بتفصيل دقيق، ثم كان تحرير الساحل السوري والذي بدأ بتحرير صور ثم صيدا وحيفا وبيروت وعثليث وتحرير جبيل و طرطوس وتحرير قلعة الروم أو قلعة المسلمين وبهنسا ومرعش وتل حمدون وجميعُها ذكرت بالتفصيل. وتنتهي هذه المرحلة بذكر استشهاد الأشرف خليل بن قلاوون .

المرحلة الثانية: مسيرة التحرير في عصر خلفاء الأشرف خليل حيث أعتلى سدة الحكم من بعده الملك العادل زين الدين كتبغا وبعده السلطان حسام الدين لاجين وصولاً إلى السلطان الناصر محمد بن قلاوون أشهر سلاطين المماليك وأطولهم في مدة الحكم، وقد تابع مسيرة أخيه وأبيه في مقارعة المغول والصليبيين، حيث خاض معركة مجمع المروج و معركة شقحب التي وضعت حداً لطموحات المغول في الأراضي العربية، وقد تكلمت عنهما بشكل مفصل وعن أوضاع دمشق بعد هذه المعارك وهنا من الجدير ذكره أن الدافع وراء عرض بعض المعارك الهامة ضد المغول كان التداخل السياسي والتحالفات المشتركة ما بين الصليبيين والمغول ولذلك كان من المهم قراءة صورة المنطقة بشكل كامل ، فالعدو واحد سواء جاء من الشرق أو من الغرب . بعد ذلك تم الحديث عن تحرير جزيرة أرواد أخر معقل للصليبيين في الشام، ثم ختم الفصل بالحديث عن أمل الصليبيين بالعودة إلى المشرق حتى بعد طردهم من أرواد و هزيمة حلفائهم الأرمن والمغول .

المرحلة الأولى - في عصر الأشرف خليل (689ه / 1290م):

أولاً - الملك الأشرف خليل - محرر عكَّا :

يعد الأشرف خليل بن قلاوون من أشجع سلاطين المماليك على الإطلاق، وهو فوق ذلك قائد عسكري محنَّك، حقق في شهور معدودة انتصارات مذهلة، بدأها بتحرير عكا، رأس الحربة الصليبيَّة في الشرق، وبعدها انهارت مدن الساحل الصليبيَّة بعد مائتي عام من الاحتلال.

وكان ذلك يعني سقوط المقولة التي يتداولها الغربُّيون منذ ظهور الإسلام وحتى اليوم وهي أن: « ما أخذه الهلال من الصليب لا بد أن يعود إلى الصليب، وما أخذه الصليب من الهلال لا يمكن أن يعود إلى الهلال».[1]

ولذلك نراهم في الغرب حتى اليوم، يقومون بالتعتيم على عصر المماليك، ومن يذكره منهم يذكره على أنه عصر دموي، كان العرب فيه خارج الحكم، ويتولى أمورهم ملوك لا يُحسنون العربَّية، يحبون البطش وسفك الدماء.

والغريب أن كثيراً من أدعياء التحرر والتقدم يؤيدون الغربيين في هذه المقاله، ومن الملاحظ اليوم أن عملاً عظيماً مثل تحرير عكا، يكاد أن يكون مجهولاً عند غالبية المثقفين العرب فضلاً عن العامَّة، كما أن الذين سمعوا بقلاوون أو الأشرف خليل أو غيرهما من عظماء المماليك هم أقل من القليل، وكأن الحروب الصليبية توقفت عند حطين وصلاح الدين.

والغريب أن ثلاثة من كبار السلاطين المجاهدين، انتهت حياتهم بالقتل ومُثِّل بجثثهم بعد موتهم، بعد الانتصارات العظيمة التي حققوها وهم: المعظم توران شاه الأيوبي، ابن الملك الصالح وبطل معركة المنصورة، الذي أسر لويس التاسع ملك فرنسا. والمظفر قُطُز بطل معركة عين جالوت الخالدة. والأشرف خليل بن قلاوون محرر الساحل السوري وشمال سورية من الصليبيين، وبطل عكا العظيم. وكان الأشرف خليل دون الثلاثين عندما اعتلى عرش المماليك.

وكما قال ابن الجزري: « مات شهيداً مظلوماً، لم تتجدَّد في عصره مظلمة، وكان يحب الشام وأهله ويحبه أهل الشام، وقد بادر عند ولايته بإسقاط رسوم عرفية كثيرة كانت تؤخذ من أهل دمشق بدون وجه حق».[2]

ولقد استطاع الأشرف خلال المدة من: 3 ربيع الآخر سنة 690 هـ / 1291م حتى 5 شعبان سنة 690هـ/ 1291م تحرير عكا وصيدا وصور وبيروت وحيفا وطرطوس وعثليث وجبيل، وهي المدن التي كانت بأيدي الصليبيين.

وربما كان سبب حقد المستشرقين على الأشرف بالذات هو سياسة الإبادة الجماعية لاسرى الصليبيين ، وهو ما لم يفعله صلاح الدين من قبل. وهو ما سيرد فيما هو آت.

---

(1) أرسلان ، شكيب : تاريخ الدولة العثمانية، دار ابن كثير،ط 2001 ، ص 366 .

(2) ابن الجزري: تاريخ حوادث الزمان، ج1، ص 210 .

ثانياً - تحريرُ عكَّا :

يعدُّ تحرير عكا من المواقع الفاصلة في الصراع العربي الإسلامي مع الصليبيين، لا يقلُّ أهمية عن معركة حطين سنة 583هـ /1187م أو معركة المنصُور سنة 648هـ / 1250م ، لأن تحريرها أدى إلى تحرير الساحل السوري بكامله من الصليبيين.

ولقد كانت عكَّا بعدما استرجعها الصليبُّيون سنة 587 هـ/ 1187م القلعة الحصينة والحصن الذي لا يرام، والقاعدة الرئيسة للصليبيين سواء الذين كانوا يحتلون قسماً من الساحل السوري، أو أولئك الذين كانوا يمدُّونهم بالرجال من وراء البحار.

وكان خط أوربا – قبرص – عكَّا هو شريان الأمل والحياة للصليبيين في الشام، ولذلك فإن انهيار عكَّا كان يعني انهيار القاعدة العسكرية الأكبر للصليبيين في الشام.

وكان في عكَّا أماكن مقدسة للصليبيين مثل عين البقر، ومدينة الناصرة القريبة منها، ولذلك عدَّها الصليبيون جزءاً لا يتجزأ من مملكتهم الأولى في القدس.

كذلك فإنهم عندما أعادوا احتلال عكَّا سنة 587ه/1187م ، كانوا يهدفون إلى إعادة احتلال القدس، وهو ما حاولوا القيام به مراراً.

عكَّا: مدينة كنعانية قديمة. تعود نشأتها إلى الألف الثالثة قبل الميلاد، وكانت تعرف بعكو، كما عرفت بـــ عكَّة ، حاول العبرانيون احتلالها لكنهم ارتدُّوا عنها خائبين، وقد خضعت في القرن الثامن قبل الميلاد إلى سيطرة الآشوريين، ثم احتلها الفرس في القرن السادس قبل الميلاد .

ثم أصبحت مع سورية ومصر والرافدين جزءاً من إمبراطوريَّة الإسكندر المقدوني العظمى، وفي سنة 64 ق.م احتلَّها الرُومان، وأخيراً وفي سنة 14هـ / 636 م فتحها شُرَحبيل بن حسنة في أيام الخليفة عمر بن الخطاب ، وفي أيام الخليفة عثمان بن عفان، وولاية معاوية على الشام انطلقت منها الحملة البحرية الأولى إلى قبرص سنة 28 هـ / 649م ثم إلى رودس سنة 33هـ / 654م. [1] ثم توالى على حكمها الطولونيون والأخشيديون والفاطميُّون، وقد سقطت وهي بيد الفاطمين بعد استسلام حاكمها الفاطمي "زهر الدولة الجيوشي" لصاحب مملكة القدس اللاتينية الملك "بغدوين" في شهر رجب سنة 497 هـ/ 1104م.

ثم أصبحت عكا ميناء مملكة القدس الرئيسي، وتعاقبة عليها أعمال البناء والتحصين على مدى أكثر من ثمانين عاماً، وزارها ابن جبير عندما كانت تحت حكم الصليبيين سنة 580هـ / 1184م، أي قبل تحريرها بثلاث سنين فقال: «هي قاعدة مدن الإفرنج بالشام، والمشبهة في عظمتها بالقسطنطينية، ملتقى تجار المسلمين والنصارى.... تستعرُ كفراً وطغياناً، وتفور خنازير وصلباناً، انتزعها الإفرنج من أيدي المسلمين فعادت مساجدها كنائس، وطهَّر اللهُ من دنس الصليبيين مسجدها

---

(1) الموسوعة العربية، م13، ص363 م .

الجامع وهو بقعة بقيت بأيدي المسلمين مسجداً صغيراً يجتمع فيه الغرُبَاء لإقامة فريضة الصَّلاة، وعند محراب هذا المسجد يوجد قبر النبي صالح».[1]

وفي سنة 583 هـ / 1187 م عقب معركة حطين حررها الناصر صلاح الدين وأطلق سراح من فيها، ولم يقتل منهم أحداً، ووهبها لابنه الأفضل ودخلها المسلمون بقيادة صلاح الدين يوم الجمعة مستهل جمادى الأولى، وجُعلت الكنيسة العظمى مسجداً بمعرفة القاضي الفاضل.[2]

وفي 17 جمادى الآخرة سنة 587هـ / 1187م، استولى عليها الصليبيون بعد حصار طويل ومعارك رهيبة دامت36 شهراً بالتمام والكمال.

وعلى الرغم من أنَّ الصليبيين أخذوها بالأمان، فإنهم أخذوا ثلاثة آلاف أسير من المسلمين في الحبال وحملوا عليهم حملة الرجل الواحد فقتلوهم صبراً بالسيف وذلك كلُّه بعد اتفاقهم مع صلاح الدين على تبادل الأسرى بين الفريقين، وتسليم "صليب الصلبوت" الذي كان بيد صلاح الدين ولذلك ألغى اتفاقه معهم، ومات صلاح الدين حزناً على عكا، وعلى من استشهد فيها.[3]

وذكر العماد الكاتب: «أنه في يوم الجمعة 17 جُمادى الآخرة 587 هـ - 1187م، دخل الصليبيون عكا على أن يسمحوا للمسلمين بالخروج منها بأموالهم وأنفسهم مقابل تسليم البلد وشروط أخرى.[4] وفي عصر يوم الثلاثاء 17 رجب أخرج الصليبيون أسرى المسلمين إلى المرج خارج عكا، وقتلوهم عن آخرهم، وكان ذلك نقضاً لشروط الصلح مع صلاح الدين».[5]

2- أسباب فتح عكا:

ذكر معظم المؤرخين أن سبب نقض الهدنة مع حكومة عكا، هو ما جرى على عدد من التجار المسلمين من الإهانة والقتل، وكان الفرنجة قد كثر طمعهم وفسادهم وقطعهم الطريق على التجار.[6] أمّا المنصوري فقد انفرد بذكر قصّة لم يذكرها أحد، قال فيها: « وأصل ذلك ما حكاه والدي، قال: ورد فقير من المسافرين عكا، ونزل المسجد المجاور لعين البقر، وهو مكان مبارك ، فوجد فيه جماعة من الفقراء، فلما كان وقت آذان الفجر أذَّنوا خفية ولم يفتحوا طاقات المسجد، فأنكر عليهم الفقير ذلك. فقالوا : إنها بلد كفر ونخشى الفرنجة .

---

(1) ابن جبير، محمد بن أحمد الكناني : رحلة بن جبير، دار صادر، بيروت، 1985م، ص 276 .

(2) العماد الأصفهاني، محمد : الفتح القسّي في الفتح القدسي، تح : محمود صبح، الدار القومية، القاهرة، 1965م، ص90 .

(3) أبو شامة،عبد الرحمن بن إسماعيل : الروضتين في أخبار الدولتين، تح :إبراهيم الزيبق، مؤسسة الرسالة، بيروت 1997م،5 مجلدات، م4، ص 268 .

(4) الأصفهاني : الفتح القسّي، ص 513 .

(5) المقريزي : السلوك، م1، ص 753 .

(6) الدواداري : كنز الدرر، م3، ص 301 .

فقال الفقير: الآن طاب الجهاد في سبيل الله يا فقراء أما قرأتم قوله تعالى: «وتخشى الناس، والله أحقُّ أن تخشاه».* ثم إنَّ الفقير صبر إلى أذان الظهر، ففتح طاقات المسجد، وأعلن بالأذان بصوت عال.

وكان قد ورد عكا إفرنج "غُتم"* ليسوا من أهلها، فلما سمعوا المجاهرة بالأذان وثبوا من فورهم فقتلوا الفقير ورفاقه الثلاثة ورشوا دماءهم في جدران المسجد، ثم داروا في البلاد، فلم يجدوا مسلماً إلا قتلوه.(1)

وذكر المنصوري: «إن "عين البقر" يزورها المسلمون والنصارى واليهود، لاعتقاد الجميع أن عندها ظهرت البقرة لآدم».(2)

كما أنَّ ابن جبير ذكر في رحلته هذا المكان بصورة مفصَّلة ومما ذكره: «أنها هي التي أخرج الله منها البقرة لآدم، وعليها مسجد بقي محرابه على حاله، ووضع الإفرنج شرقيَّه محراباً لهم، فالمسلم والفرنجي يجتمعان فيه، وأبقى الله فيه موضع الصلاة للمسلمين».(3)

وهذا يدعم رواية المنصوري، ومن الواضح أن المسجد المذكور هو هذا، وسَّعه صلاح الدين عندما سيطر على عكا، وأبقاه الصليبيون على حاله لمجاورته للعين المقدسة "عين البقر".

أما من الجانب الغربي، جانب الصليبيين، فالرواية المتداولة كما ذكرها رنسيمان: «أنه في شهر آب 689 هـ / 1290م وصل إلى عكا عدد من الصليبيين الإيطاليين المشهورين بالسكر والعربدة والفجور والإخلال بالأمن، وصاروا يهاجمون التجار والفلاحين المسلمين. وفي أواخر شهر آب، اندلعت الفتنة في عكا في خان يجتمعُ فيه المسلمون والمسيحيون، وقد زعم المسيحيون أن تاجراً مسلماً اغتصب سيدة مسيحية، فاستغاث زوجها بالجيران، فانطلق رعاع الصليبيين في شوارع المدينة، ثم خرجوا إلى الضواحي، وأخذوا يذبحون كل من صادفهم من المسلمين».(4)

ووصلت أخبار المذابح إلى السلطان فبادرت حكومة عكا إلى إعلان "أسفها واستنكارها" لما حدث، بحسب لغة اليوم، وأرسل السلطان رسلاً إلى عكا للتحقيق في الحادث وأصرَّ السلطان على تسليم القتلة.

فدعا "الكونستابل" أملريك إلى عقد مجلس عام، اقترح فيه مقدَّم الداوية تسليم القتلة إلى السلطان، فرفض أعضاء المجلس" إرسال الصليبيين المؤمنين ليُقتلوا بأيدي الكفار " كما قالوا، وتدخل بعض

---

* - سورة الأحزاب ؛ الآية 37 .

* - "الغتم ": الأغبياء الجهلة .

(1) الدواداري : كنز الدرر، م3،ص313 .

(2) ابن جبير : رحلة ابن جبير، ص277 .

(3) رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية، م3، ص688 .

(4) الموسوعة العربية، م13، ص363 م .

الملوك "لإصلاح ذات البين" وكان منهم ملك أرمينيا، فرد عليه السلطان بأنه لن يترك في عكا مسيحياً واحداً على قيد الحياة ».[1]

وكان السلطان المنصور قد عزم على الحج، فلما سمع بما جرى في عكا، قدَّم الجهاد على الحج، وأعد لذلك عدَّته .[2]

وعندما توفي السلطان المنصور قلاوون، أنفذت حكومة عكا من جديد سفارة إلى القاهرة برئاسة "فيليب ماينبيق" الذي كان يحسن العربية ومعه اثنان من الفرسان إلى الملك الأشرف للتعزية بوفاة والده ومحاولة تجديد الصفاء القديم، لكن الأشرف رفض مقابلة الوفد وأدخلوا إلى السجن ولم يخرجوا منه بعد ذلك.[3]

وذكر رنسيمان في موضع آخر: «أنَّ الملك هنري أرسل فارسين من الداوية هما :" وليم كافران ووليم فيلييه " إلى الملك الأشرف عندما بدأ حصار عكا في آخر محاولة لرفع الحصار عنها وتجديد الهدنة، فهمَّ الأشرف بقتل الرسولين، ثم سمح لهما بالعودة وطلب منهما العودة بمفاتيح المدينة بدون قيد أو شرط».[4]

3- فتحُ عكَّا :

1- الاستعدادات في دمشق : في آخر صفر سنة 690 هـ / 1291 م وصل الأمير عز الدين أيبك، وعز الدين الأفرم أمير جاندار إلى دمشق لتجهيز المنجنيقات وآلات الحصار، لحصار عكا، ونودي في الجامع الأموي يوم الجمعة بالاستعداد للجهاد.[5]

اكتملت الاستعدادات يوم 12 ربيع الأول سنة 690هـ / 1291م وفُرِّقت المنجنيقات على الأمراء لجرها. وفي العشر الأولى من ربيع الأول سنة 690هـ / 1291م سُحبت المنجنيقات إلى الجسورة "شمال الكسوة " واستمر العمل اثني عشر يوماً، وساهم فيه الجميع حتى العلماء والطلبة .

ثم سافر بها الأمراء على مراحل حتى يوم الجمعة 20 ربيع أول سنة 690هـ / 1291م، وفي اليوم المذكور وصل أمير حماة الملك المظفر بقواته للمشاركة في الجهاد.

ويوم الأحد 23 ربيع الأول سنة 690هـ/ 1291م وصل كامل عسكره إلى دمشق.

---

(1) رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية، م3، ص688-694 .
- ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ، م8، ص 93
(2) اليونيني : ذيل مرآة الزمان، ج5، ص6 .
(3) رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية، م3، ص 694 .
- المقريزي : السلوك، م1، ص 762 .
(4) رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية، م3، ص 703 .
(5) الدواداري : كنز الدرر، م3، ص 307 .

وفي يوم 24 ربيع الأول وصل الأمير سيف الدين بلبان الطباخي إلى دمشق، وصحبته عسكر طرابلس وحصن الأكراد، وباقي الحصون.[1]

ومن خلال دراسة معارك المماليك، ولا سيما الملك المنصور وابنه الأشرف، يلاحظ أن تنظيم المعارك وتوزيع القوّات أو ما يمكن تسميته "بالتكتيك العسكري" كان في كل المعارك، كما هو الحال هنا يقوم على مبدأ عدم خلط القوات العسكرية في كتائب وألوية وفرق، وإنما إبقاء كل جيش بقادته وضباطه وأفراده كما هو، فهناك الجيش المصري، وجيش الشام، وجيش حماة، وجيش طرابلس، والساحل، والجيوش غير النظامية للعرب والبدو، وما إلى ذلك.

وكانت هذه الطريقة ذات فائدة عظمى للمقاتلين، وذلك لمعرفة كل واحد منهم بزملائه وقادته. كما أن ذلك كان يثير الحميَّة في نفوس المقاتلين وينشر روح المنافسة فيما بينهم.

وذكر أبو الفداء: «أن الملك المظفر صاحب حماة وعمَّه الملك الأفضل وسائر عساكر حماة، توجهوا إلى حصن الأكراد حيث تسلَّموا منجنيقاً عظيماً يسمى"المنصوري" له مائة عجلة، فُرِّقت في العسكر الحموي، وكان نصيب أبي الفداء عجلة واحدة ووقعت الأمطار والثلوج عليهم، وساروا من حصن الأكراد إلى عكا في شهر كامل، مع أن المسافة تقطع عادة في ثمانية أيام».[2]

واجتمع على عكا جيش عظيم من العسكر والمتطوعين وكان فيه92 منجنيقاً من أنواع مختلفة ، وكان فيها منجنيقات ترمي قذيفة زنتها حوالي 300 كغ، و عرَّادة تسمى (الغاضبة) وغير ذلك .[3] وهذا هو أكبر عدد من المنجنيقات يجتمعُ في جيش المسلمين على الإطلاق ووصلت هذه المنجنيقات يوم الخامس من ربيع الآخر.[4]

وفي القاهرة، قام السلطان الأشرف ليلة الجمعة 28 صفر سنة 690 هـ / 1291 م بزيارة مدرسة والده وتربته بين القصرين حيث تليت الختمات والموالد والأدعية ووزعت الأموال على المدرسين والطلبة .

ثم أرسل "حريمه " إلى دمشق حيث وصلن يوم الثالث من ربيع الآخر.[5]

---

(1) المقريزي : السلوك، م1، ص 42 .

(2) أبو الفداء : المختصر، م7، ص 31 .

- ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ، م8، ص93 .

- البرزالي : المقتفي، م2، ص 222 .

(3) أبو الفداء : المختصر، م7، ص31 .

- ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ، م8،ص93 .

- البرزالي : المقتفي، م2، ص222 .

(4) اليونيني : ذيل مرآة الزمان، م5، ص26 .

- رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية، م3، ص 694 .

(5) ابن الجزري : تاريخ ابن الجزري، م1، ص 42 .

أما السلطان فقد غادر القاهرة يوم الثالث من ربيع الأول 690 هـ /1291م ووصل غزة حيث أقام عدة أسابيع والتقى هناك مملوك والده الأمير المؤرخ بيبرس المنصوري الدواداري، نائب الكرك، الذي أشرف على تجهيز المنجنيقات، وآلات الحصار، ثم توجه مع السلطان نحو عكا. [1]

4- **المعركةُ** : في يوم الخميس الثالث من ربيع الآخر سنة 690 هـ / 1291 م، وصل الملك الأشرف إلى عكا وأقام مخيَّمهُ قبالة برج المندوب البابوي، الذي جاء إلى عكا لتوزيع البركات على المقاتلين، وكان جيش حماة تجاه برج الداوية . [2]

وكان حكام عكا عندما يئسوا من السلطان الأشرف وعلموا بتوجُّههِ إليهم استنفروا أوربا كلَّها، وقاموا بتجنيد كل قادر على حمل السلاح، وقد قدِّرت قوات الصليبيين بنحو ألف فارس و14,000 راجل. وكانت استحكامات المدينة على أتمّها، وكان لها سوران مزدوجان بينهما خندق، مع وجود خندق آخر خلف السور الخارجي لزيادة الحماية، وكان قد أقيم أكثر من اثني عشر برجاً على امتداد السورين الداخلي والخارجي .

قام الملك "هنري الثاني" ملك قبرص بتوحيد قبرص و عكا وأسند إلى أخيه "أملريك" مهمة الدفاع عن مدينة عكا ، ريثما يأتي بمزيد من الإمدادات.

وكانت الاستحكامات من الشمال إلى الجنوب، على النحو التالي :

- استحكامات الداوية - استحكامات الإسبتارية - برج كونتيّة بلوا – برج الانكليز – برج الملك هيو – برج الملك هنري الثاني – برج القديس نقولا – برج المندوب البابوي ويقابله برج فرسان التيوتون وإلى جانبه برج الألمان – ثم برج البطريرك.[3]

وهكذا اجتمع في عكا ممثلو مُلوك أوربا وأمرائها ومندوب البابا والجماعات الدينية العسكرية، حيث كانت "المعركة الأخيرة"، وأثناء المعركة وصل الملك هنري، ملك قبرص مع جيشه، تحمله أربعون سفينة، يرافقه رئيس أساقفة قبرص، وتولى قيادة القوات الصليبيَّة، بينما تولى الأوَّل توزيع الرحمات والأدعية.

وكما قال اليونيني: «أنه أنجد أهل عكا "بوكر بن سيروك" صاحب قبرص بنفسه، وفي ليلة قدومه أشعلوا نيراناً عظيمة لم يُر مثلها فرحاً به، وأقام عندهم ثلاثة أيام، ثم غادرهم عندما شاهد انحلال أمرهم».[4]

- الدواداري : كنز الدرر، م3، ص307 .

(1) المنصوري : زبدة الفكرة، م9، ص 278.

(2) رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية، ج3، ص 698 .

(3) رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية، ج3، ص 700 .

(4) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، م5، ص 26 .

أما من الناحية الأخرى، فقد نزلت الجيوش الإسلامية على عكا في أول ربيع الآخر 690 هـ / 1291م يوم الثلاثاء. وبعد يومين في يوم الخميس 3 جمادى الأولى وصل السلطان بجيشه، والتقى بجيوش الشام والمتطوعين يتقدمهم 92 منجنيقاً تم تجهيزها للرمي خلال أربعة أيام فقط.
وكانت منزلة الحمويين برأس الميمنة على عادتهم.

ويقول أبو الفداء»: كنّا على جانب البحر، والبحر عن يميننا إذا واجهنا عكا، وكانوا يقاتلوننا من المدينة ومن البحر، وكان يرمي علينا منجنيق ضخمُ من سفينة ضخمة في البحر، ثم أغرقت السفينة والمنجنيق، فكان في ذلك فرج كبير لنا ». [1]
وفي الصباح علَّق الملكُ المظفر عدداً من رؤوس الصليبيين في رقاب خيولهم التي كسبها العسكر وأحضر ذلك إلى الملك الأشرف .[2]
وأخذت المنجنيقات الإسلامية تقذف عكا ليل نهار، وكان منها 15 منجنيقاً من طراز "إفرنجي" وهي منجنيقات ضخمة بالإضافة إلى المنجنيق "المنصوري العملاق".
وأرسل الملك هنري إلى الملك الأشرف رسولين، وقبل عرض ما معهما طلب منهما الأشرف مفاتيح المدينة. [3]

واستمر الحصار والرمي من المنجنيقات حتى هُدمت أعالي الأبراج، ويقول المنصوري، شاهد العيان: «كان الصليبيُّيون يقاتلون قتالاً شديداً، وأثناء ذلك لمحتُ برجاً من أبراج عكا قد أثرت فيه المجانيق، فعملتُ ستارةً ونصبُتها تجاه البرج المذكور، وتقدَّمت بها فقذفوها بالمجانيق، فلم تعمل فيها شيئاً، ولم تنفذ فيها السّهام. وشرعنا في ردم الخندق الذي بين السورين، فصار طريقاً سالكاً، وسمع السلطان فأعجبه».[4]

5- سقوط عكا:

وكان ذلك في يوم الجمعة 17 جمادى الأولى 690 هـ / 18 أيَّار سنة 1291م، ودام الحصار والقتال حول عكا مدة 43 يوماً: من الخميس 3 ربيع الآخر حتى صباح الجمعة 17 جُمادى الأولى.
ففي سحر ذلك اليوم العظيم أمر الملك الأشرف بالهجوم العام على عكا، وركب السلطان والعساكر قبل طلوع الشمس، وكانت فرق الموسيقى العسكرية المحَّملة على 300 جمل تنفخ في الأبواق، وتضرب في الكوسات [5]، فتزلزلت عكا ومن فيها. ثم اقتحمها الجنود وهم يكبِّرون ويهلّلون .

---

(1) أبو الفداء : المختصر، م7، ص 31 .
(2) العمري : مسالك الأبصار، م 27، ص 453 .
(3) رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية، م3، ص 708 .
(4) المنصوري : زبدة الفكرة، م9، ص 280 .
(5) الكوسات : تروس من نحاس يضرب بأحدهما الآخر، وهي الآلة النحاسية الرئيسة في فرق الموسيقى العسكرية - القلقشندي : صبح الأعشى، م3، ص 544 .

وعلى حد قول رنسيمان: «وصل المسلمون إلى "البرج الملعون" وتراجع الصليبيون وقتل مقدم الإسبتارية، ولاذ الكثير من أهل عكا بالفرار إلى السفن، وقُتل الرجال، وسُبيت النساء، وانتقلن إلى حريم المماليك، وكنَّ من الكثرة بحيث بيعت المرأة منهن في أسواق دمشق بدرهم واحد. ورُفعت الأعلام السلطانية [1] على عكا في الساعة الثالثة من نهار الجمعة الأغرّ، وصار فتحها مثلاً سائراً لكل من يزعم أنه أتى عملاً عظيماً». [2]

ثم دِّمرت عكا وسُوِّيت حصونها بالأرض، وصارت مدينة تنعق فيها الغربان، كما وصفها الرحَّالة فيما بعد، ولم يعد يحفل بها أحد حتى حاصرها نابليون وارتدَّ عنها خاسئاً حسيراً .

وقد ذكر المؤرخ ابن العبري: « أنَّ المصريين عندما علموا بوفاة "أرغون" ملك التتار، تقدموا نحو عكا وحاصروها حصاراً شديداً، ولم يشأ الفرنجة بسبب كبريائهم أن يغلقوا الأبواب في وجه المصريين، لكنهم صاروا يخرجون إليهم راكبين خيولهم ويحصدونهم حصاد المنجل للقمح، وقتل من العرب 20,000 وكان معهم 300 منجنيق وحول كل منجنيق ألف مقاتل !!! ».[3]

وقد تم ذكر هذه الرواية بالرغم من تهافتها، لبيان روح التضليل والخداع والكذب عند الصليبيين وحلفائهم ومؤيّديهم .

ولم يكن يوم 17 جمادى الأولى هو يوم الفتح الكامل، فقد ذكر اليونيني، وهو أفضل من كتب عن فتح عكا تفصيلات كثيرة عن هذا الفتح، فقد قال: «إن الداويَّة والإسبتارية استعصيا على المسلمين، وتحصن الأرمن في أربعة أبراج شواهق وسط البلد وحفروا حولها».[4]

وفي يوم السبت 18 جمادى الأولى، قصد الجند البرج الذي فيه الداوية، فطلبوا الأمان، فأمنهم السلطان وأرسل لهم صنجقاً فرفعُوه على برجهم وفتحوا الباب، وصعد إليهم جماعة كثيرة من الجند وغيرهم، فلما صاروا عندهم، تعرض بعض الجند والعوام للنهب، ومدوا أيديهم إلى النساء، فغلق الإفرنج الأبواب ووضعوا السيف فيهم ورموا الصنجق وأعلنوا العصيان».[5]

وفي اليوم نفسه يوم السبت، نزل من كان في برج الاسبتار من الأرمن بالأمان على أنفسهم فقط، على يد الأمير زين الدين كتبغا المنصوري "الملك العادل فيما بعد".

---

(1) الأعلام السلطانية : كان علم المماليك من حرير أصفر مزركش وهلاله من ذهب، كما وصفه ابن طولون : مفاكهة الخلان، تح : محمد مصطفى، طبعة القاهرة،1962-1964 م، مجلدان، م2، ص 69 .

(2) رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية، م3، ص 694 .

(3) ابن العبري : تاريخ الزمان، ص366 .

(4) اليونيني : ذيل مرآة الزمان، م5، ص27 .

(5) اليونيني : ذيل مرآة الزمان، م5، ص27 .

وفي يوم الأحد عاد الداوية وطلبوا الأمان، فأمَّنهم السلطان على أنفسهم وحريمهم على أن يتوجّهوا حيث شاءوا، فلما خرجوا قتل السلطان منهم فوق الألفين، وأسر مثلهم وسيق إلى باب الدهليز السلطاني ألف امرأةٍ وصبي وبنت، واستولى الناس على من بقي من النساء والصبيان والأثاث .

وكان سبب ذلك، أن الأمير سيف الدين أقبغا المنصوري، أحد أمراء الشام، كان قد طلع إليهم في جملة من طلع فقتلوه وأخذوا ما عندهم من الخُيول، ودمروا ما أمكنهم تدميره، فتزايد حنق السلطان عليهم، وأصرَّ على قتالهم.[1]

ولمَّا علم من تبقى منهم ما جرى على إخوانهم تمسّكوا بالعصيان وامتنعوا عن قبول الأمان، وقاتلوا أشدَّ قتال، واختطفوا خمسةً من المسلمين ورموهم من أعلى البرج، فمات أربعة منهم .

وفي يوم الثلاثاء 28 جمادى الأولى أخذ البرج الذي استعصى، وهو آخر ما تبقى في عكا، وأنزل من فيه بالأمان، ودخله المسلمون لرؤيته فسقط عليهم وهلك عدد كبير منهم .

ثم عمد السلطان إلى النساء والأولاد فعزلهم، وضرب رقاب الرجال . وقد عمد كثير من الفرنج إلى الهرب، فمات كثير منهم غرقاً وخنقاً عندما تزاحموا على السفن والأبواب، والمسلمون يتعقبونهم قتلاً وأسراً . [2]

وذكر المقريزي:« أنهُ وجد بمدينة عكا " ناووس " في كنيسة، وهو من رخام أحمر، وفي وسطه لوح كبير من رصاص مكتوب فيه بالقلم الرومي عدة أسطر . فأخذه الأمير علم الدين سنجر الشجاعي، وتتبَّع من يقرؤه حتى وجده، فإذا فيه أنه إذا قربت سنة 700 ملكت أمَّة محمَّد سائر بلاد الفرنج، وتخرب الكنائس ....وقرئ بحضرة السلطان بدمشق» [3]

وذكر البرزالي: «أن نائب دمشق الشجاعي أمر بحمل جرنٍ كبير من قلعة عكا إلى الجامع الأموي وأدخل إلى الجامع في ليلة السبت 13 جمادى الآخرة سنة 691هـ - 1292م وسط تهليل المؤذنين وصيحات الصبيان والعامة ابتهاجاً به».[4]

وقد أثيرت أقاويل كثيرة حول عمل الأشرف مع الصليبيين وعدم وفائه بالعُهود.

وقد علق اليونيني على ذلك فقال : « هذا عندي أنه مكافأة لفعلهم حين أخذوا عكا من السلطان الشهيد صلاح الدين رحمهُ الله، فإنهم أمّنوا من بها من المسلمين، فلما دخلوها غدروا بهم وقتلوهم عن آخرهم، واستبقوا بعض الأمراء وباعوهم بمبالغ باهظة».[5]

---

(1) اليونيني : ذيل مرآة الزمان، م5، ص 28 .

(2) ابن الجزري : تاريخ ابن الجزري ، م1، ص 45 .

(3) المقريزي : السلوك، م1، ص 765 .

(4) البرزالي : المقتفي، م2، ص 244

(5) اليونيني : ذيل مرآة الزمان، م5، ص 28 .

وإذا ما تمت المقارنة بين الأشرف خليل وصلاح الدين، نجد أن الأشرف كان يرى أنه لا معنى لإبقاء المقاتلين الصليبيين الأسرى على قيد الحياة، وتأمين وصولهم إلى الإمارات الصليبية الأخرى، حتى لا ينقضُّوا من جديد على المسلمين فيقاتلونهم من جديد، وهو عين ما فعلوه عندما سمح صلاح الدين سنة 583 هـ / 1284م، لمقاتلي عكا بمغادرتها إلى صور وغيرها، لأنهم عادوا بعد سنتين وحاصروا عكا واحتلوها، وفعلوا بأهلها ما قد فعلوا.

وكان لسياسة الأشرف هذه فوائد كثيرة أهمُّها :

إصابة العدو بالذعر والهلع، وهو ما تجلَّى في انهيار مقاومة الصليبيين بعد ذلك وتحرير صيدا وصور بعد ثلاثة أيام من تحرير عكا، وسوف نرى كيف أن مدناً محتلَّةً غادرها أهلها من خوفهم قبل وصول الجيش الإسلامي، ولم يعودوا يفكرون بشيْ سوى الهرب، وانتهت صفات العنجهيَّة والصلف والغرور التي كانت تلازم الصليبيين طوال عدوانهم على المسلمين. (1)

والسلطان شرعاً يحقُ له قتل الأسرى الرجال فقط، أو مفاداتهم أو استعبادهم بحسب المصلحة العامة، أما النساء والشيوخ والرهبان والعجزة، فلا يُقتلون بأي حال من الأحوال.(2)

وقد وصلت إلى دمشق بطاقة على جناح الطائر في يوم الفتح العظيم، بعد صلاة الجمعة أي بعد حوالي ثلاث ساعات من الفتح فقط ... وزيَّنت البلد، وعملت القباب وكان عددها 16 قبة ابتهاجاً بهذا الفتح العظيم.

ودخل السلطان دمشق يوم 12 جمادى الآخرة، وفرح الناس به فرحاً عظيماً لم يحصل لأحد قبله .

وصلى الجمعة في المقصورة بالجامع الأموي، وولى على دمشق الأمير علم الدين سنجر الشجاعي، وغادر دمشق يوم التاسع عشر من رجب، ووصل إلى قلعة الجبل يوم التاسع من شعبان وزينت القاهرة لاستقباله زينة لم يسمع بمثلها، ودخل السلطان من باب النصر وخرج من باب زويلة إلى القلعة، وكثر سرور الناس ولعبهم .

وأوقف السلطان على تربة والده قرية الكابرة وتل الميشوح و كردانة، وهي من قرى عكا التي حررها، كما أوقف على مدرسته" الأشرفية" في السيدة نفيسة بالقاهرة عدداً من قرى عكا أيضاً منها : قرية الفرح، وقرية الحمراء،وقرية شفا عمرو.(3)

- ومما هو جدير بالذكر هنا : أنه عندما كان نابليون على أبواب عكا، أراد الثأر لقومه الصليبيين، فأمر بقتل 3000 أسير مسلم كانوا في جيشه، وذلك يوم 11 آذار 1799 م، وكان بين الضحايا بحسب رواية الأوربيين أنفسهم أطفال كثيرون تشبثوا بآبائهم وهم يُقتلون .

- هيرولد : كريستوفر : نابليون في مصر، ترجمة فؤاد أندراوس، دار الكتاب العربي، القاهرة 1962، ص 377 .

(1) الدواداري : كنز الدرر، م3، ص309 .

(2) الموسوعة الفقهية، الكويت، 2004 – 2008، 45 مجلداً، م4، ص 200 وما بعدها .

(3) المقريزي : السلوك، م1، ص769.

وخلد الشعراء هذا الفتح العظيم بقصائد أشهرها قصيدة الشهاب محمود الكاتب، التي نظمها على رويّ قصيدة أبي تمام في المعتصم يوم فتح عمورية وهي طويلة جداً، ومطلعها:

الحمد لله زالت دولة الصُّلب وعَّز بالتركِ دين المصطفى العربي

وقال ابن ضامن من قصيدة :

فعزاءُ عن هذا المصاب فإنه يومُ بيومٍ والحرب سجالُ

هذا بذاك، ولا نعيَّر دهرنا ولكل دهرٍ دولة ورجالُ[1]

ولقد عزا بعض المؤرخين الصليبيين هزيمتهم في عكا إلى إهمال أهلها فروض الدين والقانون والفضيلة، وانغماسهم في حمأة الرذيلة.[2]

وذلك حتى لا يفقد الأوربيون ثقتهم برجال السياسة والدين الذين كانوا وراء أنهار الدم التي سالت في المشرق على مدى مائتي عام.

ثالثاً - تحرير الساحل السوري:

1- تحرير صور:19 جمادى الأولى 690هـ / 19 أيار1291م:

اسمها اللاتيني: TyRne، مدينة قديمة تقع جنوب بيروت بـ 85 كم،أسسها الفينيقيون، وحررها العرب من البيزنطيين سنة 15 هـ/ 636م في عصر الخليفة عمر بن الخطاب، ثم سيطر عليها الفاطميون في حدود سنة 370 هـ/ 980 م، حاول الصليبيون احتلالها فعجزوا عن ذلك.

وأخيراً وفي سنة 518 هـ / 1124 م سلَّمها حاكمها الفاطمي عز الدين نبأ مقابل مبالغ من المال من الصليبيين، والتجأ إلى الأمير ظهير الدين طغتكين في دمشق.[3]

حاول نور الدين وصلاح الدين والعادل والظاهر بيبرس والمنصور قلاوون فتحها، فلم يتمكنوا منها.

وعندما توجَّه الملك الأشرف إلى تحرير عكا، جَّهز جماعة من الجند مقدَّمهم الأمير علم الدين سنجر الصوابي الجاشنكير والي برّ صفد إلى صور[1]، لحفظ الطرق وتعرف الأخبار ومضايقة صور.

- البرزالي : المقتفي، م2، ص 236 . وفيه أنه غادر دمشق يوم 9 شعبان بخلاف ما ذكره المقريزي .

(1) النويري : نهاية الأرب، م31، ص 203 .

- المقريزي : السلوك، م1، ص 767 .

(2) سرور : دولة بني قلاوون، ص 240 .

(3) المقريزي : السلوك، م1، ص 761 – 765 .

- ابن الجزري : تاريخ ابن الجزري، م1، ص 45 .

فلما فُتحت عكا وعلم أهل صور بذلك، هربوا وأخلوا صور بعدما حال علم الدين سنجر الصوابي بين الصليبيين الهاربين والدخول إلى صور، ولم يبقَ فيها إلا عشرات من العجائز، فأرسل يُعلم السلطان بما حصل.

فأرسل إليه السلطان طائفة من العسكر مع الأمير سيف الدين قطز المنصوري، وجماعة من الحَّجارين و الزرَّاقين والنجارين لتخريب صور وحيفا، وذلك يوم الأحد 19 جمادى الأولى سنة 690هـ / 19 أيار 1291م .

ولم يكن الأشرف يفكر في احتلال صُور، ولكن الله ألقى الرعب في قلوب أهلها فسلموها من غير قتال، مع أنها كانت من أمنع المدن. وقد تم تخريب صور وتسويتها بالأرض شأنها شأن عكا.[2]

2- **تحريرُ صيدا**: 18 رجب 691 هـ /17 تمُّوز 1292 م .

صيدا: مدينة فينيقية كانت تدعى: صيدون، ويعود تاريخها إلى سنة 4000ق.م.

تقع جنوب بيروت بـ 48 كم، فتحها العرب سنة 47 هـ / 667م، في عصر معاوية بن أبي سفيان بعد أن كانت تحت حكم البيزنطيين، وبعد ذلك احتلها الصليبون سنة 505 هـ / 1111م ، ثم حررها صلاح الدين سنة 583 هـ / 1187م، ثم صارت مناصفة بين المسلمين والصليبيين في عصر الملك المعظم بن العادل. وبعد وفاته سنة 624هـ / 1227م أهملها ولده الناصر داود فاحتلها الصليبيون مع عكا وصور وبيروت وعمروا سورها وقوي طمعهم في غيرها، وكان ذلك سنة 625 هـ / 1228م.[3]

حاصرها الأمير علم الدين سنجر الشجاعي نائب دمشق ومعه الأمير زين الدين كتبغا، وسقطت يوم الاثنين 20 جمادى الأولى سنة 690هـ/ 1291م، وفي اليوم التالي وصلت الأخبار بفتحها إلى دمشق.[4]

والتجأ أهلها إلى جزيرة فيها برج غاية في القوة والمنعة لا يصله حجراً لمنجنيق، واستمر الحصار على هذا البرج والجزيرة قرابة شهرين.

وفي ليلة 18 رجب 690هـ / 1291م أحرق الفرنجة الجزيرة وصعدوا إلى المراكب، ودخل المسلمون فأحرقوا القلعة ودمَّروها وجعلوا عاليها سافلها.[1]

---

(1) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة، م8، ص 7 .

(2) اليونيني : ذيل مرآة الزمان، م 5، ص 27 .

- رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية، م3، ص 710 .

(3) الموسوعة العربية : م12، ص 331 .

- ابن الأثير : الكامل في التاريخ، تح :عبد السلام التدمري، بيروت 1997، 11مجلداً، م10، ص430 .

(4) اليونيني : ذيل مرآة الزمان، م5، ص25 .

- ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ، م8، ص 121 .

وذكر ابن الجزري: «أنه في يوم 15 رجب جاءت الأخبار إلى دمشق من الأمير علم الدين الشجاعي بسقوط برج صيدا».[2]

وأكد ذلك البرزالي الذي ذكر أن الفتح كان يوم 15 رجب.[3]

3- **تحرير حيفا** :2 شعبان 690 هـ/ 31 تمُّوز 1291م .

حيفا: مدينة فينيقية عريقة، ورد اسمها في التلمُود: حيفه و سكيمينوس، ولم يرد ذكرها في التوراة، وسماها الصليبيون كيفا، فتحها العرب أيام الخليفة عمر بن الخطاب، كما فتحوا الساحل السوري كله، وذكرت في التاريخ العربي في رحلة ناصر خسرو سنة 452 هـ /1060م، ولم يكن لها شأن كبير.

احتلَّها الصليبُّيون سنة 494هـ / 1110م، وأصبحت تحت إمرة تنكريد، وبنوا فيها قلعة حصينة، حررها صلاح الدين بعد حطين سنة 583 هـ / 1187م وأمر بتدميرها وإحراقها.[4]

في سنة 587 هـ / 1191م استعادها الصليبَّيون مع عكا. وفي سنة 609هـ/ 1212م تأسست فيها رهبانية الكرمل.

وفي سنة 663هـ/ 1265م حررها الظاهر بيبرس وأمر بتدميرها، ثم احتلها الصليبيون ثانية ، وحررها الأشرف خليل يوم 31 تموز 690هـ / 1291م بدون مقاومة وقتل رهبانها ودمَّرها، ثم أعاد بناءها ضاهر العمر في سفح جبل الكرمل المشهور بعدما كانت قائمة على لسان داخل البحر وذلك لأسباب حربية، وبقيت مع ذلك منسيَّة .[5] ويقول البستاني: «إنها كانت في عصره قرية حقيرة ثم ازدهرت مع بدايات القرن العشرين».[6]

4- **تحرير بيروت** :23 رجب 690هـ / 22 تموز 1291 م.

بيروت : مدينة موغلة في القدم، بدأت أهميتها بالظهور في العصر الفينيقي وكانت تسمى : بيروتا Beyroutoc . فتحها المسلمون سنة 19 هـ / 640م. وأصبحت منذ ذلك التاريخ وحتى أواخر القرن الثالث عشر الهجري التاسع عشر الميلادي الميناء الرئيسي لدمشق والمرتبطة سياسياً وإدارياً بها.

---

(1) اليونيني : ذيل مرآة الزمان، م5، ص25 .

(2) ابن الجزري : تاريخ ابن الجزري، م1، ص53 .

(3) البرزالي : المقتفي، م2، ص 244 .

(4) الموسوعة الفلسطينية : م1، ص 300 .

(5) رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية، م3، ص 312 .

(6) البستاني، بطرس : دائرة معارف البستاني، بيروت، دار المعرفة، 1881م، م7، ص 278 .

- المقريزي : السلوك، م1، ص 527 .

احتلها الصليبيون سنة 504 هـ / 1110م وبنوا فيها كنيسة مار يوحنا التي تحوَّلت فيما بعد إلى الجامع العمري . حررها صلاح الدين سنة 583هـ / 1187م بعد معركة حطين . ثم عاد الصليبيون واحتلُّوها بعد عشر سنين.[1]

وكان أهل بيروت متمسكين بالهدنة مع المسلمين، لكنَّهم آووا من هرب من الفرنج من عكا وغيرها، فخالفوا شروط الهدنة.

كما طُلب منهم أن يضموا مراكبهم إلى مراكب المسلمين أثناء حصار عكا، فرفضوا . ففُرض عليهم حصار بحري، ثم أُخرجوا منها، واستولى المماليك على القلعة بما فيها يوم 23 رجب 690 هـ/ 1291 م.

وكانت القلعة امتنعت قليلاً فتمَّ التفاهم مع صاحبها "ملتام" فاستسلم، وأُسُر كل من في القلعة والبلد من المقاتلين والفرسان.[2]

وذكر ابن الفرات : «أن الملك الأشرف أمر نائبه علم الدين سنجر الشجاعي بفتح بيروت، فلما وصل إليها تلقَّاه أهلها وأنزلوه في القلعة، فلما استقر بها أمرهم أن ينقلوا أولادهم ونساءهم إليها ففعلوا ذلك، فعمد إلى المقاتلين فقيَّدهم وألقاهم في الخندق، وكان ذلك يوم 23 رجب».[3]

وذكر ابن الجزري: «إن ذلك كان انتقاماً من الشجاعي لما فعله الصليبيون بأمراء التنوخيين الذين غدروا بهم وقتلوهم».[4]

5- **تحرير عثليث** : شعبان 690هـ / 14آب 1291م .

عثليث، أو عتليت: قرية جنوب حيفا بـ 13 كم عند جبل الكرمل. كانت تعرف بالحصن الأحمر، وهي موغلة في القدم، منذ عصور ما قبل التاريخ، حررها المسلمون من البيزنطيين على يد معاوية بن أبي سفيان . احتلها الصليبيون سنة 504هـ / 1110م . حررها صلاح الدين سنة 583 هـ / 1187م، ثم سقطت ثانية بيد الصليبيين سنة 614 هـ/ 1217م أقام فيها فرسان الداوية و التيوتون قلعة حصينة ضخمة تعرف بقلعة الحُجاج، ثم ضاعفوا تحصينها حتى أصبحت القاعدة الأولى لفرسان الداوية في بلاد الشام.[5]

---

(1) البستاني : دائرة المعارف، م5، ص 744- 753 .

(2) اليونيني : ذيل مرآة الزمان، م5، ص 30 .

(3) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ، م8، ص 121 .

(4) ابن الجزري : تاريخ ابن الجزري، م1، ص 54 .

(5) الموسوعة الفلسطينية : م3، ص 188 .

- المقريزي : السلوك، م1، ص528 .

- رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية، م2، ص 262 .

حاول الملك المعظم الأيوبي فتحها سنة 617 هـ / 1220م لكنه لم ينجح، ثم كرر الملك الظاهر المحاولة سنة 633 هـ / 1265 م لكنها استعصت عليه . وفي سنة 690هـ / 1291م وهي سنة الهروب العظيم والانهيار العام للصليبيين هرب سكانها فهدم المسلمون الحصن ووصلت أخبار هذا النصر إلى دمشق يوم 16 شعبان سنة 690هـ / 1291م .[1]

وذكر اليونيني: «أنه كان يضرب بحصانة عثليث المثل لأن البحر يحيط بها من سائر جهاتها. وكان الأشرف عندما توجه نحو عكا قد جَّرد الأمير بدر الدين بكتاش التركماني مع جماعة من التركمان للنزول حول عثليث، ليمنع أهلها من إزعاج المسلمين. وسقطت عكا وبدر الدين مكانه، فلمَّا بلغ أهل عثليث فتح صور وصيدا وبيروت وغيرها، أحرقوا ما قدروا على حرقه وقتلوا خيولهم ودمروا مراكبهم وهربوا منها ليلة الأحد 15 شعبان 690هـ / 1291م وهذا مما لا يخطر على بال ومن التوفيقات الإلهية».[2]

وذكر رنسيمان: «أنها سقطت يوم 15 شعبان 690 هـ الموافق ليوم 14 آب 1291 م».[3]

وهي بذلك آخر المدن التي تم تحريرها.

وذكر الجزري: «أنه وصل الخبر إلى دمشق يوم 6 شعبان 690 هـ، بفتح عثليث ثم ورد الخبر بفتح أنطرسوس وخراب جبيل».[4]

بينما ذكر المنصوري: «أنه وصل الخبر إلى القاهرة يوم الجمعة 16 شعبان بفتح عثليث، ووصل بعده بريدي يخبر بفتح أنطرسوس وخراب جبيل».[5]

وذكر المقريزي: «أن السلطان تسلَّم عثليث أول شعبان ثم أنطرسوس في خامسه».[6] والمرجح مما ورد أن فتحها كان 15 شعبان، والله أعلم.

6- **تحريرُ جُبيل** :شعبان 690هـ / آب 1291 م .

جبيل: مدينة من أقدم مدن العالم، تقع بين طرابلس وبيروت، على نهر إبراهيم،كانت تسمى: أفايا، وسمَّاها الكنعانيون: جيبال، وسمَّاها اليونان: بيبلوس، فتحها العرب أيام الخليفة عمر على يد يزيد بن أبي سفيان سنة 13 هـ / 634 م. ثم أعاد الروم احتلالها، لكنَّ مُعاوية استعادها منهم. و في سنة 353 هـ /964م، احتلها الروم 13 سنة.[7]

---

(1) ابن الجزري : تاريخ ابن الجزري ، ج1، ص 54 .

(2) اليونيني : ذيل مرآة الزمان، م5، ص 30 .

(3) رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية، م3، ص171 .

(4) الجزري : تاريخ ابن الجزري ، ص 340 .

(5) المنصوري : التحفة الملوكية، ص 55 .

(6) المقريزي : السلوك، م1، ص 765 .

(7) الجزري : تاريخ ابن الجزري ، ص 340 .

وفي سنة 497هـ / 1104 م سقطت بيد الصليبيين. وفي سنة 583 هـ / 1187 م حررها صلاح الدين.

وفي سنة 593هـ / 1197 م سقطت مجدداً بيد الصليبيين. وبقيت في أيديهم حتى عصر الأشرف خليل. ولما سقطت عكا، أمر السلطان بتهديم قلعة جبيل وأسوارها، ثم جاء الأمير علم الدين الشجاعي فسوَّاها بالأرض في شعبان سنة 690هـ / 1291م.[1]

7- **تحرير طرطوس** :5 شعبان 690 هـ / 1291 م .

أنطرطوس أو أنطرسوس أو طرطوس وهي أنترادوس القديمة المقابلة لجزيرة أرادوس - أرواد : مدينة فينيقة قديمة فتحها العرب المسلمون بقيادة عبادة بن الصامت سنة 17 هـ / 638 م، وحصّنها معاوية بن أبي سفيان، وعندما فتح قبرص فتح معها جزيرة أرواد . وكانت طرطوس من أعمال حمص. سيطر عليها البيزنطيون مدة من الزمان ثم أُخرجوا منها . وفي سنة 495 هـ /1102 م احتلها الصليبيون بقيادة ريموند أمير تولوز وأقام فيها الداوية.[2]

حررها صلاح الدين سنة 584هـ / 1188 م بعدما دمَّر أبراجها الحصينة وأبقى كنيسة العذراء المشهورة . والقلعة ما تزال إلى اليوم من المعالم الأثرية في طرطوس.

وقد أعاد الصليبيون احتلال المدينة وبقيت في أيديهم حتى عصر الأشرف . وكانت طرطوس قد وقّعت معاهدة صلح مع الملك المنصور قلاوون سنة 681 هـ / 1282م وكان يتبعها حصن العريمة وميعار.

وفي الخامس من شعبان 690 هـ / 3 آب 1291م هاجمها الأمير سيف الدين بلبان الطباخي، فهرب أهلها إلى جزيرة أرواد، ودخلت الجيوش الإسلامية المدينة وخرَّبتها.[3]

8- **تحرير قلعة الروم (قلعة المسلمين)**:

كان الملك الأشرف خليل يدرك تحالف الأرمن مع الصليبيين والمغول معاً، وكان يخطط لاجتياح العراق وتدمير من يحتلها من المغول الذين تفرَّغوا تماماً للكيد للمسلمين الذين كانت دولة المماليك هي حصنهم الأوَّل والمدافع عنهم، ولذلك قرر توجيه ضربة قاضية للأرمن من خلال فتح قلعة الروم التي صارت فيما بعد قلعة المسلمين .

وهذه القلعة غاية في الحصانة، وتقع على الضفة اليمنى للفرات مقابل البيرة بينها وبين سُميساط . وهي في وسط بلاد المسلمين، وفيها مقام بطرك الأرمن خليفة المسيح عندهم ويسمونه "كتاغيكوس"، وكان المسلمون قد تركوا فتح هذه القلعة كما تركوا البيع وأماكن العبادة النصرانية.[1]

---

(1) ابن الجزري : تاريخ ابن الجزري، م1، ص55 .

(2) اليونيني : ذيل مرآة الزمان، م5، ص 31 .

(3) ابن الجزري : تاريخ ابن الجزري، م1، ص 55 .

- الموسوعة الإسلامية : م15، ص 157، بقلم هونيكمان .

لكنَّ أهل القلعة كما ذكر الأمير علم الدين الشجاعي، أصبحوا: «يُخادعون الجار، ويوادعون التتار بالنفس والمال، ويدلونهم على عورات المسلمين، وهم يظنون أنهم آمنون بقلعتهم».

وفوق ذلك، فإن الأرمن كانوا يشاركون في كل الجيوش الصليبية والمغولية التي كانت تهاجم المماليك، ولم يكن بينهم وبين الصليبيين أدنى فرق، ولذلك يتوجب الحديث عن هذا الحدث العظيم وهو تحرير قلعة الروم الذي أدى إلى زعزعة التحالف الصليبي – المغولي – الأرمني ضد المسلمين، وعلى هذا فإن فتح هذه القلعة لا يقل أهمية عن تحرير عكا.

وقد وصف المؤرخون هذه القلعة فقال عنها اليونيني بأنها: «تحيط بها الجبال الشاهقة، ويجاورها الفرات من شرقها ، وحولها أودية وخنادق، وفيها من الأرمن عصابات، ومثلهم من التتار».[2]

وفي القاهرة خطب الخليفة الحاكم بأمر الله العباسي يوم الجمعة 29 ربيع الأوَّل بجامع القلعة خطبة بليغة حضَّ فيها على الجهاد، ونودي في القاهرة بالنفير العام للجهاد في سبيل الله.[3]

ثم تحرك السلطان الملك الأشرف من القاهرة يوم السبت 8 ربيع الآخر سنة 691 هـ / 1292م ووصل دمشق يوم السبت السادس من جمادى الأولى، أي بعد أربعة أسابيع، ومعه وزيره "ابن السلعوس". وبعد يومين في 8 جمادى الأولى وُزّعت الأموال على العساكر المصرية والشامية، ووصل المظفر صاحب حماة واجتمع بالسلطان.

وفي يوم الجمعة 12 جمادى الأولى صلّى السلطان بمقصورة الخطابة بالجامع الأموي، وأُوقدت الشموع في الليل من باب القلعة إلي الجامع لأجل عبور السلطان. وعُرض جيش دمشق على السلطان يوم السبت 13 من الشهر نفسه.[4]

وخرج السلطان من دمشق يوم الخميس 18 الشهر ومعه الأمير علم الدين الشجاعي، وبين يديه جماعة من النقابين والزراقين والحجّارين، والعُدد الوافرة وآلات الحرب.

ووصل إلى حماة، وهناك التقى جيش حماة بقيادة الملك المظفر وتابع الجميع إلى حلب فدخلوها يوم 28 جمادى الأولى وبقي السلطان فيها أسبوعاً تفقد خلاله الجيش الإسلامي والاستعدادات العسكرية، ثم غادر حلب يوم 4 جمادى الآخرة.[5]

ووصلت الجيوش إلى القلعة المنشودة يوم 8 جمادى الآخرة سنة 691هـ/ 1292م.

---

(1) الحموي : معجم البلدان، م4، ص 443 .

(2) اليونيني : ذيل مرآة الزمان، م5، ص 44-47 .

(3) المقريزي : السلوك، م1، ص 777 .

(4) الدواداري : كنز الدرر، م3، ص 323 .

(5) البرزالي : المقتفي ، م2 ، ص 278 .

وذكر اليونيني نقلاً عن الأمير أبي البيان نبأ المحفَّدار" أي المسئول عن المحفة التي يوضع عليها المريض"[4]* الذي كان هناك وشارك في المعارك أن السلطان نصب عليها:- 15 منجنيقاً من طراز: شيطاني .

- 4 منجنيقات من طراز: أفرنجي و قرابغا .

- ومنجنيقاً واحداً لصاحب حماة يُعرف بالمنصوري.[1]

وذكر المنصوري نقلاً عن والده أنه قد نُصبت هذه المنجنيقات على النحو التالي:

- منجنيق صاحب حماة على رأس الجبل المطل على القلعة، وقد نُصب بعد مشقة عظيمة وصار يرمي وسط القلعة.

- ومن جهة الفرات كان الأمير عز الدين الأفرم ومعه منجنيقان .

- ومن الشرق، حيث مُعسكر السُّلطان، منجنيق أفرنجي .

- وعلى جانب الفرات: الأمير بدر الدين بيسري ومعه منجنيق أفرنجي .

- ومن الغرب خمسة منجنيقات قرابغا وشيطانية .

- بينما بقيت البقية الباقية منها في الوادي .[2]

ويقول أبو الفداء الذي كان يقاتل في جيش حماة: «كانت منزلة الحمويين على رأس الجبل المطل على القلعة من شرقيّها ، وكنّا نشاهد أحوال أهلها ».[3]

وبعد حصار محكم ، ومعارك دامية ، كان للأسلحة الثقيلة الدور الحاسم فيها ، استسلمت القلعة بعد 33 يوماً من الحصار يوم 11 رجب 691 هـ /1292 م .

وكان للأمير علم الدين الشجاعي دور مهم في هذا الفتح العظيم. فقد عمل سلسلة ضخمة وشبكها في شراريف القلعة، وأوثق طرفها بالأرض، فصعد الجند عليها، وقاتلوا قتالاً شديداً.

وكان من طلع عليها الأمير سيف الدين آقبجا الذي وصل إلى سور القلعة، وقاتل وجُرح والسلطان ينظر إليه.

وقد حاول التتار التدخل لصالح الأرمن ، فهاجموا المسلمين بنحو عشرة آلاف رجل ، لكنهم أخفقوا وعادوا من حيث جاؤوا .

وذكر أبو الفداء: «أن خليفة الأرمن الملقب بـ كتياغيكوس، عندما عاين الهزيمة، اعتصم بالقلعة، فأمر السلطان بالرمي عليها، فاستسلم وقومه ورضوا بالأسر».[4]

---

(4) دهمان،محمد أحمد : معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، دمشق، دار الفكر، ط1، 1990 م، ص 136.

(1) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، م 5 ، ص 44 .

(2) الدواداري : كنز الدرر، م 8 ، ص 323 .

(3) أبو الفداء : المختصر ، م 7 ، ص 35 .

(4) المنصوري : زبدة الفكرة ، م9، ص 288 .

ويقول ابن العبري: " إن المسلمين قتلوا وسبوا وأسروا عدداً كبيراً من البنين والبنات وقبضوا على الجاثليق ورهبانه وذهبوا بهم إلى القدس يوم السبت 28 حزيران 1292 م وقضى الجاثليق نحبه فيما بعد في سجن دمشق وجعل الأرمن "سيس" مركزاً للجاثليق".[1]

وكلّف السلطان الأمير علم الدين سنجر الشجاعي بترميم القلعة والأسوار، فحصّنها ورممّها وعمر المدينة فصارت بحق قلعة المسلمين .[2]

ووصلت أخبار الانتصار إلى دمشق على جناح الطائر ضحى يوم الاثنين 13 رجب .

ثم وردت كتب الفتح في مستهلّ شعبان ، وقُرئت بمقصورة الخطابة في الجامع الأموي.[3]

وكانت خسائر الأرمن فادحة وأُسر منهم 1200 أسير، واستشهد من المسلمين خمسة، ودخل الملك الأشرف دمشق يوم الثلاثاء 19 شعبان دخول الفاتحين، واحتفل به أهلها احتفالاً لم يجر لأحدٍ قبله، وأمامه خليفة الأرمن الكتياغيكوس، وقد فرشت قطع الحرير تحت أقدام فرس السلطان.

ومدحه الشعراء بقصائد كثيرة دوّنها المؤرخون، وخلّدت هذا الفتح المبين.

وفي دمشق عزل السلطان واليها علم الدين سنجر الشجاعي وولّى بدلاً عنه عز الدين أيبك الحموي ودخل الشجاعي دمشق متوجهاً إلى قلعتها بعدما عمر ما تهدم منها، فساءه العزل.

ثم سافر السلطان إلى القاهرة سحر يوم الثلاثاء 10 شوال بعدما رسم لأهل الأسواق أن يخرج كل واحدٍ منهم وبيده شمعة موقودة عند ركوب السلطان ، فخرجوا بأجمعهم وزّينوا من باب النصر إلى مسجد القدم فعندما ركب السلطان أُشعلت تلك الشموع مرَّة واحدة ، فسار بينها حتى نزل مخيمه ووصل السلطان إلى القاهرة يوم الأربعاء 2 ذي القعدة 691 هـ / 1292 م ، ودخل من باب النصر متوجهاً إلى القلعة من باب زويلة ، وقد عُمل من الزينة والقلاع والقباب والتهاني شيء كثير ، وأُوقد من الشموع ما يجل عن الوصف ، فإن الناس احتفلوا لذلك احتفالاً عظيماً فاق جميع ما تقدم.[4]

9- تحرير بهنسا* و مرعش وتل حمدون :

وفي العام التالي ،في شهر رجب 692 هـ / 1293 م حضرت رسل الأرمن من لدن صاحب سيس ، العاصمة الجديدة للأرمن وبعد أخذ ورد تم الاتفاق على أن يُسلموا السلطان ثلاث قلاع من

- ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ، م 8 ، ص 136 .

(1) ابن العبري : تاريخ الزمان، ص 366 .

(2) أبو الفداء : المختصر ، م7 ، ص 35 .

(3) المنصوري : زبدة الفكرة ، م9، ص 88 .

(4) المقريزي : السلوك ، م1 ، ص 779 .

* - بهنسا : قلعة حصينة قرب مرعش و سميساط و رستاقها هو رستاق كيسوم، الحموي: معجم البلدان، ج1، ص516 .

أحسن حصون صاحب سيس هي بهنسا و مرعش وتل حمدون وكان ذلك تمام الفتح ، وتم في رجب 692 هـ / 1293 م .

وكانت بهنسا مدينة إسلامية ، سلّمها هولاكو إلى الأرمن ، فجعلوها رأس حربة لقتال المسلمين، كما تم تسليم الأمير طوغان، والي بّر دمشق الذي كان أسيراً لديهم.[1]

رابعاً- استشهاد الملك الأشرف:

وكانت هذه آخر أعمال الأشرف العسكرية تمهيداً للتوجه إلى العراق، لكنه قُتل قبل ذلك بطريقة مُروّعة من أقرب الناس إليه وممّن أحسن إليهم.

ذلك أنه في الثالث من المحرم سنة 693 هـ / 1294 م توجه الملك الأشرف من القاهرة إلى الإسكندرية في رحلة صيد، وصحبه حكومته وقادته وأمرائه .

فلما وصل إلى موقع الطرّانة، قرب الإسكندرية فارقه الوزير ابن السلعوس إلى الإسكندرية ، ونزل السلطان بالحمامات لأجل الصيد.[2]

وفي يوم السبت 12 محرم، قرب العصر، وبينما كان السلطان بأرض تروجة يصطاد وهو أعزل من السلاح والدروع، ومعه الأمير شهاب الدين الأشلّ أمير شكار* فقط، حضر عدد من الأمراء يتقدمهم بيدرا نائب السلطان، وحسام الدين لاجين فبادره بيدرا وضربه بالسيف فقطع يده وحلَّ كتفه، ثم جاء الأمير لاجين فضربه بالسيف حتى وقع أرضاً، ثم جاء الأمير بهادر رأس نوبة فمثّلَ بالسلطان بطريقة مأساوية، ثم توالى الآخرون فساهموا في قتله والتمثيل به، ثم تركوه في العراء والتفوا حول بيدرا الذي سمَّى نفسه الملك الأوحد، وهو في ذلك كان يقلّد الملك الظاهر عندما قتل سيده السلطان قطز.

وقد تم ذلك كله بسرعة فائقة حتى إن مماليك السلطان لم يشعروا به، وقد قُتل بيدرا ورفاقه التسعة شرَّ قتلةٍ على يد الأمير بدر الدين كتبغا.[3]

وبقي السلطان ملقى في تروجة إلى أن حضر والي تروجة بعد يومين ومعه أهل تروجة فأخذوه وغسّلوه و كفنّوه وجعلوه في تابوت في دار الوالي ، إلى أن سُيّر من القاهرة الأمير سعد الدين كوجبا الناصري فأخذه ووصل به إلى القاهرة سحر يوم الخميس 22 صفر 693 هـ / 1294 م حيث دُفن في التربة الأشرفية بجوار والدته وأخيه علاء الدين علي في السيدة نفيسة .

---

(1) الدواداري : كنز الدرر، م3 ، ص 340 .

(2) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ، م8 ، ص 155 .

*- أمير شكار : هو المسئول عن طيور السلطان المخصصة للصيد مثل الصقور والجوارح الأخرى - القلقشندي : صبح الأعشى، م4، ص 22 .

(3) اليونيني : ذيل مرآة الزمان، الأوراق 43- 52 وفيه أوسع المعلومات .

وقد رُثي بقصائد كثيرة مؤثرة وحزن المسلمون لفقده وعاد التتار إلى دمشق فاحتلوها، وكانوا يريدون الإجهاز على القاهرة ولكن الله سلَّم.[1]

المرحلة الثانية - مسيرة التحرير في عصر خلفاء الأشرف خليل:

أولاً – الملك العادل زين الدين كَتْبُغا:

حكم دولة المماليك بعد استشهاد الملك الأشرف، أخوه الناصر محمد الذي كان في العاشرة، وذلك في المحرم 693 هـ / 1293م.

ثم عزله كتبغا الذي تسلطن ولُقِّب بالعادل وحكم نحواً من سنتين بدءاً من المحرم 694 هـ / 1296 م،عُزل كتبغا بعد ذلك ، وحل محله حسام الدين لاجين نائب الشام ، الذي قُتل بدوره في ربيع الآخر سنة 698 هـ /1300 وعاد الملك مجدداً إلى الملك الناصر [2] الذي بقي في السلطة حتى سنة 741 هـ / 1340م.

وقد ذكر المنصوري في مستهل حوادث سنة 694 هـ - 1294م بأنه: «وردت الأخبار بأن البحر المالح، قد صار مجمعاً لسفن الأعداء وخيف على الثغور من أن يطرقها طارق، فنُدبت إلى ثغر الإسكندرية لحفظه، فتوجَّهت إليه، وحصل الاجتهاد في حفظ السواحل والموانئ، والاهتمام بالشواني، وتواترت الأخبار بأن على ظهر البحر سفن فرنجيَّة من الجنويَّة، يَخطفون المراكب الإسلامية، وقد فاجأنا وصول "غُراب" سفينة شراعية حربية يسابق بسيره السَّحاب ، فأخرجنا له الشواني، فطار في لجج البحار، ثم عاود الميناء، فأعملتُ الحيلة عليه ورميناه بالسهام ، فأعان الله على أخذه قهراً، والتمكن ممن كان فيه من الفرنج، وكان ممن قتل ريس الغراب المدعو "مانويل" وكان على التجار المسلمين والفرنج منه أعظم النصرَّة، فسُرَّ الناس بهلاكه، وأُرسل الأسرى إلى السلطان وعدتهم دون المائة نفس، ومنهم كبير من كبار جنوة اسمه : بندتوزكريا Bendettozacaria» [3]

وهذه الحادثة مع الفرنج كانت هي الحادثة الأولى والأخيرة في عصر السلطان العادل زين الدين كتبغا.

---

(1) المقريزي : خطط القاهرة ، م 3، ص 772 .

- البرزالي : المقتفي ، م 2، ص 347 .

- الدواداري : كنز الدرر، م 3 ،ص 345 .

(2) المنصوري : التحفة الملوكية، ص 136 ، 142 ، 147 ، 154 .

(3) المنصوري : التحفة الملوكيَّة، ص 142 .

ثانياً- السلطان حسام الدين لاجين:

أمَّا السلطان حسام الدين لاجين، وهو الذي شارك في تحرير " قلعة المسلمين" فقد كان يدرك تماماً الخطر الصليبي وخطر الأرمن، والتحالف الصليبي – المغولي، وكان يُصرّح دائماً بعزمه على توجيه ضربة قاضية للمغول ويخشى أن يُقتل قبل تحقيق هدفه .

وفي سنة 697 هـ/ 1298 م كانت الأحوال ملائمة في ذلك الوقت مما كان قائماً في تلك البلاد من الخلاف على وراثة العرش ،وفضلاً عن ذلك فإن غازان إيلخان المغول في فارس وحليف أرمينية كان مشغولاً بمحاربة أعدائه في الشرق، فقرر توجيه ضربة للأرمن حلفائهم وحلفاء الصليبيين. [1]

وقد تم ذلك في جمادى الأولى سنة 697 هـ / 1298 م عندما وجه السلطان الأمير بدر الدين بكتاش أمير سلاح ومعه ثلاثة أمراء و10,000 فارس إلى عاصمة الأرمن سيس لتحريرها، وكتب لنواب الشام في دمشق وصفد وحماة وطرابلس بالاستعداد لدعم جيش الأمير بكتاش،وقد دخل الجيش إلى دمشق في خامس جمادى الآخرة 697 هـ/ 1298 م وغادرها في ثامنه ومعه عسكر دمشق يقوده ثلاثة أمراء، ثم انضم إليهم عسكر صفد وحمص وبلاد الساحل وطرابلس وحماة، فأرسل صاحب سيس إلى السلطان يسأله العفو فلم يُجبهُ.[2]

ووصلت العساكر إلى حلب ، ووصل الأمير علم الدين سنجر الدواداري من القاهرة، وخرجوا من حلب وقد انضم إليهم عسكرها إلى سهل العمق، وهناك وضعت خطط الهجوم، فتوجَّه الأمير بدر الدين بكتاش في طائفة من العسكر من عقبة بغراس إلى اسكندرونة، نازلوا تل حمدون وقلعة حمُوص ومرعش.[3]

وفي رمضان 697 هـ/1298 ذفت البشائر بدمشق بأخذ قلعة مرعش الواقعة في الثغور بين الشام وبلاد الروم، وبعد أيام في 7 رمضان وصلت الأخبار بسقوط تل حمدون وأن المسلمين أذنوا به الظهر، وفي يوم 3 ذي القعدة، أُخذت قلعة حمّوص وهي من بلاد سيس وكانت للأرمن، جنوبي جيحان في الشمال السوري، وتوجَّه الملك المظفر صاحب حماة والأمير سنجر الدواداري والأمير آق سنقر في بقية الجيش إلى نهر جيحان ودخلوا جميعاً بلاد سيس وضربوا الحصار على قلعة نجيمة مدة 41 يوماً حتى سقطت في ذي القعدة وسقط معها أحد عشر حصناً للأرمن منها: النفير وحجر شعلان وسرفندكار وحُميص، وأرسل صاحب سيس مجدداً، يسأل العفو.[4]

---

(1) Muir; The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt p.50-

(2) المقريزي : السلوك ،م 1، ص 838 .

(3) البرزالي : المقتفي ،م2 ، ص 553 – 557 .

- ابن الجزري : تاريخ ابن الجزري ،م 2 ، ص 390 .

- Howorth ;History of the Mongols . vol lll , p. 431.

(4) المقريزي : السلوك ، م1 ، ص 841 .- المنصوري : مختار الأخبار، ص 106

وذكر أبو الفداء الذي حضر هذه الغزوة من أولها إلى آخرها أنه: «لما ملك "قسطنطين بن ليثون" على بلاد الأرمن، وشاهد انتشار عساكر المسلمين في بلاده مال إلى السلام والاستسلام، وأرسل إلى عساكر المسلمين أنه سينفذ كل ما يرسم به "ملك الإسلام" وأنه سيكون نائبه في بلاد الأرمن».

فتم الاتفاق معه على أن يتنازل عن البلاد والحصون الواقعة إلى الجنوب من نهر جيحان، فأجابهم على ذلك، وسلَّم جميع البلاد التي هي جنوبي النهر إلى المسلمين، وكان منها:

حمّوص أو حمص وتل حمدون وكويرا والنفير وحجر شعلان وسرفندكار وغيرها، وهذه جميعاً حصون منيعة لا ترام ، كما سلم غيرها من البلاد والتزم بدفع 500,000 درهم للسلطان كل سنة وكان تسليم حموص يوم الجمعة 19 شوال سنة 697 هـ/ 8 آب سنة 1298 م.

وسُلّم تل حمدون بعدها ، ثم سُلمت الحصون المذكورة وعُيّن الأمير سيف الدين أسندمر حاكماً عاماً على بلاد الأرمن وكانت عاصمته تل حمدون وأمر السلطان لاجين بعمارة تلك الحصون .

غير أن الأرمن ما لبثوا أن تنكروا لتلك الاتفاقية، وقد شجعهم على تغير موقفهم هذا غزو غازان محمود زعيم المغول بلاد الشام سنة 699 هـ / 1299م. وعندئذ اضطر المماليك إلى الانسحاب من المدن الأرمنية التي كانت في حوزتهم . ويقول أبو الفداء: «وكان هذا رأياً فاسداً، لأن الأرمن عادوا إلى تلك البلاد عند ظهور المغول واجتياح غازان لبلاد الشام».[1]

ثالثاً- السلطان الناصر محمد بن قلاوون:

وفي سنة 699 هـ/ 1299 م عندما وصل غازان بجموع المغول إلى الشام، طمع الأرمن في البلاد التي فتحها المسلمون، واستولوا عليها، فارتجعوا حموص وتل حمدون وكوبر وسرفندكار والنفير وغيرها، ولم يبق مع المسلمين من جميع تلك القلاع إلا قلعة حجر شعلان ، وسيطر الأرمن على جميع الحصون جنوب نهر جيحان – جيهان .[2]

ليس هذا فحسب، بل إن ملك الأرمن هيثوم بن ليفون سار مع غازان إلى دمشق وأحرق مع جنوده جامع العقيبة (النوبة) وعدة أماكن وحاصروا القلعة، وأسروا من الصالحية قرابة 4000 رجل وقتلوا نحو 300 رجل .[3]

---

(1) أبو الفداء : المختصر ،م 7، ص 43 و 45 .

- العمري : مسالك الأبصار ، م 27 ، ص 479 .

- المنصوري : مختار الأخبار ، ص 106 .

(2) جيحان : يخرج هذا النهر من آسيا الصغرى عند زبطره Zabatarah وتقع عليه مدينة المصيصة، ويصب في بحر الروم على مسافة قريبة منها .أنظر : ياقوت الحموي : معجم البلدان . وسرور : دولة بني قلاوون، ص 226. وانظر ;Le Strange - Palestine Under Moslems ,p.62.

(3) أبو الفداء : المختصر ، م7 ، ص 45 .

وبعد هزيمة المغول في معركة شقحب سنة 702 هـ / 1303 م عاد ملك الأرمن إلى دفع "الجزية " المفروضة عليه.

وفي سنة 705 هـ / 1306 م تأخر هيثوم ملك أرمينية في دفع الإتاوة، فأرسل إليه الناصر عسكراً من حلب عليهم سيف الدين قشتمر الشمسي، وأمراء حلب، فعرض عليه هيثوم مبلغاً من المال مقابل رجوعه عن بلاده فأبى ودخل بلاد سيس وشنّ الغارة على الأرمن، فتدخل المغول لنجدة حلفائهم وأسروا قادة الحملة الإسلامية، واوقعوا بهم الهزيمة. [1]

ولما علم الناصر محمد بتلك الهزيمة التي لحقت بجنوده في بلاد أرمينية، جهز جيشاً تحت قيادة بكتاش الفخري لإضعاف شوكة الأرمن وبسط سيادته على دولتهم، فخشي ملك الأرمن عاقبة هجوم هذا الجيش على بلاده، وكتب إلى نائب حلب يعرفه أن المغول وحدهم يتحملون تبعة محاربة جنوده وأرسل إليه هدايا ثمينة، كما وعده بأنه سيؤدي الإتاوة بانتظام، فكان ذلك سبباً كافياً لحمل الناصر محمد على أن يبعث في طلب الجيوش المصرية من بلاد أرمينية . [2]

رغم هذه الحملات التي أرسلها الناصر محمد إلى أرمينية، فإن نفوذ المماليك لم يتوطد فيها، وأصبح مظهر سيادتهم على هذه الدولة محصوراً في الإتاوة السنوية التي يدفعها ملك أرمينية لسلطان مصر.

1- معركة مجمع المروج*:

لا بد قبل الحديث عن معركة مجمع المروج و شقحب من الإشارة إلى غازان، سلطان التتار ومسعر تلك الحرب، وذلك لبيان أن حملات المغول على الشام لا تختلف عن الحملات الصليبية الأولى بشكل من الأشكال، لأن جميع هذه المعارك واحدة بأسماء متعددة هدفها الأول والأخير القضاء الكامل على العرب والمسلمين، ولم يعد هناك فرق في أن يأتي العدو من الشرق أو الغرب، طالما أن الجميع كانوا متحدين بالأهداف والأعمال ضد المسلمين، وبعبارة أدق ضد قاعدة المسلمين الأولى في مصر والشام : دولة المماليك .

وقد ذكر المؤرخون الغربيَون، أن التعاون المغولي – الصَّليبي في عصر غازان قد دخل مرحلة حاسمة، ذلك لأن إعلان إسلامه، لم يمنعه من وضع المخططات ضد المماليك، ويعدّ في ذلك من أنشط حكام المغول، وكانت المراسلات متبادلة بينه وبين البابا "بونيفاس الثامن"الذي أصبح البابا

- العمري : مسالك الأبصار ، م 27 ، ص 484 .

(1) المنصوري : زبدة الفكرة ، م9، ص 383 .

-- Howorth ;History of the Mongols . vol lll , p. 556.

(2) النويري : نهاية الأرب، ج 30،ص 24 .

- المقريزي : السلوك، ج2، ص 17 .

* - وادي مجمع المروج : شمال حمص قرب الرستن، ابن حبيب : تذكرة النبيه، ج1، ص 221 .

ما بين عامي 1303/1294م، وأظهر غازان رغبته في التحالف مع أوربا ضد المماليك، ودعاه إلى الاشتراك معه في حرب صليبية – مغولية ضد المماليك. [1]

وعندما احتل غازان دمشق سنة 699هـ/1300م أرسل إليه جميس الثامن، ملك انكلترا كتاباً عبر فيه عن شكره وسروره مما حصل، كما أعلن عن مساعدته له في كل ما يطلب، مقابل السماح للحجاج المسيحيين الأوربيين بزيارة الأراضي المقدسة.

ومن جهة أخرى أخذ "مارحيلاها" صاحب أذربيجان ، بطريق مُراغة، بمرافقة غازان في جميع تحركاته، وزاره غازان في مراغة*، وتلقى منه مجموعة من الهدايا.[2]

ويقول " برتولد شبولر": « إن علاقات غازان مع الغرب، لم تتأثر بإسلامه، فقد كان حريصاً على استمرار نشاط البعثات الدينية التبشيرية في بلاده، وقد نجح في إخفاء وضعه وأهدافه الحقيقية، حتى إن أحد المؤرخين وهو "هايتوفوس" ذكر في كتاب كتب سنة 699 هـ / 1300م أن غازان كان بطلاً عظيماً، عمل ضد مصر المسلمة، وعبر عن ثقته بأنَّ هذا الصديق المخلص للمسيحية سوف "يحرر بيت المقدس" ويعيده للمسيحيين».

ويقول المؤلف: «ونرى الفكرة نفسها في مخطوطة وجدت في كنيسة في روما». وقد طلب غازان من ملك الكرج وملك أرمينيا الاستعداد للحضور إليه، وكان في جيشه في معركة شقحب 30,000 من الكرج والأرمن، قاتلوا بضراوة وقتل معظمهم .[3]

وبعد معركة مجمع المروج وجَّه غازان رسالة إلى أهل دمشق كان مما جاء فيها: « ليعلم الأمراء وعموم عساكرنا المنصورة من المغول و التازيك " أهل فارس" والأرمن والكرج أننا لما سمعنا أنَّ حكام مصر والشام خارجون عن طريق الدين، ناقضون لعهودهم، ظالمون للرعيَّة، دفعتنا الحمية الدينية على أن توجَّهنا إلى تلك البلاد، ونذرنا على أنفسنا أن نقيم العدل والإحسان..... فسبيل القضاة والعلماء والمشايخ والشرفاء، الاستبشار بهذا النصر الهني، وأخذ الحظ الوافر من السرور».[4]

وقد ردَّ الناصر محمد على رسائل غازان، وكان مما جاء فيها : « لقد تحققنا أن الملك أمضى عامين يجمعُ النصارى والأرمن والكرج، ولمَّا عجز عن لقاء جيشنا، عاد إلى قول الزور، وتظاهر بدين الإسلام ».

---

(1) بدر، مصطفى : مغول إيران بين المسيحية والإسلام، القاهرة، د ،ت، ص 63 – 64 .

* - مراغة : بلدة مشهورة عظيمة من أعظم وأشهر بلاد أذربيجان، الحموي : معجم البلدان، ج5، ص 109 .

(2) بدر : مغول إيران، ص 59 – 61 .

(3) شبولر، برتولد : العالم الإسلامي في العصر المغولي، دار حسان، دمشق 1982م،ص 73 – 74 .

(4) المقريزي : السلوك، م1، ص 1012 .

ثم قال له : « وأمَّا قولك ومن معك، بأنك اعتقدت الإسلام قولاً وفعلاً، فإن الذي جرى بظاهر دمشق وجبل الصالحية لا يخفى عليك، وليس هذا فعل المسلمين ... وحرم بيت المقدس تُشرب فيه الخمور وتُفض البكور و يُقتل فيه المجاورون ... وفي الخليل تعلقُ الصلبان، وتهتك النسوان ويدخل فيه الكافر سكران... إن كنت مسلماً حقاً كما تقول، فاقتل القتلة في جيشك وأبعد عنه غير المسلمين، ولا تمنَّ علينا بإسلامك».[1]

ويقول ابن حجر العسقلاني: « إن غازان لمَّا أسلم قيل له : إن الإسلام يحرم الزواج بزوجة الأب - وكان متزوجاً بامرأة أبيه بلغان خاتون – وكانت أثيرةً لديه، فهمَّ أن يرتدَّ عن الإسلام، لولا أن أفتى له بعضهم بأن عقد أبيه عليها باطل وعقده هو الصحيح .

وعندما دخل غازان دمشق لم يُصلِ في جامعها ولا في غيره وإنما أقام في المرج، يعاقر الخمرة مع أصحابه».[2]

ويقول المؤرخ هوث:«إن غازان قد تظاهر بالإسلام بتأثير الحزب الإسلامي، وإنه كان يكره الإسلام والمسلمين ويقوم بجميع الأعمال التي توافق مصلحة أعدائهم».[3]

على كل حال، حدثت معركة مجمع المروج يوم الأربعاء 28 ربيع الأول 699هـ/ 1299م، وتواترت الأخبار من حلب بعزم غازان على دخول الشام، فرحل السلطان الناصر بالعساكر من القاهرة ، وغادر الريدانية شمالي القاهرة في اليوم الأول من محرَّم.

ودخل السلطان دمشق يوم 8 ربيع الأول 699هـ/ 1299م وغادر دمشق بالجيش يوم 17 ربيع الأول. ونزل على حمص، فعلم أن التتار قد نزلوا على سلميَّة.

وفي سحر يوم الأربعاء 28 ربيع الأول 699هـ / 1299م تحرك السلطان باتجاه التتار و التقاهم في مجمع المروج، الذي عرف فيما بعد بوادي الخزندار. وكانت عدة التتار 100,000 فارس، وعدة المسلمين 25,000 فارس.[4]

وكان في الميمنة الأمير عيسى بن مهنَّا وسائر العربان، ومعه الأمير بلبان الطباخي نائب حلب بعساكر حلب وحماة. وفي الميسرة الأمير بدر الدين بكتاش أمير سلاح وآخرون، وفي القلب الأمير سلاَّر، ووقف السلطان بعيداً، وتقدم الجيش 500 من رماة النفط "الزرَّاقين" ودار الأمير سلاَّر والعلماء على الجيش يحثّونهم على الثبات.

---

(1) المقريزي : السلوك، م1، ص 1018- 1023 .

(2) ابن حجر، أحمد بن علي : الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تح: محمد سيد جاد الحق، دار الكتب الحديث، القاهرة 1966م، 5 مجلدات، م3، ص 293 .

(3) بدر : مغول إيران، ص 98 . والمؤرخ هو هوث Hocyton .

(4) المقريزي : خطط القاهرة، م3، ص 464 .

وبقي غازان في مكانه ثابتاً لا يتحرك، وكان في مقدمته عشرة آلاف من رماة النشاب، وبدأ القتال وكان للسهام دور حاسم، وسقط الكثيرون عن خيولهم، فلاذ العرب المسلمين بالفرار وتبعتهم الميمنة فتمت هزيمتها .

وأما الميسرة فقد صدمت ميمنة غازان صدمة هائلة وهزمتها هزيمة منكرة، وقتل منها أكثر من 5000 من التتار، ولاذ غازان بالفرار، فثبَّته نائب دمشق المتعاون مع التتار " قبجق " الذي صدم القلب صدمة هائلة وولى سلاَّر ومن معه .

ووصلت الميسرة الإسلامية إلى حمص وهي مثقلة بالغنائم فما راعهم إلا هزيمة الميمنة والقلب، ووصل المنهزمون إلى حمص،ولم يتعقبهم غازان لخوفه من المفاجآت .

وكانت حصيلة المعركة سقوط نحو ألف شهيد من المماليك، ومصرع أكثر من 14,000 من جنود المغول، وصادر غازان الخزينة السلطانية بكاملها في حمص فتقوى بها هو وأصحابه.

ووصل المنهزمون إلى دمشق في أول ربيع الآخر، فكان لوصولهم هلع ويأس، وهرب كثيرون إلى مصر خوفاً من التتار الذين اندفعوا وراءهم مذعورين، ومات الناس على أبواب دمشق بالزحام، واخرج المسجونون في ذلك الوقت العصيب من سجونهم وقاموا بنهب الدور والناس مع العرب . ولم يبقَ في دمشق إلا العلماء ورجال الدين الذين شكلوا وفداً التقى غازان عند قرية النبك، وقدَّموا له الطعام فلم يلتفت إليه وقال: « قد بعثت إليكم بالأمان».[1]

ودخل غازان دمشق يوم الجمعة 10 ربيع الآخر 699 هـ/ 1300م وخُطب له في جامع دمشق، وظل الأمر على هذا الحال حتى يوم الجمعة 17 رجب سنة 699 هـ/ 1300م عندما خطب للملك الناصر بعد انقطاع دام مائة يوم، ولقب نفسه: السلطان مظفر الدين محمود غازان .[2]

وانطلق التتار في أحياء دمشق وغوطتها يقتلون ويهدمون ويحرقون ويغتصبون، وفرضت ضرائب على الأسواق وحُمل إلى خزانة غازان وحده حوالي 3،5 مليون درهم.[3]

كل ذلك وقلعة دمشق صامدة بوجه التتار ولم تستسلم، وما فعله غازان بدمشق مشهور ومتواتر.

ووصل التتار إلى الأغوار وبيسان ونهبوا كل تلك البلاد، وهتكوا الأعراض.

ثم أغاروا على القدس والخليل وأذلوا أهلهما، وكأنَّهم كانوا يثأرون للصليبيين. ووصلت غارة التتار إلى غزَّة ودخلوا الجامع الكبير وقتلوا فيه خمسة رجال ولم يرعوا حرمته.[4]

---

(1) المقريزي : السلوك، م1، ص882 - 888 – 889.

(2) العمري : مسالك الأبصار، م 27، ص 484 .

(3) البرزالي : المقتفي، م3، ص 30 .

- الصفدي : الوافي بالوفيات، م4، ص357.

(4) أبو الفداء : المختصر، م7، ص 52 .

ويقول الأمير بيبرس المنصوري: « وكنت يومها حاكماً لقلعة القاهرة، وعلمت بالهزيمة، فأشعت أن قد جاءتني بطائق النصر، وكتمت أخبار الكسرة وضربت البشائر بالقلعة».[1]

ويعزو المنصوري تحرك غازان نحو دمشق إلى التجاء نائب دمشق الأمير قبجق مع بكتمر السلحدار وفارس الدين ألبكي وسيف الدين الصالحي وغيرهم إلى بلاد التتار، وهو عين ما حدث في معركة حمص سنة 680 هـ/1281م عندما التجأ سنقر الأشقر إلى التتار وأغراهم بدولة المماليك.[2]

- دمشق بعد مجمع المروج:

ألزم الأمير آقوش الأفرم أهل دمشق بتعليق السلاح في الحوانيت وملازمة الرمي بالنشاب، ونودي بذلك.

كما ألزم قاضي القضاة "بدر الدين بن جماعة" فقهاء دمشق بذلك، وجلس للعرض العسكري في 21 ذي القعدة 699 هـ/ 1300م، وعرض "الكافة" وهم طائفة من الأشراف والفقهاء وأهل الأسواق، وقدم الأفرم على أهل الأسواق رجالاً تولى كل منهم سوقاً.

وعندما غادر غازان دمشق كان أهل دمشق في فقر مدقع لم يعرفوا له مثيلاً حتى أيام كتبغا نوين.

وقال الشيخ كمال الدين، ابن قاضي شهبة:

رمتنا صروف الدهر منها بسبعةٍ فما أحد منا من السبع سالمُ

غلاء وغازان وغزو وغلاءُ وغدر و إغبان وغم ملازم [3]

- تأديب أهل كسروان: وفي سنة 699 هـ/1300م وبعد هزيمة مجمع المروج، انقض "سكان الجبل" في لبنان، وهم سكان كسروان على العساكر الإسلامية المنسحبة من المعركة، وكانوا أشد فتكاً بهم من التتار.

وقد قصدهم الأمير جمال الدين آقوش الأفرم في عساكر الشام واستدعى عساكر الحصون الإسلامية وطرابلس، وحشد حشداً عظيماً وأحاط بجبالهم من كل جانب، فقتل منهم عدداً عظيماً وسُبيت نساؤهم وبيعت أولادهم وتشتتوا في البلدان، وأسكن من بقي منهم في مساكن التركمان.[4]

---

(1) المنصوري : مختار الأخبار، ص 111 .

(2) المنصوري : زبدة الفكرة، م9، ص 331 .

(3) المقريزي : السلوك، م1، ص894 .

(4) المنصوري : زبدة الفكرة، م9، ص 387 .

- الصفدي : الوافي بالوفيات، م4، ص 365 .

ويقول المقريزي: «إن الجيوش الإسلامية حاصرت أهل كسروان مدة ستة أيام وقاتلتهم قتالاً شديداً رغم صعوبة المرتقى وأرض المعارك وظلوا يقاتلونهم حتى نادوا بالأمان، فكفُّوا عن قتالهم واستدعوا مشايخهم وألزموهم بإحضار ما أُخذ من العسكر وقت الهزيمة فأحضروا من السلاح والقماش شيئاً كثيراً وقرر عليهم الأمير آقوش الأفرم مبلغ 100,000 درهم وأخذ عدداً من مشايخهم رهينة، وكان ذلك في ذي القعدة سنة 699 هـ/ 1300م».[1]

2- **تحرير أرواد**: المحرم 702هـ /1302م،

كانت أرواد آخر معقل للصليبيين في الشام كما كانت قاعدتهم التي يحاولون منها العودة إلى احتلال الشام.

وأرواد: جزيرة صغيرة أبعادها 750م x 450 م، وتبعد عن طرطوس 3،5 كيلومتر. واسمها الفينيقي أرفاد وتعني: الملجأ، ثم سماها اليونان أرادوس، وأطلق عليها الرومان اسم: مرفأ الأرجوان، ويعود تاريخها إلى الألف الثالثة قبل الميلاد.

في العصر البيزنطي أصبحت قاعدة بحرية مهمة للبيزنطيين، وقد فتحت على يد معاوية بن أبي سفيان سنة 28 هـ/ 650م، ورحل سكانها إلى قبرص، وفيها قلعة أثرية واسعة [2].

يقول أبو الفداء: «إنه اجتمع بها كثير من الفرنج وبنوا فيها سوراً وتحصنوا، وكانوا يقطعون الطريق على المسلمين». [3]

وكان نائب الساحل الأمير أسندمر الكرجي سأل إرسال أسطول إليها فعمرت الشواني وأنجزت في المحَّرم 702هـ/ 1303م وجُهزت بالمقاتلين والآلات وعين والي البهنسا الأمير جمال الدين آقوش العلائي قائداً عاماً للحملة. وقد أمر السلطان الناصر محمد بإستعراض الأسطول في نهر النيل ، ونزل السلطان والأمراء لمشاهدة العرض العسكري، واجتمع معهم عالم عظيم للغاية، وامتلأ البُّر من بولاق إلى دار الصناعة بالناس. ووقف العسكر على بر بستان الخشَّاب، وركب الأمراءُ "الحراريق" إلى الروضة، وبرزت الشواني تستعرض كأنها في الحرب، وأعجب الناس بذلك إعجاباً

---

(1) المقريزي : السلوك، م1، ص 903 .

(2) المعجم الجغرافي السوري، م1، ص 76 .

- الموسوعة العربية،م1، ص 972، وفيها أن الفتح كان سنة 45 هـ، وهو خطأ مؤكّد، لان ابن الأثير ذكر أن المسلمين فتحوا قبرص سنة 28 هـ /650م ولا يعقل أن يفتحوا قبرص ويتركوا أرواد وراءهم للبيزنطيين .

أما ما ذكره ابن الأثير في الكامل، من أن فتح أرواد كان سنة 54هـ فهو سهو منه صوابه "رودس " وليس أرواد . تعليق عبد السلام تدمري على ذلك في الكامل،م3، ص91 .

- وعن فتح قبرص : الكامل في التاريخ، م2، ص468 .

- ودائرة المعارف : فؤاد أفرم البستاني، م10، ص 449، وعنها أن معاوية فتحها سنة 28 ودمّرها، وعطّل ميناءها ثم جعلها تابعة لطرابلس .

(3) المختصر، م7، ص 57 .

كبيراً، لكثرت ما كان فيها من المقاتلين والنفط، وآلات الحرب. ثم تقدم المركب الرابع وفيه "قائد الأسطول" وآقوش المذكور، فلم يكد يتوسط النيل حتى مال وصار أعلاه أسفله وأنقذ جميع من فيه ماعدا قائده آقوش الذي لقي حتفه.[1]

فأُخرج السفن بعد ثلاثة أيام وأعيد تجهيزه ونُدب الأمير سيف الدين كهرداش الزرَّاق المنصوري للسفر عوضاً عن آقوش، فسار إلى طرابلس بالشواني، وانضم إليه ستون مقاتلاً من المماليك ما عدا البحرية والمتطوعة.[2]

وتوجَّه "كهرداش" إلى جزيرة أرواد، وهي بقرب طرطوس، وصحبهم في غفلة وقاتلهم ساعة، فنصره الله عليهم وقتل نحو الألفين وأسر 350 رجلاً، وغنموا مالا حصر له، وقد قسَّموا الخمس إلى السلطان وبقي لديهم 280 أسيراً، فدقت البشائر في القلعة في اليوم الذي قدم فيه الأمير بكتاش من غزوة سيس .

وذكر المقريزي: « أن التحرير كان يوم 28 صفر 702هـ / 1301م » .

في حين ذكر أبو الفداء: «أن ذلك كان في المحرم».

بينما ذكر المنصوري: «أن ذلك كان يوم الأربعاء 2 صفر».

وذكر العمري: «أن الفتح كان في صفر بعد حصار يوم واحدٍ».

أما اليونيني فقد ذكر: «أنها حررت يوم الأربعاء ثاني صفر، ووصل الخبر بفتوحها إلى دمشق يوم السبت رابع صفر، فدقت البشائر بدمشق ثلاثة أيام».

وفي يوم الاثنين 21 صفر وصل جماعة من الفرنج إلى دمشق ممن أُسر من الجزيرة وكانوا نحو 400 رجل على الجمال وفي السلاسل وعلى الخيل، وبيد بعضهم رماح عليها الرؤوس، وخرج الناس للفرجة كما جرت العادة، وسيَّروا أكثرهم إلى مصر، والباقي فرّقوا في قلاع الشام.[3]

خاتمة الحروب

3- **معركة شقحب**: السبت 2 رمضان 702 هـ/ 20 نيسان 1303 م .

لم يقنع "غازان" بانتصاره في مجمع المروج، فأراد تحقيق نصر حاسم يُنهي دولة المماليك إلى الأبد، وكانت الأوضاع في إجمالها ما تزال لصالحه، فالسلطان محمد ما يزال ضعيفاً فاقداً السلطة والخبرة، والأمر في الحكم لغيره وهو لم يتحرك من القاهرة، ولا تهمُّه الشام على حد قول أهل

---

(1) المقريزي : السلوك، م1، ص 928 .

(2) المنصوري : زبدة الفكرة، م9، ص 366، وكنز الدرر، م 9،ص 80 .

- المقريزي : السلوك، م1، ص 928 .

- العمري : مسالك الأبصار م 27، ص 491 .

- أبو الفداء : المختصر، م7، ص 57 .

(3) اليونيني : ذيل مرآة الزمان، صورة مخطوط في مكتبة أحمد الثالث بإستنبول، رقمه 2906 /3، الورقة 2 .

دمشق، والناس في الشام، وبخاصة في حلب ودمشق كانوا في حالة رهيبة من الهلع والقلق واليأس والخوف، لا سيما والأخبار ترد كل يوم بدخول التتار إلى الشام من هنا وهناك، ولذلك بدؤوا بالهروب إلى مصر، وهرب بعضهم إلى الحجاز واليمن .

وبينما الناس في هذا الوضع الرهيب وصلت الأخبار إلى دمشق في أول المحرم سنة 700 هـ/1300م بأن قائد التتار "قطلو شاه" يتحرك نحو الشام. وبعد أسبوعين وصلت الأخبار بأن غازان نفسه قد عبر الفرات وعسكر في موقع صفّين، ثم تقدم نحو حلب وعاث في الشمال فساداً ودخل المعرَّة وشيزر وأنطاكية وغيرها وأسر عدداً كبيراً من المسلمين وصار هؤلاء – رجالاً ونساءً – يُباعون في بلاد الأرمن بيع العبيد وبأسعار زهيدة، وقد اشترى ملك كيليكية عدداً كبيراً منهم.[1]

وفي جو الهزيمة الدامس الذي سيطر على الجميع في دمشق، تعرض جيش غازان لعواصف ثلجية لا مثيل لها حتى ماتت معظم جنوده وخيوله من شدة البرد، بحيث لم يبق معه من أصل الـ 12,000 فارس الذين عبر بهم إلا 2000 فارس، وعبر الفرات إلى بلاده في جُمادى الأولى سنة 700 هـ / كانون الثاني 1301م.[2]

وفي رجب سنة 702 هـ / شباط 1303م، تحرَّك غازان من تبريز ووصل إلى الرحبة على الفرات في شعبان، ومن هناك أرسل خطابات تهديد لأمراء الشام، وتوجه إلى حلب يوم 6 شعبان، ثم عاد فجأة إلى بلاده وعصر إلى قطلوشاه بقيادة الحملة وأقام في العراق يتابع أخبار جيشه الذي كان يناهز التسعين ألفاً، وكان الجيش الإسلامي مجتمعاً في حماة عند نائبها الملك العادل "كتبغا".

وقد عمد قطلو شاه، إلى إرسال 4000 من جنوده خلف خطوط المماليك، وقد احتلت هذه الفرقة قرية "القريتين"، فأرسل كتبغا 1500 جندياً فارساً مع أسندمُر الكرجي التقت التتار في موقع الكوم*، وبعد معركة حاسمة انتصر المماليك وأبادوا معظم الحملة وخلصوا منها 6000 من أسرى التركمان وأسروا 180 من المغول وكان ذلك بشارة مسبقة للنصر العظيم في شقحب وقد جرت هذه المعركة يوم 10 شعبان 702هـ/ 1303م.[3]

وكان أبو الفداء من ضمن العسكر فقال: «فأرسلوا جماعة إلى التتار الذين أغاروا على القريتين وجردوا من حملهم، فسرنا من حماة يوم السبت 7 شعبان وتواقعنا مع التتار في موقع "الكوم" يوم

---

(1) بدر : مغول إيران، ص 95 .

- العلبي : معارك المغول، ص 128 .

(2) المقريزي : السلوك، م 1، ص 909 .

* - موقع الكوم : حوضة في شمال شرقي الجبال التدمرية الشمالية، تتوسطها قرية الكوم، ناحية السخنة، منطقة تدمر، محافظة حمص – أنظر : المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري، م5، ص 99 .

(3) العمري : مسالك الأبصار، م27، ص 492 . - الصفدي : الوافي بالوفيات، م4، ص 360 .

السبت 10 شعبان 702 هـ / الموافق لآخر آذار1303م، وصبر الفريقان ثم نصر الله المسلمين وانهزم التتار ولاذوا بالفرار، ثم حُوصروا وقُتل معظمهم، ووصلنا حماة يوم 13 شعبان».[1]
وكان هذا النصر بارقة أمل وسط الإحباطات الكثيرة .

وقد عبَّر علماء الشام في رسالة إلى السلطان الناصر محمد في القاهرة عن حالة "الشارع الدمشقي" في ربيع سنة 702 هـ/ 1303م.

فقالوا: «في هذا العام جاء العدو من الشمال، فزاغت الأبصار، وبلغت القلوب الحناجر لعظم البلاء، ولا سيما عندما استفاض الخبر بانصراف العسكر إلى مصر وتوجّه العدو إلى دمشق، هذا يظن أنه لا يقف أمام المغول أحد من جند الشام، وهذا يظن أنَّ الشام ما عادت تسكن لأنها صارت للمغول، وهذا يظن أنهم يأخذون الشام، ثم يذهبون إلى مصر فيأخذونها، فُيحدث نفسه بالذهاب إلى اليمن، وأحسنُ الناس ظناً يقولون: إن المغول يملكون الشام هذا العام، ثم قد يخرج الجيش المصري فيعيدها منهم». [2]

ولذلك يُعد انتصار المسلمين في شقحب " فتح الفتوح " لأنَّ المغول لو انتصروا لتغيرت خارطة المشرق العربي الإسلامي ولعاد الصليبيون إلى الشام تمهيداً للخطوة النهائية وهي طرد المسلمين من مصر والشام أو إبادتهم، كما كان يجري في الأندلس في ذلك الوقت.[3]

- المعركة:

وصل غازان إلى الرحبة على الفرات في شعبان، ثم غادرها إلى حلب لكنَّه عاد فجأة إلى بلاده وعصر بقيادة الحملة إلى "قطلو شاه" وأقام في العراق يتابع أخبار جيشه الجرَّار الذي تراوح عدده بين 80,000 و90,000 مقاتل معظمهم من الفرسان، تقدم هذا الجيش نحو حماة ووصلها يوم 23 شعبان وانسحبت قوات حماة مع حاكمها الأمير زين الدين كتبغا قبل وصول التتار تنفيذاً للخطة التي وضعها حكام الشام فيما بينهم والتي تتلخص بالاجتماع في دمشق ومواجهة التتار في ضواحيها.

ويقول أبو الفداء، شاهد العيان»: سار زين الدين كتبغا في محفَّة من حماه وأخرني في حماة لكشف أخبار التتار، فلما شاهدتهم يوم الجمعة 23 شعبان لحقت به وأدركته في "القطيفة" وأعلمته الحال، وسارت العساكر الإسلامية إلى دمشق، واجتمعوا في مرج الزنبقية ظاهر دمشق، ثم ساروا إلى مرج الصُفَّر جنوب دمشق ينتظرون السلطان».[4]

---

(1) أبو الفداء : المختصر، م7، ص58 .

(2) عبد الهادي، محمد :العقود الدرّية،القاهرة، 1934م، ص 147 -150 .

(3) العلبي : معارك المغول، ص 131 .

(4) المختصر، م7، ص 58 .

وكان العسكر من التتار الذين هُزموا في القريتين أخبروا "قطلو شاه" أن السلطان لم يخرج من مصر وليس بالشام غير العسكر الشامي فجدَّ قطلو شاه حتى نزل على "قرون حماة ".[1]

أما السلطان فقد غادر القاهرة يوم 18 رجب 702 هـ / 1303م، وقد جدَّ في السير بعدما بلغته أخبار تحرك قطلو شاه نحو الجنوب، أما أهل دمشق، وقادة الجيوش الإسلامية فيها فكانوا غاية في القلق بالنسبة لأخبار السلطان والتتار، والإشاعات كثيرة، وعندما دخل عسكر الشمال إلى دمشق وتوجَّهوا نحو مرج الصُفَّر جنوباً ظن الناس في دمشق أنهم يهربون إلى مصر.

ودخل الأمير بيبرس الجاشنكير من مصر إلى الشام في نصف شعبان، وثَبت الناس ومنعهم من مغادرة المدينة. [2]

وعاش الناس في دمشق في قلق عظيم وكان يوم الخميس 30 شعبان، والجمعة أول رمضان من أصعب الأيام عليهم، فقد استيقظ الناس فلم يجدوا أثراً للجيش ووجدوا طلائع التتار في نواحي عدرا، وحاول العلماء تهدئة الناس وأمروا بإغلاق الأبواب ومنع الناس من الخروج، وعبر التتار من أطراف المدينة نحو الجنوب واجتمعوا في شقحب، بطرف مرج الصُفَّر جنوبي دمشق .

ويقول المؤرخ النويري:« وكنت يومذاك في دمشق، فخرجت منها والتحقت بالعسكر، ووجدت الناس قد ازدحموا على أبواب دمشق زحاماً شديداً وقد ذُهلوا عن أموالهم وأهلهم، وأقمنا بالمرج يوم الخميس ويوم الجمعة، فلما كان ليلة السبت ثاني رمضان علمنا بقرب العدو منَّا، فلم ننزل عن خيولنا. وفي صباح السبت أرسل الله مطراً غزيراً لمدة ساعتين، وعند الظهر أقبل التتار كقِطْع الليل المظلم وأقبل السلطان في ساعة واحدة. والتقى الأمراء بالسلطان عند عقبة "شحورا" – بين دمشق والكسوة – واتفقوا على لقاء التتار تحت جبل غباغب ووقف قطلوشاه في أعلى النهر وكانت المعركة في مرج الصُفَّر[3]».[4]

فوقف السلطان في القلب ومعه بيبرس الجاشنكير وسلاَّر، ووقف حسام الدين لاجين في الميمنة، والأمير سيف الدين قبجق بالعربان وعساكر حماة في الجناح الأيمن من الميمنة.[5] أما الميسرة فوقف فيها الأمير بدر الدين بكتاش الفخري وقرا سنقر وغيرهما.[6]

---

(1) العمري : مسالك الأبصار، م27، 430 .

(2) المقريزي : السلوك، م1، ص930 .

(3) حول دمشق مرجان مشهوران جرت فيهما معارك حاسمة، الأول وهو الأشهر : مرج راهط : شمال دمشق عند قرية عذراء، وكان يعرف بمرج عذراء، ومرج الصَّفر هذا يقع إلى الجنوب من دمشق - ياقوت الحموي : معجم البلدان، م5، ص118 . وتعليقات الشيخ محمد دهمان في كتاب إعلام الورى، محمد بن طولون، ص84 و148.

(4) المقريزي : السلوك، م1،ص 934، نقلاً عن نهاية الأرب للنويري المخطوط .

(5) المنصوري : زبدة الفكرة،م9، ص 375 .

(6) العلبي : معارك المغول، ص 138 .

وكان الخليفة والسلطان والأمراء يشجعون الجنود والقرَّاء يتلون آيات الجهاد والخليفة يقول : دافعوا عن حريمكم وعن دينكم ولا تدافعوا عن السلطان. وبدأت المعركة بعد ظهر السبت عندما هجمت جحافل التتار كالسيل، وكانت خطتهم توجيه ضربة قاضيةٍ إلى الميمنة وبعد ذلك ينهار القلب ومعه الميسرة كما حصل في مجمع المروج. لكن الذي حصل أن الميمنة ثبتت ثباتاً عظيماً، وقاتلت قتالاً شديداً وقتل قائدهم حسام الدين لاجين واستشهد من أفرادها قرابة ألف رجل، فأردفهم القلب والميسرة فانتظم أمر الجيش تماماً. (1)

ووقف الغلمان صفاً واحداً وراء العسكر وقيل لهم: إذا خرج من الجند أحدُ اقتلوه ولكم سلاحه وفرسه.(2) وكان جنود الميمنة لما قُتل قادتهم انهزموا، كما حصل في موقعة حمص سنة 680هـ/ 1281م فتبعهم المغول وهرب الناس وظنوها الهزيمة، وسرقوا الخزائن السلطانية ودخلوا دمشق فكادت العقول أن تطيش عند مشاهدة الهزيمة.(3)

اعتصم قطلو شاه بالجبل وفي ظنه أنه انتصر وأن قائده بولاي يتعقب المنهزمين من الميمنة، فما راعه إلا منظر الجيش الإسلامي وكتائبه ثابتة وأعلامه تخفق، وجاؤوا إليه ببعض الأسرى المسلمين، فأخبروه أن السلطان قد وصل وهو وجيشه في القلب والميمنة والميسرة على حالهما، وأن الذين انهزموا أفراداً معدودون، فهرب بولاي ومعه نحو من 20,000 رجل فكان ذلك بداية الخذلان، وحجز الليل بين الفريقين وعاد المنهزمون فوجاً بعد فوج، وأحاط المسلمون بالجبل .

وفي صباح الأحد كان قد أعيد تنظيم الجيش الإسلامي وجيش التتار، وجرى اللقاء الثاني وقاتل المسلمون بضراوة، فعاد التتار إلى الجبل فأدركهم العطش، فخرج لهم المسلمون فاندفعوا نحو النهر فسقطوا في مستنقع الوحل، فقتل منهم المسلمون مقتلة عظيمة ولاذ من بقي بالفرار، فتبعهم المسلمون إلى القريتين ووصلوا إلى الفرات .(4)

فلم يستطيعوا عبوره فساروا بمحاذاته إلى بغداد، فلم يصل منهم إلا القليل حيث فاجأهم العربان، وهم متخصصون في فن "تشليح" المنهزمين عرباً كانوا أو من المغول. وقاتل الأرمن و الكرج بضراوة شديدة، إلا أنَّ معظمهم لقي مصرعه، ولم ينجُ من الـ 30,000 منهم إلا 500 جندي فقط.(5)

أما المغول فقد عاد من كل عشرة منهم واحد أي أنه لم يعد من الستين ألفاً إلا ستة آلاف .

---

(1) المنصوري : مختار الأخبار، ص 123 . و زبدة الفكرة،م9، ص378 .

(2) العلبي : معارك المغول، ص 138 .

(3) المنصوري : مختار الأخبار، ص 123 .

(4) العمري : مسالك الأبصار، م27، ص 492 .

(5) بدر : مغول إيران، ص 118 .

وبعد المعركة خرج رجل يسمى "والي البرّ" فجمع شهداء المسلمين ودفنهم في موضع واحد، وبنى عليهم قبة. ووصلت أخبار النصر العظيم إلى دمشق، ودخل السلطان ونزل بالقصر الأبلق فخرجت دمشق لاستقباله عن بكرة أبيها، ولم يتخلف أحد حتى الصبيان والنسوان، وكانت فرحة لا يُمكن وصفها ولا يعرف قيمتها إلا من يئسوا من تحقيق أي نصر على مدى مئات السنين. سافر السلطان إلى القاهرة بعد العيد ودخلها يوم 23 شوال وخرج الناس إلى لقائه وأقيمت الزينات في أنحاء مصر.[1]

أما غازان فإنه بعد هذه الكسرة المهولة أرسل من بغداد إلى السلطان يقول:ما جئنا هذه المرة إلا للفرجةِ في الشام، فرد عليه الشاعر علاء الدين الوداعي وقال :

قولوا لغازان بأن جيوشه جاؤوا ففرَّجناهم بالشامِ

في سرحة المرج التي هاماتهم منثورها وشقائق الأجسامِ

ما كان أشأمها عليهم فُرجةً غمَّت، وأبركها على الإسلام [2]

ومن حسن حظ العرب والمسلمين أن غازان هذا، توفي في العام التالي سنة 703 هـ/ 1304 م وماتت معه مخططاته ودخلت العلاقات المغولية – المملوكية مرحلة جديدة من الود والتعاون والصفاء بدءاً من عصر أبي سعيد بن أولجايتو ابن عم غازان .[3]

الذي حسن إسلامه، وبقي الخطر الوحيد على المماليك هو المحاولات اليائسة للصليبيين للعودة .

4 - الصليبيون بعد طردهم من الساحل السوري:

لم ينقطع أمل الصليبيين بالعودة إلى المشرق حتى بعد طردهم من أرواد، وانهزام حلفائهم الأرمن والمغول، وقد رأوا العودة إلى أفكار لويس التاسع التي تتلخَّص بأنه ما دامت مصر قويَّة متعافية آمنة، فإن الأماكن المقدسة وبلاد الشام ستبقى قوية آمنة، أما إذا تم توجيه ضربة قاضية للمماليك في عقر دارهم في القاهرة والإسكندرية فإن دولتهم تنهار حالاً ويسهل احتلالها مثلما حدث يوم كان الفاطميون يحكمون مصر .

---

(1) المقريزي : السلوك،م1، ص 940 .

(2) الصفدي :الوافي بالوفيات، م4، ص 360 .

- وقوله منثورها، هو كناية عن زهر المنثور وشقائق النعمان .

(3) العلبي : معارك التتار، ص 145 .

- الدرر الكامنة،م 3، ص 294 .

ووصلت إلى القاهرة أخبار الاستعدادات الصليبية لغزو مصر عن طريق دمياط كما فعل لويس التاسع تماماً، فاقترح الأمير بيبرس الجاشنكير وكبار الأمراء إقامة جسر دفاعي من القاهرة إلى دمياط بطول 100 كم، وذلك خوفاً من دخول أساطيل الفرنجة إلى دمياط أيام فيضان النيل فيتعذّر الوصول إلى دمياط بالعساكر .

وكَلِّف بتنفيذ هذا العمل – الذي لم يسمع به الكثيرون – الأمير آقوش الرومي الحسامي، وكتب الأمراء إلى البلدان بخروج الرجال والأبقار ورُسم للولاة بمساعدة الأمير آقوش.[1]

وعندما وصل آقوش إلى فارسكور وجد الأمراء قد حضروا بالرجال والأبقار، فرتَّب الأمر على أن يعمل في بناء هذا الجسر 300 جرافة يجرها 600 رأس من البقر و 30,000 رجل .

وجدَّ الناس في العمل، واقتسم الأمراء العمل وانتهى في زمن قياسي هو أقرب إلى الخيال، انتهى العمل خلال شهر واحد فقط من قليوب إلى دمياط وهي مسافة يومين، وكان عرض الجسر أو الطريق التُّرابي المرتفع أربع قصبات من أعلاه وست قصبات من أسفله. [2]

ومشى عليه ستة فرسان بخيولهم صفاً واحداً، فعمَّ النفع به، وسلك عليه المسافرون بعدما كان يتعذر عليهم ذلك أيام الفيضان، ثم استقرَّ الرأي على بناء جسرٍ آخر في طريق الإسكندرية وأشرف عليه الأمير سيف الدين الجرمكي .[3]

أما في الجانب الآخر فإن الصليبيين لم ييأسوا من العودة إلى الشرق، ففي سنة691 هـ /1291 م أصدر راهب فرنسيسكاني يدعى "بادوا" كان سفيراً للبابا نقولا الرابع، كتاباً فيه تفصيلات كاملة عن حرب صليبية ناجحة.

وفي السنة التالية نشر الراهب "ثاديوس نابولي" تقريراً عن سقوط عكا حاول فيه إثارة الغرب وتدارك عار الهزيمة ثم تلاه " جلفانو ليفانتي " وهو جنوي كان طبيباً في البلاط البابوي، وأصدر سنة 693 هـ/ 1294م كتاباً عن حرب صليبية أخرى، وفي سنة 1295 م قام المبشّر الإسباني "ريمون" بتقديم مذكرة ضافية عن حرب صليبية.

ثم أصدر بعد عشر سنين كتاباً بعنوان: (Liber de Fine) دعا فيه جميع المسيحيين إلى الاتحاد للظفر بالمسلمين وبالكنائس الشرقية المنشقة عن روما، وإعداد حملة مسلحة يقودها ملك محارب تطرد المسلمين من إسبانيا وأفريقيا انتهاء بمصر.[4]

---

(1) سرور : دولة بني قلاوون، ص 244 .

(2) القصبة : تساوي 370 سم .

(3) الصالح، صبحي : النظم الإسلامية، دار العلم للملايين، بيروت، ط2، سنة 1968، ص 416

- المقريزي : خطط القاهرة، م3، ص 565 -566 .

(4) رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية، م 3،ص 723 .

ومن الأمور الغريبة أنه على الرغم من معرفة المماليك بتلك المؤامرات ضد المسلمين فإن السلطان الناصر محمد وصله وفد من الكرج الذين طالما حاربوه وانضموا إلى التتار وسألوه أن يعيد إليهم كنيسة لهم في القدس تدعى الكنيسة المصلَّبة، كان قد أستولى عليها المسلمون وجعلوها مسجداً بمئذنة فعرض السلطان الأمر على القضاة فأفتوا بإعادة الكنيسة إلى أصحابها فأعيدت إليهم سنة 705 هـ/ 1306م.

كما أوصى ريمون بقيام حملة بحرية تستولي على مالطة و رودس لتكونا قاعدتين للعمليات العسكرية، وذكر في كتابه تنظيم الجيش والأسطول والتموين والمبشّرين الذين سيرافقون الجيش .

ومؤلف الكتاب شديد الذكاء عظيم الخبرة شديد التعصب ضد المسلمين والمسيحيين المنشقين عن روما، وعندما ذاع كتابه تراءى للناس أن الحملات الصليبية ستقوم لا محالة، وتبنى البابا أفكاره وكذلك ملك فرنسا فيليب الرابع، ولكن شيئاً لم يحدث.

وذكر السفير البابوي "وليم آدم " أنه يجب أن يكون في المحيط الهندي أسطول للصليبيين يقطع تجارة المماليك مع الهند.

وفي سنة 707 هـ/1307م كان في آفنيون حيث مركز البابا الجديد ، مقدم الداوية ومقدم الإسبتارية، فطلب إليهم البابا تقديم خطط عملية للقيام بحملة صليبية جديدة فاقترحا احتلال الساحل السوري وفرض حصار اقتصادي على دولة المماليك.[1]

وقد ردَّ السلطان الناصر بإرسال حملة بحرية سنة 715 هـ/ 1315 م نحو ملطية في شمال سورية بقيادة نائب دمشق المشهور الأمير تنكز الناصري الذي فتح ملطية ونهبها، وبعد سنوات احتل بطرس الثاني صاحب قبرص مدينة الإسكندرية بجيش من قبرص وجنوة و رودس وفرنسا والبندقية ودخلوا المدينة وقتلوا كثيراً من أهلها من ضحوة يوم الجمعة 20 المحرم سنة 767 هـ/ 1364م إلى بكرة الأحد 22 محرم من نفس العام وخرجوا بالغنائم إلى مراكبهم، فرَّد السلطان على ذلك بالقبض على جميع من بديار مصر وبلاد الشام من الفرنج، وألزم البطريرك والنصارى بجمع المال لفكاك أسرى المسلمين وتتبع ديارات النصارى في مصر والشام، فاضطر بطرس الثاني إلى التراجع وأطلق من بيده من الأسرى والمنهوبات وعقد معاهدة سلام مع السلطان سنة763 هـ/ 1360 م . [2]

---

(1) رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية، م3، ص 725 - 728 .

(2) رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية، م3، ص 728 .

الفصل الرابع

مقومات ودعائم الاقتصاد المملوكي

أولاً - إدارة الاقتصاد في الدولة المملوكية :

1- موارد الدولة.

2- النقود والأوزان والمقاييس والمكاييل في عصر المماليك.

ثانياً- الزراعة .

ثالثاً- الصناعة.

رابعاً- التجارة :

1- التجارة الداخلية .

2- التجارة الخارجية :

أ- الرسوم التجارية .

ب- نشاط تجار الكارم ودورهم في دعم الاقتصاد المملوكي.

ج- التجارة مع الإمارات الإيطالية .

د- التجارة مع أفريقيا والشرق.

ه- الإتفاقات التجارية الخارجية لدولة المماليك .

و- العلاقات التجارية المملوكية - الأوربية وانعكاسها على الوضع السياسي.

ز- أبعاد الدور المملوكي في مواجهة القوة الصليبية اقتصادياً.

مقومات ودعائم الاقتصاد المملوكي

إن المعيار الحقيقي لقياس قوة أي دولة من الدول عبر العصور يرجع في الدرجة الأولى إلى مدى قوة هذه الدولة وإتساع نفوذها وثرائها المادي، ولذلك اعتنت الدول دائماً بوضع نظام اقتصادي دقيق يضمن لها التحكم في شتى أنحائها، وضمان موارد دائمة تساعدها في الحفاظ على قوتها.

ولذلك كان لابد من توضيح الدور الكبير والهام للوضع الاقتصادي لدولة المماليك، ومدى انعكاس هذا الدور على الانتصارات السياسية والعسكرية التي حققها المماليك، والتي توجت بطرد الصليبيين من مصر والشام بشكل نهائي.

وذلك من خلال العناية الفائقه التي أولاها سلاطين المماليك للنهوض بهذا الاقتصاد الذي منحهم استقراراً داخلياً، ومهابتاً في الخارج، ولقد ساعدهم على ذلك وكما سيرد في سياق هذا الفصل، قيام نشاط زراعي مزدهر بفضل العناية بمرافق الري، وثروة كبيرة من عائد تجارة المرور، ونظام اقتطاعي صارم يحكم المماليك، مما أدى إلى خلق الاستقرار الداخلي المتين.[1]

هذا بالإضافة إلى الحديث عن الصناعة والتجارة الداخلية والخارجية والاتفاقات التجارية لدولة المماليك، إضافة إلى العلاقات التجارية المملوكية الأوربية وانعكاسها على الوضع السياسي ، وغيرها من العناوين التي سترد بشكل مفصل ضمن الفصل .

أولاً- إدارة الاقتصاد في الدولة المملوكية:

1- موارد الدولة :

كانت إيرادات الدولة المملوكية على قسمين: القسم الأول الرسوم الشرعية، والقسم الثاني الرسوم غير الشرعية.

أ- **الرسوم الشرعية**: وهي على سبعة أنواع :

1- **مال الخراج**: وهو على الأراضي الزراعية التي بقيت بأيدي أهل الذمّة من اليهود والنصارى، وتدفع عيناً أو نقداً بحسب حال الأرض، وقد أورد القلقشندي تفصيلات وافية عن الرسوم الخراجية ومقدار ما يفرض على كل فدان بحسب نوع الزراعة، فمثلاً الرسوم على الفدان المزروع بالبصل والثوم ديناران والترمس 1.25 دينار، والكمون و الكراوية دينار واحد والبطيخ ثلاثة دنانير وقصب السكر خمسة دنانير وهو أعلاها . وهذه الرسوم تتغير بتغير الظروف والحكام.[2]

---

(1) قاسم، قاسم :عصر سلاطين المماليك، ط1، دار الشرق، القاهرة، 1994م، ص11 .

(2) القلقشندي : صبح الأعشى، م3، ص 520 .

2 - **مال المعادن** :

وهي ثلاثة معادن أساسية كانت في مصر في حقبة البحث، وكانت حكراً للسلطان يجمعها ويبيعها لحسابه ، وهي:

- **معدن الزمرد** : بالقرب من مدينة قوص، وقد كانوا يستخرجونه حتى آخر دولة الناصر محمد بن قلاوون .

وكان له مباشرون وأمناء من قبل السلطان يتولون استخراجه وتحصيله، ولهم رواتب على ذلك، ويجمعون ما تحصل منه في الأهراء السلطانية ويكون بتصرف السلطان.[1]

ويقال لهذا الحجر أيضاً زبرجد، وأصنافه في مصر ثلاثة : الأخضر شديد الخضرة، الأسود والأصفر، ويُعرف الجيد منه من غيره بطرحه في الماء، فإن أخذ الماء لون الزبرجد فهو جيد، وإلا فلا، وكذلك إن مُسح به على الدم السائل من البدن قطعه في الحال، وغيره لا يقطعه ولذلك يستخدم للعلاج من السم القاتل بعد طحنه وبلعه . [2]

وهناك مناجم أخرى للزمرد في بلدة "قفط " ومنها يحمل إلى الفسطاط، كما كان في جنوب أسوان جبل فيه معادن كثيرة منها الزمرد، ثم أُهمل لكثرة المصاريف وقلة الناتج . [3]

- **معدن الشبّ**: أفضله الأبيض شديد البياض شديد الحموضة، وينفع في المعالجات الطبية، فهو يقضي على القروح الخبيثة، ويقطع نزف الدم ويشدّ اللثة، وإذا طبخ مع الخل نفع في تسكين وجع الأسنان والحميَّات، كما أنه المادة الرئيسة في صنعة الصباغة، فإذا أراد الصَّباغون صبغ شيء من الثياب غمسوه في الشب أولاً، فإن الصبغ لا يفارقه أبداً.

ويستخرج الشب في مصر من بلاد الصعيد والواحات،وتأتي به العرب من مناجمه إلى ساحل قوص وساحل إخميم وساحل أسيوط والبهنسا، ثم يُحمل إلى الإسكندرية حيث يباع بواقع خمسة دنانير للقنطار، وكميته عندهم 5000 قنطار في السنة، ولا يُباع أو يُشترى إلا عن طريق الديوان السلطاني.[4]

وقيمة القنطار 70 درهماً فقط لعدم الحاجة الماسَّة إليه ومعظم إيراداته تنفق في الجهاد والغزو ، وهو من احتكارات السلاطين الخاصّة . [5]

- **معدن النطرون**: هو كربونات الصوديوم المتبلورة الطبيعية، ويُستخرج من بلدة "الطرانة " غرب البحيرة، من أرضٍ مساحتها مائة فدان فقط تغل نحو 100,000 دينار في السنة .

---

(1) سرور : دولة بني قلاوون، ص 307 .

(2) العمري : مسالك الأبصار، م 22، ص 258 .

(3) العمري : مسالك الأبصار، م22، ص 260 .

(4) القلقشندي : صبح الأعشى، م3، ص 527 .

(5) القلقشندي :صبح الأعشى، م3،ص 528 – 529 .

3- الزكاة:

كانت توزع على الفقراء بأيدي أصحابها، ولم يكن يدخل منها في واردات الدولة إلا نوعان :

- النوع الأول: هو ما يؤخذ من التجار المسلمين عند دخولهم بالبضائع إلى مصر والشام وهو 2.5% من قيمة هذه البضائع .

- النوع الثاني : ما يؤخذ من الرسوم عن مواشي أهل برقة من الغنم والإبل عند وصولهم إلى البحيرة بسبب المرعى .[1]

4- الجوالي =(الجزية):

وهي ما يؤخذ من اليهود والنصارى من أهل الذمَّة كل سنة، ولهذه الضريبة ديوان وموظفون ويقوم رجال الدين عندهم بمساعدة الديوان لمعرفتهم التامة بأحوال قومهم .

والجزية على ثلاثة أنواع (مستويات): عليا ومقدارها 4 دنانير في السنة، ووسطى ومقدارها ديناران في السنة، ودنيا ومقدارها دينار واحد في السنة .

ويعفى منها الأحبار والرهبان والنساء والأولاد والعجزة والفقراء والمنقطعون للعبادة حتى إن من يدفعها لا يتجاوزون ربع العدد الكلي لليهود والنصارى . وكانت (محصلة الجوالي) في مصر سنة 587هـ / 1196 م 130,000 ديناراً في السنة ثم انخفضت كثيراً لاسيما سنة 700 هـ / 1300 م لدخول أهل الذمة في الإسلام حتى إن متحصلها في ذلك العام انخفض إلى 11,000 دينار فقط .[2]

5- العشور:

وتؤخذ على بضائع غير المسلمين التي يقدمون بها إلى أراضي مصر والشام وهي العشر من قيمة البضائع. ويأتي تجار الفرنج ببضائعهم إلى ميناء الإسكندرية ودمياط، وبعد أن تحرر الساحل السوري صاروا يستخدمون موانئ اللاذقيةوطرابلس وصور وبيروت وعكا وغيرها، إلا أن الموانئ المصرية كانت الأشهر.

6- المواريث الحشرية :

هي مال من يموت ولا وارث له بوجهٍ من الوجوه، والمبدأ الشرعي في ذلك أن بيت المال يرث من لا وارث له.[3]

7- ما يُتحصل من دور الضرب :

وهي في مصر والشّام وهي تضرب الدنانير الذهبية والدراهم الفضيّة والفلوس النحاسية .[4]

---

(1) القلقشندي :صبح الأعشى، م3، ص 531 .

(2) المقريزي : خطط القاهرة ، م1، ص 288 .

(3) القلقشندي :صبح الأعشى،م3، ص 532 .

(4) القلقشندي :صبح الأعشى،م 3، ص 533 .

هذه هي موارد الدولة الشرعية .

ب- الرسوم الغير شرعية :

لجأ حكام المماليك إلى فرض ضرائب ورسوم مختلفة على أنشطة الدولة ، أطلق عليها مجازاً لقب "المكوس" وهي بلغة اليوم "الجمارك" والرسوم البلدية وما إليها.

وقد وصفها أحد الباحثين بقوله " ... وهذه الضريبة في عصر المماليك امتدت إلى أمور لم تكن موجودة قبلهم ، وشملت كل شي إلا الهواء الذي أخلى سبيله وحده وبقي حراً ". وهذه الضرائب كان لها أنواع كثيرة، وقدر مجموع الضرائب المحصلة من السفينة الواحدة عند دخولها ميناء الاسكندرية بحوالي أربعين ألف دينار، والصادر كان لا يختلف كثيراً عن الوارد ، ففي كل ثغر كان يدفع التجار ضريبة قدرها 15 بالمائة مقابل السماح لهم بالخروج، بالإضافة إلى رسوم أخرى تدفع مقابل الشحن، ويتضح رغم كل تلك الضرائب أن تجار الغرب كانوا أحسن حالاً من تجار الشرق الأقصى، وهذا لأن تجار الغرب كانوا يدفعون الرسوم الجمركية مرة واحدة ثم يحملون بضائعهم إلى بلادهم. أما تجار الشرق فقد كان مفروضاً عليهم دفع هذه الرسوم مرة ثانية في كل ميناء مملوكي ينزلون به في الطريق إلى بلادهم.[1]

وتلك الضرائب كان يتم تحصيلها من **خمس موانئ رئيسية هي**:

- **عَيْذاب**: وهو من أفضل الموانئ، يقصده التجار من جُدَّة وينزلون فيه بضائعهم التي تنقل إلى قوص ومنها إلى "فندق الكارم" بالفسطاط على نهر النيل، وكلمة فندق هنا تعني "الوكالة" بلغة اليوم .
- **القصير**: شمال عيذاب، وكان يقصدها التجار لقربها من قوص، ومنها إلى فندق الكارم بالفسطاط.
- **الطور** : تقع على بحر القلزم بجنوب غرب سيناء، وكانت تأتيه المراكب محملة بالبضائع من اليمن، وذلك بعد تحول السفن عن مينائي عيذاب والقصير منذ عام 780هـ / 1381م.
- **السويس**: وبالرغم من قرب مينائها من الفسطاط والقاهرة إلا أن أصحاب المراكب والتجار يفضلون الطُّور عليها.[2]
- **قطيا أو قطية**: وهي قرية في منتهى طريق التجارة البرّي من الشام والعراق، ومن أكثر المراكز متحصّلاً وهي أول الحدود بين مصر والشام.[3]

---

(1) البيومي، اسماعيل: النظم المالية في مصر والشام زمن سلاطين المماليك ، الهيئة المصرية للكتاب، فرع الصحافة ،1998م ،ص 186.

(2) القلقشندي: صبح الأعشى، م3، ص 537 .

(3) الحموي: معجم البلدان ، ج4 ، ص 429 .

أمّا عن أنواع المكوس التي كانت مفروضة على التجار فقد ذكرها المقريزي بالتفصيل التام، واحدة واحدة وهي أزيد من 70 نوعاً من الرسوم، وكان كل سلطان يفتح عصره بإسقاط المكوس، ثم لا تلبث أن تعود من جديد.[1]

وعندما ولي المنصور قلاوون الألفي أبطل زكاة الدولبة وأبطل ما كان يجبى من أهل الذمة وهو دينار كل سنة للإنفاق على الأجناد، وأبطل مقرر جباية الدينار من التجار عند سفر العسكر، وأبطل ما كان يجبى عند وفاء النيل مما يعمل به الطعام والحلوى في المقياس.

كما أبطل الملك الناصر عدداً كبيراً من المكوس في الروك الناصري.[2]

ومع ذلك بقيت بعض المظالم ومنها "ضمان المغاني" وهو رسم كانت تدفعه النساء البغايا إلى امرأة تسمى "الضامنة" وكان بمثابة "ترخيص رسمي" لها بممارسة البغاء علناً دون أن يجرؤ أحد في مصر على منعها أو إيذائها، وقد بقي هذا الرسم حتى عصر الظاهر برقوق.

ومن المكوس الأخرى ما كان يؤخذ من النساء عند الولادة أو الزفاف أو الحفلات الخاصة،وكانت "الضامنة " هي التي تأخذ ذلك.

وهناك "ضمان القراريط "كان يؤخذ ممن باع عقاراً بواقع 2% من قيمة العقار، وهناك عشرات المكوس الأخرى التي يصعب حصرها، والتي كانت إيراداتها اليومية أكثر من 70,000 درهم.[3]

وكما قال القلقشندي: «لقد عمّت البلوى بهذه المكوس، وخرجت في الزيادة عن الحد، ودخلت الشبهة في أموال الكثير من الناس بسببها». [4]

أما في دمشق فقد فرضت المكوس على ما ينتج في الغوطة من الحبوب والتبن، وعلى مصانع الورق ، والمدابغ ومعامل الصابون وعلى العقارات المؤجَّرة مثل الطواحين والدور والحمامات والحوانيت والأفران والفنادق. وكانت هذه الرسوم في ازدياد مستمر.[5]

2- النقود والأوزان والمقاييس والمكاييل في عصر المماليك :

أ- النقود المملوكيَّة :

لم يخرج المماليك عن خط ساداتهم الأيوبيين في التقسيمات الإداريَّة للدولة ولا في موضوع سككّ النقُود، فلقد سكوا النقود في عصر المظفر قطز على نسق النقود الأيوبية بترتيبها وشكلها ومأثوراتها. أما الملك الظاهر بيبرس، فقد اتخذ لنفسه نقوداً مختلفةً تتخذ شكلاً جديداً وتحمل شعاره

---

(1) المقريزي : خطط القاهرة ، م 1، ص 281 .

(2) المقريزي : خطط القاهرة ، م 1، ص 239 .

(3) المقريزي : خطط القاهرة ، م1،ص 286- 287.

(4) القلقشندي :صبح الأعشى، م3، ص 538 .

(5) المقريزي : خطط القاهرة ، م1، ص 288 .

الملكي وهو سبع يتجه نحو اليسار، وقد أضاف بيبرس اسم الخليفة العباسي في القاهرة لإضفاء الشرعية على حكمه وتقوية نفوذه أمام خشداشيته المماليك .

وكان وزن الدينار المملوكي غير ثابت ويتراوح بين 3 و 3،5 غرام، وتمتاز نقود المماليك الذهبية بوجود قطع لدينارين وثلاثة دنانير وأربعة دنانير وخمسة دنانير، وهو ما لم يكن معروفاً من قبل، حتى إنه وجد دينار زنته 85، 16 غراماً.[1]

1- **كان الدينار** في عصر المماليك هو وحدة النقد الأساسية وهو من الذهب، يليه الدرهم الفضي ثم الفلوس النحاسية المطبوعة وغير المطبوعة .

وكان الذهب يُجلب إلى مصر من التبر من بلاد التكرور وهذه البلاد تشمل (مالي وغانا وإقليم التكرور وإقليم كوكو) وغيرها، كما أن أحمد ابن طولون، على ما يروى، عثر في مدينة عين شمس بضواحي عاصمته القطائع على توابيت فيها كميات كبيرة من ذهب الأقدمين، وكان الذهب يستخرج من بلدة العلاقي جنوب أسوان بـــ 80كم ثم يمزج بالزئبق ويُجعل في سبائك.[2]

وكانت الدنانير تضرب في دار الضرب في القاهرة ودمشق وغيرهما، وكان يكتب على أحد وجهي الدينار عبارة "لا إله إلا الله" وعلى الوجه الآخر اسم السلطان الذي ضربت في عصره مع تاريخ الإصدار ومكانه، وسيرد في الملاحق صور للعملات التي كانت مستخدمة في ذلك الحين واختلافها. وكما سنرى فإن قيمة هذا الدينار بالنسبة إلى الدرهم غير ثابتة، وهذا الدينار يدعى بالمصري و باسم السلطان الذي أصدره.

وهناك الدنانير الفرنجية التي كان يصرفها التجار الأوربيون في مصر والشام، أو تدفع على شكل غرامة حربيّة، وكانت دون الدنانير المصرية وكان سعرها يعادل 19،5 قيراطاً من الدنانير المصرية، وكان عليها صورة الملك الذي أصدرها وصورة بطرس وبولس الحواريين، وتعرف أيضاً بالدنانير الإفرنجيَّة أو الفرنسية .

وكان إصدار النقد رمزاً وملازماً لشرعية السلطان، ولذلك كان أول ما يفعله السلطان عند تسلمه الحكم هو ضرب الدنانير والدراهم.[3]

ففي سنة 654هـ/1256م، أصدر المعز أيبك ديناراً باسمه واسم سيده الصالح نجم الدين أيوب. ثم أصدر ابنه علي ديناراً باسمه سنة 655 هـ/1257 م وسنة 657هـ/1258م، كما أصدر المظفر قطز سنة 658هـ/1259م ديناراً ولم يذكر فيه الخليفة العباسي لأن التتار سيطروا على بغداد وقضوا على الخلافة والخليفة .

---

(1) العش، أبو الفرج : محفوظات متحف دمشق، بحث منشور ضمن الندوة التاريخية الألفية، القاهرة 1969م، ج2، ص 961.

(2) القلقشندي : صبح الأعشى ، م3 ، ص 533 .

(3) سرور : دولة بني قلاوون ، ص 462 .

أما الملك الظاهر فقد أصدر دنانير مختلفة على مدى تسع سنين كان آخرها سنة 674هـ /1275 م[1] وكذلك فعل ابنه السعيد بركة سنة 676هـ/1277م وأخوه بدر الدين سلامش سنة 678هـ/1279م.

أما السلطان المنصور قلاوون، فقد أصدر دنانير في سنوات مختلفة مثل سنة 681هـ/ 1282م، 687هـ / 1288 م ، 688هـ/1289 م وفي متحف دمشق نماذج من هذه الدنانير.[2]

وأصدر الملك الأشرف خليل دنانير في كل سنة من سني حكمه الثلاث ضربت في دار الضرب في القاهرة.

وأصدر العادل كتبغا بدوره دنانير في سنة 694هـ / 1295 م والتي تليها، كما أصدر السلطان لاجين دينارة سنة 697هـ /1298م. أما الملك الناصر محمد فإن أقدم دينار عُثر عليه يحمل اسمه سنة يعود إلى سنة 698هـ / 1299 م أيام فترة حكمه الثانية وكان يومها في الرابعة عشرة، ثم توالت إصداراته حتى نهاية حكمه، وكان ثمة دينار يعرف بالدينار الجيشي كان يصرف خاصة لأجناد الجيش، ودينار آخر يعرف بالإفرنتي أو الفرنجي ويساوي 17 درهماً . [3]

2- **الدراهم**:

وهي من الفضة والنحاس، وسعر صرفها من 12 – 17 درهماً للدينار الذهبي الواحد، وهذا السعر غير ثابت. ومن الدراهم التي كانت رائجة في دولة المماليك الدراهم " الكاملية "التي ضربها الملك الكامل بن العادل سنة 622هـ/1224 م بعد أن ألغى دراهم الناصر صلاح الدين، عمَّه . وكان ثلثاها من الفضة والباقي من النحاس، وقد بقيت متداولة حتى سقوط دولة بني قلاوون وأحفاده وقيام السلطان برقوق. كما ضرب الظاهر دراهم " ظاهرية " بالنسبة نفسها، ووضع عليها شعاره واستمرت في التداول حتى رُفعت سنة 781 هـ / 1379م. [4]

وهناك الدرهم الأفرنتي وكل 12 – 13 منه تساوي ديناراً، وهناك الدراهم السوداء نسبة الفضة فيها 30% وكل 40 منها تساوي ديناراً. [5]

ويلاحظ عدم ثبات سعر الصرف للدرهم ، إذ يقول القلقشندي :« إنه على عصره سنة 790هـ / 1388 م كان الدينار يصرف بـ 20 درهماً، والإفرنجي بـ 17 درهماً وفي سنة 813 هـ /

---

(1) العش : أبحاث الندوة الدولية ،م2 ، 962 -963- 969 .

(2) المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي : شذور العقود في ذكر النقود، تح: محمد بحر العلوم، دار الزهراء بيروت 1988، ص 80 .

(3) أبو دمعة، أمين: الحياة الاقتصادية في بلاد الشام في العصر الأيوبي، رسالة ماجستير، جامعة دمشق 1988م ، ص225 – 226.

(4) المقريزي: شذور العقود، ص 80 .

(5) القلقشندي: صبح الأعشى ، م3 ، ص 533 .

1413م صار الدينار يصرف بـــ 28 درهماً وهناك الدراهم النَّقرة وهي التي ثلثاها فضة وثلثها نحاس وتطبع بدور الضرب السُّلطانية مثل الدنانير». [1]

وذكر الدمشقي أنه اشترى درهماً من طرابلس على أحد وجهيه صورة فارس كتب بجانبها: «من حفظ هذا الدرهم فهو كهذا الفارس وعلى الوجه الآخر صورة ثور كتب بجانبها - من أضاع هذا الدرهم فهو كهذا الثور». [2]

3- **الفلوس**:

هذه الفلوس، كانت من النحاس، وكان سعرها إلى الدينار يختلف من وقت إلى آخر، وإن كان السعر الثابت هو 48 فلساً للدرهم، وبالتالي فإن سعر الدينار الذهبي يساوي 576 فلسا".

وكان التعامل في هذه الفلوس بين التجار يتم بالوزن وكل 118 رطلاً من الفلوس ، كانت تساوي 24,000 فلساً.

ثم أخذت هذه الفلوس تضرب بصورة أصغر من الفلوس المعتادة حتى صار كل 111 رطلاً يساوي 24,000 فلساً. [3]

وأول من ضرب الفلوس بكثرة الملك الكامل الذي ضرب "الفلوس الكاملية" سنة 624هـ/ 1226 م وكان كل درهم يساوي 48 فلساً، وقد بقي الناس يتعاملون بها في شراء الحوائج البسيطة، لزمن طويل، وكانت تُحمل مع التجار إلى الحجاز واليمن. [4]

وقد ضربت سنة 705 هـ / 1305م فلوس كان سعر الرطل المصري منها يباع بـــ 2.5 درهم، وكان ثمة فلوس من نحاس مكسَّر من الأحمر والأصفر، وهي غير مطبوعة. [5]

ويوجد في متحف دمشق فلوس تعود لسنة 683 هـ/1284م وفلوس لسنة 685 هـ/ 1286م في عصر المنصور قلاوون، كما توجد فلوس أخرى لابنه الناصر محمد. [6]

وكان ثمة صرافون مهمتهم تسهيل الحوالات التجارية ، فكانوا يعطون زبائنهم "دفتر حسابات" بما لديهم من رصيد لهم، وعند شرائهم البضائع يقوم البائع بمطالبة الصراف بالدفع بعد أن يعلّم على دفتر الرصيد بالمبلغ المطلوب . [7]

---

(1) القلقشندي: صبح الأعشى، م 3 ، ص 509 .

(2) الدمشقي، جعفر : الإشارة إلى محاسن التجارة ، بيروت 1999 م ، ص 8 .

(3) القلقشندي : صبح الأعشى ، م3 ، ص 510 و 511 .

(4) سرور : دولة بني قلاوون ، ص 329 .

(5) المنصوري : زبدة الفكرة ،م9، ص 687 .

(6) القلقشندي : صبح الأعشى، م3 ، ص 511 .

- العش : أبحاث الندوة الدولية ، م2 ، ص 974 .

(7) سرور : دولة بني قلاوون ، ص 329 .

ب- الأوزان في دولة المماليك:

كان الدرهم وحدة الوزن السائدة ويعادل 3.2 غراماً، ونظراً لاختلاف الأوزان من بلد لآخر فإنّا سنذكرها في كل بلد.

1- **الأوقية**: في دمشق = 160 غراماً / في حمص = 211 غراماً /في حلب = 192 غراماً. في القدس = 213 غراماً /في حرَّان = 192 غراماً /في غزة = 192 غراماً . في القاهرة = 38.4 غراماً .[1]

2- **الرطل**: ويساوي 12 أوقية: في القاهرة = 460,8 غراماً/ في دمشق= 1920 غراماً /في حمص = 2532 غراماً . في حماة = 2112 غراماً / في حلب = 2304 غراماً /في القدس = 2556 غراماً .

في غزة = 2304 غراماً /في حرَّان = 2300 غراماً .[2]

3- **القنطار**: يساوي 100 رطل ، ويلاحظ اختلاف وزن الرطل الدمشقي الذي وصل حوالي 2650 غراماً ثم استقر على 2500 غراماً في الوقت الحاضر .

4- **المكوك**: وهو مكيال للحبوب يسع صاعاً ونصف الصاع، والصاع قدر نصف ويبة و الويبة ثلاث كيلات، ويساوي ربع إردب أو 62.3 كيلو غرام، علماً أن هذه المكاييل ليست ذات سعة واحدة في جميع أنحاء البلاد الإسلامية، ويستخدم في حمص وحماة وحلب، على اختلافات يسيرة في وزنه.[3]

5- **المنّ**: ويساوي 822 غراماً ويوزن فيه الطيب .

وكان في مصر "**دار العيار**" فيها تعيَّر الموازين وجميع الصنج ويتم ذلك بحضور المحتسب، فإذا لم يعجبه العيار أمر بإعادته .

ولم تكن الصنج والموازين و الأكيال تباع إلا في دار العيار ويحضر إليها جميع الباعة باستدعاء المحتسب لهم ، ومعهم موازينهم و صنجهم ومكاييلهم .[4]

ج- المكاييل:

المدّ : يتراوح بين 675 و 950 غراماً حسب البلد .

الصاع الدمشقي = 207 كغ .

---

(1) القلقشندي : صبح الأعشى ، م3 ، ص 511 . وفيه : الأوقية 12 درهماً والرطل 12 أوقية ، وهذا الرطل قريب من الرطل الإنكليزي .

- أبو دمعة : الحياة الاقتصادية ، ص 231 .

(2) القلقشندي : صبح الأعشى، م 3 ، ص 512 .

(3) أبو دمعة : الحياة الاقتصادية ، ص 232 .

(4) المقريزي : خطط القاهرة ، م 2 ، ص 518 .

الكيل = 401 كغ .

الكيلجة = 1.35 كغ .

الشنبل = 3.2 كغ .

المكوك الحلبي = 62.3 كغ .

القفيز = 48 كغ .

الغرارة الدمشقية = 187 كغ .

الويبة المصرية = 124.7 كغ .

الوَسَق = 165.2 كغ .

المدى = 935.7 كغ .

القدح المصري = 742.4 كغ .

الإردب = 71 كغ . [1]

وهذا كله إذا كان المكيلُ قمحاً .

د - المقاييس والأطوال :

الذراع الهاشمي = 66,5 سم. الذراع الهاشمي العتيق = 46.2 سم .

ذراع القماش = 61 سم. ذراع العمل = 70 سم .

الذراع البجَّاري الذي يستعمله النجَّارون وهو 72 سم .

الذراع = 32 إصبعاً . [2] القصبة الحاكمية = 370 سم .

القدم = 30.8 سم . الغَلْوَة = 184.8 م .

الميل = 1848 م . الفرسخ* = 5544 م .

البريد = 22 كم . الجريب = 1366 $م^2$= 10 قصبات مربعة .

القفيز = 88.7 $م^2$. العشير = 13.66 $م^2$.

الفدان = 400 قصبة حاكمية يعني 20*20*3.70= 5560 $م^2$.

الفدان الجيشي = 5929 $م^2$. الفدان الروماني = 4200 $م^2$.

القيراط = 16 قصبة . [1]

---

(1) أبو دمعة : الحياة الاقتصادية ، ص 236 .

- القلقشندي : صبح الأعشى ، م4 ، ص 188 و م 5 ، ص 512 .

- الصالح، صبحي : النظم الإسلامية ، منشورات الشريف الرضي، إيران 1996م، ص 420 .

(2) القلقشندي: صبح الأعشى، م3 ، ص 512

- المقريزي : الخطط المقريزية ، م1 ، ص 277 .

* - الفرسخ : ثلاثة أميال، والميل يساوي تقريباً 2كم ، القلقشندي : صبح الأعشى ج11، ص 366 .

- **ثانياً : الزراعة:**

اهتم سلاطين المماليك في مصر بالزراعة اهتماماً كبيراً ، حيث أن الزراعة في تلك العصور كانت الحرفة الأولى لغالبية السكان والمورد الأول الذي عاش عليه معظم الأهالي. إضافة إلى سعي المماليك إلى خلق نوع من الدخل من موارد هذه الزراعة يدعمون به سلطتهم في مواجهة الأخطار الداخلية والخارجية.

1- الأراضي وملكيتها:

كانت أراضي مصر في مرحلة الدراسة مقسمة إلى سبعة أقسام رئيسية :

أ- قسم خاص بالسلطان .

ب- قسم أُقطع للأمراء والأجناد .

ج- قسم خاص بالأوقاف الإسلامية وجهات البر وذريَّة الواقفين الأولين .

د- قسم يقال له: الأحباس، وهو أراضٍ أعطيت لرجالٍ ملكاً شخصياً أو مقابل قيامهم بخدمة زاوية أو مسجد .

ه- قسم صار ملكاً يباع ويشترى ويوهب .

و- قسم للمراعي .

ز- الأراضي القاحلة التي لا تزرع أو كانت عامرة ثم أهملت ففسدت وصارت غامرة (غير صالحة للزراعة) . [2]

وكانت الأراضي من القسم الأول والثاني مقسمةً إلى 24 قيراطاً :

- أربعة منها للسلطان .
- عشرة قراريط للأمراء .
- عشرة قراريط لأجناد الحلقة .

وكان السلاطين يمنحون الأمراء والأجناد "مثالات" بالقرى المخصصة لهم ويقومون كل حين بعمل "روك"* للأراضي بإعادة توزيعها على الأمراء والجنود، وقد قام السلطان حسام الدين لاجين بعمل مسح روك عُرف بالروك الحُسامي سنة 697هـ/ 1298م، كما قام السلطان الناصر محمد فيما بعد بعمل " الروك الناصري".[3]

---

(1) الصالح : النظم الإسلامية ، ص 416 .

(2) المقريزي: الخطط المقريزية ، م1 ، ص 261 .

* - الروك : كلمة قبطية تستخدم للدلالة على عملية مسح الأراضي الزراعية لتقدير الخراج المستحق لبيت المال،وكان الخراج هو المنبع الرئيسي لدخل الدولة ومنه تفرق أعطية الجند ورواتب الولاة وموظفي الدولة،المقريزي :المواعظ والاعتبار، ج1،ص87.

(3) المقريزي: السلوك ، م1 ، ص842 .

وقد قدرت مساحة أرض مصر المزروعة بصورة عامة بـــ 24,000,000 فدان، ومساحتها العامة 180 مليون فدان، ومساحة الفدان 400 قصبة حاكمية، ومزروعاتها القمح والشعير والفول والعدس والحمص والكتان والبصل والثوم والترمس و الزيتون .

أما الأصناف الصيفية فهي البطيخ بأنواعه، واللوبيا والسمسم والقطن وقصب السكر والقلقاس والباذنجان والفجل واللفت و النيلة والملفوف والخيار شنبر وغيرها.

بالإضافة إلى الكروم والتين والتفاح واللوز والخوخ والمشمش والنخيل و الموز والسدر(شجر النبق)، والورود مثل الياسمين والنرجس والريحان والفل[1]، ومن أعمال "**الإصلاح الزراعي**" في أيام الملك المنصور قلاوون ما كان من فتح قناة "الطيريَّة" في البحيرة فقد ذكر المؤرخون أن المنصور قلاوون الألفي قام في المحرم سنة 682هـــ /1283 م بالتوجّه إلى برّ الجيزة ومنها سار إلى البحيرة لحفر الخليج المعروف بالطيرية ومعه صاحب حماة ، وخرج مع السلطان معظم العسكر وبوشر العمل فيه، فجاء طوله 6500 قصبة حاكمية أي حوالي 23,400 متراً، أما عرضه فكان ثلاث قصبات وعمقه أربع قصبات، وقد فُرغ منه في عشرة أيام فقط، وعمل فيه السلطان وأولاده وضيوفه من دونهم وحصل بفضله نفع عظيم ورويت بسببه أراضٍ لم تكن تُروى من قبل، وهذه الترعة تخرج من النيل عند قرية الطيريّة، وإنجاز هذا العمل في وقت قياسي هو عشرة أيام، يدل على قوة الإرادة والإعداد والتنظيم في دولة المماليك، وقد كان لهذه الترعة فوائد جمة للفلاحين في مصر استمرت زمناً طويلاً. [2] هذا فيما يتعلق بأراضي مصر.

أما أراضي الشام فكان لها شأن آخر فقد كانت على أنواع هي :

- **أراضي الخراج** : وهي التي بقيت بأيدي أهلها النصارى منذ الفتح، ويدفعون عنها العشر، وهذه النسبة تزيد وتنقص بحسب الأحوال.

- **أراضي المُلك** : وهي الأراضي العائدة إلى المسلمين وهي ملك شخصي يباع ويورث ويدفعون عنه رسوماً تختلف باختلاف موقعها وما يزرع فيها وطريقة سقيها وما إلى ذلك .

- **الإقطاعات**: وهي التي أقطعها السلاطين والأمراء لقادتهم وهذه الأراضي يستغلها صاحب الإقطاع ويقدم وقت الحروب عدداً من المقاتلين المسلمين ينفق عليهم من حسابه، وهذه تعرف بالأراضي السلطانية.

- **أراضي الوقف**: وهذه كانت تشكل نسبة عالية من أراضي الشام لكثرة انتشار الأوقاف للإنفاق على المساجد والمدارس وغيرها وكانت هذه الأراضي تدفع الرسوم للدولة.

---

(1) المقريزي: السلوك ، م1 ، ص842 .

(2) المقريزي : الخطط المقريزية ، م1 ، ص 177 .

وكانت غوطة دمشق الشرقية في حقبة البحث تضم : 136 قرية هي ملك لأصحابها - 64 قرية سلطانية - 1600 مزرعة أو ضيعة ملك لأصحابها- 400 ضيعة سلطانية- وكان في الغوطة 5345 بستاناً و550 كرماً. [1]

2- المثالثات والمناصفات :

ومن الأمور الجديرة بالذكر ما كان يعرف بالمقاسمات و المثالثات و المناصفات في الزراعة وجني المحاصيل، وهو نظام جديد فرضته ظروف الحروب الصليبية على البلاد .

والأصل فيه أنه عندما كان الصليبيون يحتلُّون إحدى المدن ويكون المسلمون مسيطرين على مدينة أخرى قريبة منها تنشأ خلافات بين الرعاة والفلاحين لدى كل طائفة بسبب اتصال الأراضي وصعوبة تقسيمها، لذلك ارتأى الصليبيون والمسلمون تقسيم غلال الأراضي المحيطة بالمدن التي احتلّوها بينهم وبين المسلمين بنسب مختلفة .

فكانت المثالثات وهي تقسيم الغلة أثلاثاً، يأخذ هذا الفريق ثلثاً والآخر ثلثاً والثالث ثلثاً، أو يأخذ أحدهم الثلث والآخر الثلثين .

ومن أمثلة ذلك أن الصليبيين عندما احتلوا طرابلس اتفقوا مع حكام دمشق على أن تكون لهم ثلث غلَّة البقاع، وقُسمت أراضي جبل عوف في حوران أثلاثاً بين الأتابك طغتكين، و بلدوين الأول والفلاحين .

كما قسمت الأراضي المحيطة بمدينة بانياس في الجولان قسمين بين المسلمين والصليبيين. [2]

وعندما فتح نور الدين محمود الشهيد بانياس سنة 559 هـ /1164 م، تقاسم مع الفرنجة الأراضي التابعة لبانياس في سهل طبريَّا .

وفي سنة 524 هـ /1130 م كانت حلب تقاسم الصليبيين على غلاتها .

وقد اضطر الجميع مسلمين و صليبيين إلى الرضوخ لهذا الوضع الجديد وذلك لضمان تنقّل الفلاحين في أراضيهم وزراعتها وحصاد غلاتها، ولذلك كان الفلاحون من الفريقين يتنقلون بحريَّة تامة بين المدن والسهول بدون عوائق.[3]

وقد استمر هذا الأمر حتى تحرير الشام من الصليبيين وفي الهدنة التي أبرمها المنصور قلاوون مع حكام صور سنة 684 هـ / 1285 م، وجاء هنا ما يلي: «تكون القرى التابعة لصور من جملة المناصفات بمزارعها وحقولها وأراضيها وطواحينها وأنهارها وبساتينها ومتحصّلات

---

(1) ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق، م2، ص208.

- كرد علي : محمد : غوطة دمشق ، دمشق 1984 م ، ط 3 ، ص 91 .

(2) ابن القلانسي، أبو يعلى : تاريخ دمشق، تح: سهيل زكار، دمشق 1983 م ،طبعة دار حسَّان، ص 264 وص 143 .

(3) ابن القلانسي : تاريخ دمشق، ص 264 .

غلاتها مناصفة بين مولانا السلطان الملك المنصور وبين الملكة "دام مراريت" مالكة صور، بحيث تقسم جميع غلاتها بالسويَّة».[1]

وكان يباشر الإشراف على جمع الغلات من هذه القرى نواب السلطان ونواب الملكة بحيث لا يستأثر بها طرف دون طرف.[2]

وفي الإتفاقية مع عكا الموقعة سنة 682 هـ/1283م، نقرأ: « البلاد المشتركة التي تحصد مزروعاتها، أو تُجبى الرسوم منها ، توزع مثالثة مع السلطان وهي:

مدينة اسكندرونة وقراها، وقرية مارن وكرومها وبساتينها وحقولها تقسم مناصفة بين مملكة عكا ومولانا السلطان».[3]

ولم تكن هذه المناصفات للأراضي الزراعية فحسب، بل شملت بعض المدن، ولا سيَّما اللاذقية. فقد نصّت الهدنة الموقعة بين الإسبتار وطرابلس على أن يستقر نواب من الفريقين بمدينة اللاذقيةوميناءها لاستخراج الحقوق والجبايات والغلاّت وغيرها بطريق المناصفة ويستقر مقامهم بمدينة اللاذقيةعلى ما تضمنته الهدنة مع الملك الظاهر.[4]

3- نهر النيل: الوفاء والهبوط :

كان النيل هو أساس الحياة في مصر، وكان المصريون ومن قبلهم الفراعنة يحتفلون بوفاء النيل كل عام بطقوس معروفة، أمر الخليفة عمر بن الخطاب بإبطالها، واستعيض عنها بخروج حاكم مصر والأمراء والناس إلى المقياس والاحتفال بالوفاء بعرض للسفن في النيل.

وقد بنى العرب المسلمون مقاييس لنهر النيل، أشهرها مقياس الروضة الذي تم بناءه في العصر العباسي ،و يعرف منه كمية المياه الموجودة بالنهر.

ويبتدئ النيل بالزيادة من خامس شهر بؤونة – وهو(حزيران) - وأبيب - (تموز) - ومسرى - (آب)-، فإذا كانت السنة خصبة تستمر الزيادة في النهر طوال شهر توت – (أيلول) - وتستمر حتى شهر بابه –(تشرين الأول) – ويبلغ النيل اقل مستوى له في شهر أيار، وتكون مدة الزيادة حتى بداية التناقص 115 يوماً على وجه التقريب. فإذا انتهت الزيادة إلى 18 ذراعاً أي حوالي 11 متراً فُرض على الأراضي كلها كامل الخراج بدون نقصان، لأن هذا يعني أن كل من زرع قد ارتوت أرضه.[5]

---

(1) الشواف : عبد المعين : دمشق بين سقوط الفاطميين وظهور الأيوبيين ، رسالة دكتوراه ،منشورات جامعة دمشق 2008 م ، ص 80 و ص 134 .

(2) ابن عبد الظاهر : تشريف الأيام والعصور، ص 106 .

(3) ابن عبد الظاهر : تشريف الأيام والعصور ، ص 27 .

(4) النويري : نهاية الأرب ، م31 ، ص 76 .

(5) القلقشندي : صبح الأعشى ، م3 ، ص320 .

فإذا زاد ذراعاً عن ذلك تعطلت ربع أرض مصر عن الزراعة لكثرة المياه وتعطلت الزراعة . فإذا زاد عن ذلك فهو الفيضان والكوارث وانكسار السدود وانقطاع الطرق.[1]

وأفضل الزيادات وأنفعها عندما يصل النهر إلى 17 ذراعاً أما المتوسط العام الذي تروى به أراضي مصر فهو 16 ذراعاً وهو الوفاء، وينادى عليه في أنحاء مصر، وتكتب البشارات إلى جميع مدن المملكة ويتم فيه الاحتفال بكسر السدّ.

فإذا كان 15 ذراعاً، صلى الناس بمصر صلاة الاستسقاء وإذا لم يتجاوز 14 ذراعاً فهي الكارثة ويُسمي الناس بمصر الذراع الثالث عشر والرابع عشر بمنكرٍ ونكير لما يرتبط بهما من المجاعات والأوبئة والموت.[2]

ويصل النيل إلى أدنى مستوياته في شهر أيار حيث لا يتجاوز عمق الماء ثلاثة أذرع.

وذكر المقريزي:« أنَّه أُخذ قاع النيل يوم 17 جمادى الأولى سنة 687هـ / 1288م في عصر لاجين فكان 4 أذرع و26أصبعاً».[3]

وقد جرت عادته أنه من حين ابتداء زيادته في 27 حزيران إلى آخر تموز، تكون الزيادة خفيفة من أصبعين إلى عشرة فإذا دخل آب اشتدت زيادته وقويت فيزيد العشرة أصابع فما فوقها، وفي الأيام القريبة من الوفاء تكون الزيادة 70 أصبعاً في اليوم .[4]

وأقل ما وجد في النيل من الماء كان ذراعاً واحداً وعشرة أصابع وحصل ذلك مرتين في تاريخ مصر : الأولى: سنة 165 هـ / 781م ولم يوفّ النيل في تلك السنة بل توقف عند 14 ذراعاً ، والمرة الثانية: سنة 485 هـ/ 1092م وفي ذلك العام بلغ 17 ذراعاً، وأكبر زيادة بلغها النيل كانت عشرين ذراعاً أيام الخليفة عمر بن عبد العزيز.[5]

ويحدث أحياناً أن يتم الوفاء ثم يتراجع النهر في اليوم نفسه، فقد ذكر المقريزي: " في عصر السلطان كتبغا المنصوري بلغ النيل 16 ذراعاً و17 أصبعاً ثم هبط من ليلته ولم يَعُد فتزايد الغلاء واشتد البلاء ".[6]

هذا عن نهر النيل، وهناك كوارث طبيعية أخرى حصلت في مصر والشام كان لها تأثير سيء على الأوضاع الاقتصادية.

---

(1) المقريزي : الخطط المقريزية ، م1 ، ص 158 .

(2) القلقشندي : صبح الأعشى ، م3 ، ص 320 .

(3) السلوك ، م 1 ، 743 .

(4) القلقشندي : صبح الأعشى، م3 ، ص 321 وص 323 .

(5) العمري : مسالك الأبصار ، م2 ، ص 438 .

(6) السلوك ، م 1 ، ص 783 - 785 .

من ذلك أنه في العشر الأولى من شعبان سنة 682 هـ /1283 م وبينما كان السلطان قلاوون في دمشق حصل السيل العظيم وأخذ ما مرّ به من العمارات والآلات ما لا يُحصى وأغرق أمتعة العسكر الذين كانوا نازلين على ضفة نهر بردى في المرج .

4– الآفات و الكوارث:

أ- الزلازل والجراد والآفات:

في صفر سنة 692 هـ / 1293 م وقعت زلازل عظيمة في غزة والرملة واللد والكرك وتوالت معها الأمطار والسيول حتى خربت طواحين العوجاء وتكسَّرت أحجارها .

وزُلزلت البلاد الساحلية و انهدمت عدة أماكن ، وسيّر السلطان خليل من طرفه من أصلح ما تخرّب، كما حصلت سيول جارفة في بعلبك خرّبت كرومها ومزارعها ومساكنها وزادت الخسائر على 100,000 دينار . [1]

وفي شهر ربيع الأول 694 هـ / 1295 م وقع في مصر وباء عظيم ، وتزايد حتى كان يموت في اليوم الألوف ، ويبقى الميت مطروحاً في الأزقة والشوارع اليوم واليومين ولا يجد من يدفنه لانشغال كل واحد بشأنه. وفي شهر جمادى الأولى استسقى الناس بدمشق لتوقف نزول الغيث ، وخرج النائب و الحكام والناس مشاة، وتزايد الغلاء بمصر.[2]

وحدثت الكارثة العظمى 694- 695 هـ الموافق 1295 - 1296م في عصر العادل حين هبط النيل فجأة ولم يعد، وأجدبت الأرض وتزايد الغلاء والقحط وعمّ ممالك المشرق والمغرب والحجاز و بلاد برقه، وبلغ سعر الأردب من القمح بمصر 150 درهماً فضة، وتزايد موت الناس ووصل عدد من توفي في شهر ذي الحجة 17,500 ما عدا من لم يسجل اسمه في الديوان من الغرباء والفقراء، فلما اشتد الأمر، فرّق السلطان الفقراء على الأمراء بحسب حالهم.[3]

وفي أوائل سنة 695 هـ / 1296 م اشتد الغلاء وبلغ سعر الإردب من القمح في القاهرة 180 درهماً، والفول بنحو 90 درهماً، والترمس 60 درهماً بعدما كان بخمسة دراهم، ورطل الخبز بدرهم فضة، والفروج بعشرين درهماً، وبيعت بطيخة صيفية للمرضى بمائة درهم فضة، والسفرجلة بثلاثين درهماً يعني 2.5 ديناراً ذهبياً ورطل اللحم بسبعة دراهم، بينما لم يزد سعر إردب القمح في الصعيد الأعلى عن 75درهماً للإردب، وهلكت معظم الدواب واضطر الناس لأكل الميته.

وفي يوم عيد الفطر نقص النيل نقصاً كبيراً، ثم زاد، فتزايد السعر وساءت ظنون الناس، وتزايد الوباء بحيث صار يخرج كل يوم من أبواب القاهرة ما يزيد على 700 ميت، عدا عن

---

(1) المقريزي : السلوك ، م1 ، ص 808 .

(2) المقريزي : السلوك ، م1 ، ص810 .

(3) المقريزي : السلوك ، م 1 ، 743 .

الغرباء المطروحين في الأرض، واشتغل الناس بالقاهرة بتجهيز الموتى ودفنهم، ثم تزايد المرض فصار الميت يدفن بغير غسلٍ ولا كفن، ويقول المنصوري: «ولقد شاهدتُ الناس يبيعون لحم الميتة على باب القرَّاطين ورأيت أقواماً كلما رأوا ميتاً أكلوه».[1]

وتأخر المطر ببلاد الشام ودخل فصل الشتاء وهو 16 كانون الأول، ولم يقع المطر فتزايدت الأسعار في سائر البلاد وبلغ سعر غرارة القمح في دمشق 170 درهماً ، ثم حصلت صلاة الاستسقاء فوقع المطر والثلج سريعاً ونزلت الأسعار.[2]

وفي سنة 697 هـ / 1298 م ظهر بالديار المصرية أعداد كبيرة جداً من الفئران، وكانت تأتي على البلد فستهلك كامل زرعها ولا يُبقي سنبلة واحدة، وقد استمر الحال حتى فصل الخريف عندما فاض النيل وقضى على الفئران. [3]

وفي سنة 700 هـ / 1301 م أتى فناء شامل على معظم الأبقار بالديار المصرية، ولم يبقَ منها إلا اليسير، حتى وصلت قيمة البقرة إلى ألف درهم فضة، وتعطلت دواليب السواقي ومعاصر الأقصاب، واستعمل الناس الجمال والخيل في السواقي وارتفعت أسعار القند (عسل القصب إذا جمد)[4] وصار القنطار بعشرة دنانير.[5]

ويقول المقريزي: « إنه كان لرجلٍ من أهل أشموم طناح أكثر من ألف رأس من البقر مات منها 1003 رأس وبقي له 18 بقرة. وبلغ سعر الثور ألف درهم».[6]

وفي سنة 699هـ / 1300 م، كانت كارثة هزيمة مجمع المروج التي قصمت ظهر الدولة المملوكية، وكان ما أخذه غازان وحده 3.6 مليون درهم سوى ما أخذه هو وأتباعه من الخيول والسلاح و الثياب والجمال فخرج من دمشق و غوطتها أكثر من 20,000 رأس من الحيوانات .

وبعد رحيل التتار وما فعلوه بدمشق، عمد السلطان والأمراء إلى إجراءات اقتصادية قاسية لإصلاح ما أفسده التتار، وإعادة تجهيز الجيش .

---

(1) المنصوري : مختار الأخبار، ص 101 .

(2) المقريزي : السلوك، م1 ، ص 815.

- النويري : نهاية الأرب ، م31 ، ص 293.

- ابن الجزري : تاريخ حوادث الزمان ، م 3 ، ص 293 .

- العمري : مسالك الأبصار ، م 27 ، ص 475 .

(3) المنصوري : مختار الأخبار، ص 106 .

(4) إسماعيل، البيومي : النظم المالية في مصر والشام زمن سلاطين المماليك ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، فرع الصحافة ، القاهرة ، 1998، ص 402 .

(5) المنصوري : مختار الأخبار، ص 115 .

(6) المقريزي : السلوك،م1، ص 914 .

فأُخذت أجرة الأملاك والأوقاف كاملة عن أربعة شهور مُقدماً من مدينة دمشق وضواحيها وقراها . وأُخذت من الفلاحين 7 دراهم عن كل "مدّي " من الأرض وهو ما مساحته 40 ذراعاً مربعاً، وأُخذ من الأغنياء ثلث أموالهم وقطعت الأشجار المثمرة من الغوطة وبيعت حطباً، فخربت مناطق كثيرة من الغوطة وفرّ الناس إلى مصر واشتد الغلاء بدمشق حتى بيعت غرارة القمح بـــ 300 درهم، ورطل اللحم بـــ 9 دراهم .

كما أخذت من مصر الخيول من الوجه القبلي والبحري ، ووصل سعر الفرس إلى ألف درهم، وأخذت خيول الطواحين، وزاد الأمور تأزماً وصول المهاجرين من الشام إلى مصر حتى ضاقت بهم المساكن ونزلوا بالقرافة وحول جامع ابن طولون والحسينية ولم تخرج سنة 699 هـــ /1301م حتى كان الفقر قد أتى على الشام ومصر وكانت دمشق كميّت يمشي على قدميه.[1]

وتبع ذلك غارة الأمير سنقر الأشقر على الوجه القبلي حيث هزم العربان وصادرهم وأخذ سائر الخيول في بلادهم وأخذ الجمال وعاد إلى القاهرة ومعه 1060 فرس و6000 رأس من الغنم و870 جملاً.[2]

وفي ذي الحجة 702 هـــ /1303م، كانت الزلزلة العظمى التي بدأت يوم 23 ذي الحجة يوم الخميس عند صلاة الفجر حيث اهتزت الأرض وسُمع للحيطان قعقعة وأصوات شديدة، وصار الماشي يميل والراكب يسقط، فخرج الناس إلى الطرقات رجالاً ونساءً، واشتد الصراخ وعظم الضجيج والعويل وتساقطت الدور ومآذن الجوامع والمدارس، وخرجت ريح عاصفة وفاض النيل وقذفت السفن إلى الساحل.

ثم جاء اللصوص وأهل الدعارة ودخلوا الدور في غياب أهلها، وبات الناس في الخيام وتواترت الأخبار بانهدام قرية سخا بالكامل وانشطار منار الإسكندرية وسقوط 40 شرفة منه وقُذفت مراكب الفرنج على الساحل، وسقط السور، كما خربت قوص ودمنهور وغيرهما.

ثم جاءت الأخبار من دمشق والشام بالآثار المدمرة للزلزال [3]

5- **المحاصيل الزراعية**:

وكان في مدن الشام المختلفة عدد كبير من النباتات هي النباتات العطرية، والفواكه، والخضراوات والبقول والحبوب وهي نوعان: الزراعات وهي ما يُسقى والنباتات وهي ما يسقيها الله، ومنها النباتات العطرية وهي كثيرة جداً ولها استخدامات طبية منها: اليانسون،الآس، الأفيون

---

(1) السلوك، م1، ص 984 – 900 .

(2) المقريزي : السلوك، م1، ص 914 .

(3) المنصوري : مختار الأخبار، ص 132.

وهو عصارة الخشخاش، البابونج، البنفسج، البلوط، البيلسان، الترمس، التمر حنّة، الشونيز وهي الحبة السوداء، الحلبة، الخشخاش. [1]

الخروع، الدفلي، الرياس، الريحان، الزعفران، الزيزفون، الزعتر، الزعرور، السوس، السماق، القرطم وهو العصفر، الكراوية، الكمون، المحلب، النعناع، الورد، والياسمين.[2]

أ- الفواكه:

تعد دمشق من أغنى بلاد العالم في الفواكه من حيث الكمية والجودة والتنوع .

و ذُكر أن أحدهم زار الغوطة فوجد فيها شجرة تحمل المشمش والخوخ والتفاح والكمثرى ، كما وجد شجرة عنب تحمل العنب الأبيض والأحمر والأسود.[3]

وقال بنيامين الطليطلي الرحالة اليهودي:

« إنني لم أجد مثل فاكهة دمشق وأشجارها في العالم».[4]

ومن أشهر الفواكه :

- **العنب** : وله أكثر من خمسين نوع .

- **البطيخ الهندي**: الأخضر والداراني والروماني والعواميدي وهو المسمى بالنمس، وهناك أنواع أخرى من البطيخ الأخضر، أما الأصفر فكان يزرع في قرية الضمير قرب دمشق ولم يكن له مثيل في العالم وهو بطيخ مخطط مشوب بالحمرة والصفرة وهناك أنواع عديدة منه. [5]

- **السفرجل وأنواعه**: البرزي، نسبة لقرية برزة، والقصبي والسالمي والرقّي والعبّاسي والتفّاحي.

- **التين وأنواعه**: البري، المغربي، الماسوفي، الرومي، البعلبكي، كعب الغزال، والملكي.

- **العناب**: ينبت في بساتين دمشق المعروفة بالعنَّابة شمال مقابر الفراديس، ويصنع من العنّاب شراب نافع وقد انقرض في هذه الأيام.

- **التوت**: من أشهر فواكه دمشق وأفضله التوت الشامي ومن أنواعه الأخرى المحسني، البندقي، العجمي، والقرشي وغيرها. [6]

---

(1) ابن البيطار، ضياء الدين عبد الله المالكي الأندلسي : مختصر جامع ابن البيطار لمفردات الأدوية والأغذية المعروف بـــ تحفة ابن البيطار، دار ابن الهيثم، القاهرة 2006م ، ص 118 .

(2) شيخ الربوة ، محمد بن أبي طالب الدمشقي : نخبة الدهر ، بيروت 1988 م ، ص 266 .

- القزويني: عجائب المخلوقات ، بيروت دەت ، جزءان ، ج1 ، ص 161 .

- ابن البيطار : تحفة ابن البيطار، ص 118 .

(3) البدري، أبو النُّقاء : نزهة الأنام في محاسن الشام ، بيروت 1980 م ، ص 91 .

(4) الطليطلي، بنيامين: رحلة بنيامين، تر:عزرا حداد، تح : عبد الرحمن الشيخ، أبو ظبي، المجمع الثقافي 2002 م، ص 270.

(5) ابن الجوزي : مختصر لقط المنافع ، دار المأمون ، دمشق 1987 م ، ص 54 .

(6) القزويني : عجائب المخلوقات ، م1 ، ص 148 .

- ابن الجوزي : مختصر لقط المنافع ، ص 32 -35 .

- **الخوخ**: وهو المسمى البرقوق في مصر.

- **المشمش**: وهو من أشهر فواكه الشام، وقد ذكر المؤرخون 21 نوعاً من أنواع المشمش كانت في غوطة دمشق.[1]

- **الكمثرى**: ومنها 24 نوعاً .

- **التفاح** : أصنافه عديدة تزيد عن العشرة .

- **الجانرك**: وهو نبات يكاد ينحصر في دمشق وله أنواع عدة .

- **الرمان**: ويزرع في أراضي المزّاز جنوب دمشق وفي منطقة الشويكة في الغرب، وله بضعة أنواع أشهرها الشويكي.[2]

ب - الخضار و الحبوب: وهي كثيرة، ومنها الصيفي والشتوي وأشهرها :

القرع أو اليقطين، والكمأة والعدس واللوبيا والأرز والباذنجان والكرَّاث والهليون والخس والطرخون، والرجلة وهي الباقلاَّء، والهندباء والخيار والجزر والكرنب و الإسفاناخ أي السبانخ، والكرفس، والكسفرة – الكزبرة، والحمص والفول والبازلاء والسَّلجم وهو اللفت، والخرشوف والقمح والشعير والسمسم والشوندر وقصب السكر والزيتون واللوز والجوز والصنوبر والبندق والفستق الأخضر والقطن والذرة الشامية البيضاء والليمون .

وهناك خضار لم ترد في المصادر مثل البندورة والفراولة وغيرها، وهي خضار حديثة العصر بدمشق لم تَعُرف إلا في القرن التاسع عشر

وقد نقل الصليبيون إلى بلادهم عدداً كبيراً من هذه الزراعات مثل قصب السكر والليمون والبطيخ والمشمش الذي كان يعرف في فرنسا باسم : ثمر دمشق، والكمثرى والخوخ والذرة الشامية والسمسم و الخرنوب والأرز وغيرها . [3]

ثالثاً – الصناعة :

1- صناعة المنسوجات:

ازدهرت صناعة المنسوجات في دولة المماليك في عصر السلطان المنصور قلاوون ومن جاء بعده . وكانت لبعض المدن المصرية شهرة في نوع أو أكثر من الأقمشة، مثال ذلك: الثياب الشطويّة نسبة لمدينة شطا .

القماش الدبيقي نسبة لمدينة دبيق، وكذلك الحرير الدبيقي .

---

(1) ابن البيطار : تحفة ابن البيطار ، ص 237 .

(2) ابن البيطار : تحفة ابن البيطار ، ص208- 214 .

(3) جميعان، ميخائيل: المؤثرات الثقافية الشرقية على الحضارة الغربية، د، م، ت، ص176 .

الثياب المقصبة كانت تصنع في تنيس، وهي ثياب ملونة كانت لها شهرة عالمية، تصنع منها عمائم الرجال وألبسة النساء، وهناك القصب الأبيض من دمياط .

قماش "أبو قلمون" الذي يتغير لونه باختلاف الضوء.

واشتهرت الفسطاط أو كما كانوا يسمونها: مصر، بنوع رفيع من المنسوجات الحريرية تدعى: Fustian نسبة إليها . [1]

وكان يصنع في دمياط نوع من القماش اسمه "شرب " كان على درجة عالية من الإتقان .

وامتازت بلدة القيس بعمل المنسوجات الصوفية التي ليس لها نظير في مصر إلا في مدينة طحا.

أما الصناعات القطنية فكانت الشام هي المّبرزة فيها ولذلك كانت تصدرها إلى مصر وتستورد منها الكتان .

ومن الصناعات النسيجية الأخرى، صناعة المفروشات فقد مهر أهل دمياط بعمل الفرش القلمونية المطرزة والملوَّنة .

كما اشتهرت أسيوط بصناعة الفرش القرمزية والبهنسا اشتهرت بصناعة الستائر المنسوبة إليها. وفي دار الآثار العربية بالقاهرة نماذج من هذه المصنوعات.[2]

كما مهرت مصر بصناعة الخيام والفساطيط ولا تزال، وهي تصنع من الدبيقي والخسّرواني والبهنساوي، وعليها صور الوحوش والطيور، ومنها الخيام المنقوشة بالذهب والفضة والحرير .

كما كان لصناعة السروج شأن عظيم لشدة الحاجة إليها في العالم كله، وكانت تصنع بمهارة تامة في سوق الصاغة وسوق المرحّلين: وهو مماثل لسوق السروجية بدمشق [3]

وكانت السروج على أنواع بحسب حال من يشتريها: فالسروج السوداء: كانت للقضاة والعلماء. السروج الملونة : كانت للعامة والأجناد. السروج الساذجة غير الملونة: كانت للصوفيّة والزّهاد.[4]

2- صناعة السكر والمواد الغذائية:

كانت مصر والشام من المراكز المهمة لصناعة السّكر منذ القديم، ويقول المقريزي: «إنه كان بمدينة سمهود 17 معصرة لعصير القصب، وكان بمدينة ملَّوى عدة معاصر، وقد بلغ ما وُجد في مخازن أولاد فضيل في هذه البلدة 32,000 قنطار من القند، وكان للوزير علم الدين عبد الله خمس وعشرون معصرة وُجد بها من القند مالا يمكن وزنه».[5]

---

(1) سرور: دولة بني قلاوون، ص 295 .

(2) سرور: دولة بني قلاوون، ص 298 .

(3) ابن عساكر: تاريخ دمشق، م2، ص 295 .

(4) سرور: دولة بني قلاوون، ص 300 .

(5) المقريزي : خطط القاهرة ، م1، ص 554 .

وكان للقند دار خاصَّة بالفسطاط، وكان في دمشق مطابخ للسكر. [1]
وكان ينادى على قنطار السكر في سوق الحلاويين بـــ 170 درهماً . ويزداد استهلاك السكر في مواسم رجب وشعبان ورمضان، وكانت تصنع من السكر نماذج للحيوانات المختلفة تسمى "العلاليق "ترفع بخيوط على الحوانيت، منها ما يزن عشرة أرطال ومنها ما يزن ربع رطل، ويزداد الإقبال عليها في موسم نصف شعبان. [2]

ولم تكن أوربا قبل الحروب الصليبية تعرف السكر أو تستعمله، بل كانت تستخدم العسل وعصير الفواكه للتحلية، ولم تعرف السكر صناعة واستعمالاً إلا في المشرق الإسلامي .
وكانت الشام مثل مصر مشهورة بزراعة قصب السكر في الأغوار والساحل، وكان في دمشق وصور وغيرها ما يعرف بـــ:"مطبخ السكر" وقد بقي ذلك حتى أواخر العصر العثماني.
ولذلك شجع الصليبيون زراعة القصب،ثم نقلوها إلى بلادهم، وكانت صور هي المدينة الأولى في سورية بإنتاج السكر، وهو بطبيعة الحال سكر أسمر لزج. [3]

وقال وليم الصوري عن السكر: «إنه الإنتاج الثمين الضروري لفائدة الجنس البشري، ومعظم استهلاك أوربا من السكر كان من إنتاج مصر والشام،ولذلك شجعوا زراعة القصب في المدن التي يحتلونها ولا سيما صور،ثم تعلموا صناعته،وكان في عكا معصرة ضخمة للسكر، بالإضافة إلى عدة معاصر في مدن الساحل». [4]

وقد اشتهرت دمشق بعدد من الصناعات منذ القديم ولا تزال، ومن هذه الصناعات: صناعة قمر الدين من المشمش، وصناعة تجفيف التين والعنب والمشمش، وصناعة المربيات من الفواكه المختلفة، وكانت هذه الصناعات تصدر إلى مصر والحجاز والعراق وأوربا، وصناعة الألبان والأجبان والسمن والزبدة، حتى إنه كان بدمشق سوق للجبن، وصناعة النشا من القمح .

وكان بدمشق وضواحيها عدد كبير من المطاحن على نهر بردى وفروعه مثل طاحون الثقفيين بجانب القلعة، وطاحون السجن في سوق الصوف، وطاحون الإحدى عشرية في باب شرقي، وطاحون الأشنان و طاحون الأشعرية وغيرها. [5]
إضافة إلى عدد كبير من معاصر الزيتون والعنب والسمسم.

---

(1) مركز الوثائق التاريخية بدمشق: السجل 176، وثيقة 113 .
(2) المقريزي: خطط القاهرة ، م 3، ص 331 .
(3) زيتون، عادل: العلاقات الاقتصادية بين الشرق والغرب، دمشق 1980م، ص 173 .
(4) رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية، م2، ص 610 .
(5) ابن عساكر : تاريخ دمشق، م2، ص 249 .

3-صناعة الزجاج والخزف:

بلغت صناعة الزجاج والخزف في دولة المماليك درجة عالية من الجودة، وكانت مراكز صناعتهما في الفسطاط والفيوم والأشمونين والإسكندرية ودمشق وصور وغيرها.

وقد لقيت صناعة "المشكاوات" الزجاجية نجاحاً كبيراً لإقبال الناس عليها لإنارة مساجدهم ودورهم وقصورهم، وكان لها مراكز صناعية مهمة في مصر والشام .

والمشكاة وعاء زجاجي مزخرف وملوَّن توضع فيه المصابيح التي تتغذى بالزيت، وهي اليوم ما تزال موجودة في عدد من المساجد القديمة بعد ما صارت توضع فيها المصابيح الكهربائية، وفي دار الآثار العربية الإسلاميَّة في القاهرة نماذج عديدة، منها مشكاة من زجاج غير ملون، على عنقها زخارف وعليها كتابة حمراء نصها:« ممّا عمل برسم التربة المباركة السلطانية الملكية الأشرفية الصلاحيّة، تغمّد الله صاحبها بالرحمة والرضوان».

وكانت على تربة الملك الأشرف خليل بالسيدة نفيسة بالقاهرة .

ومشكاة أخرى مزخرفة وعليها رسوم متقنة للغاية صنعت للسلطان الناصر محمد. [1]

ومن الصناعات الزجاجية الأخرى صناعة الزجاج الملون، وصناعة المكعبات الزجاجية ذات السطح المذهب التي تُصدَّر إلى القسطنطينية لصنع الفسيفساء .

وصناعة البلور الصخري الذي يُستخرج من مناطق البحر الأحمر، وصناعة الخزف الصيني والفارسي[2].

وكانت صناعة الزجاج رائجة في الساحل السوري منذ عصر الفينيقيين. ومن المدن التي اشتهرت بصناعة الزجاج : صور وعكا والخليل وطبرية، وهي مع صناعة الأصبغة تكاد أن تكون حكراً على اليهود، وكانت تلقى إقبالاً شديداً من التجار الإيطاليين .[3]

وكانت مصر من المراكز الصناعية الهامة التي تصنع الخزف الملون في العالم الإسلامي والذي يشمل الفناجين والزبادي والقدور و الصحون والمواعين.

وكان الصناع ينقشون أسماءهم في أسفل الآنية، وهي مثل المشكاوات على بعضها أسماء السلاطين والأمراء الذين صنعت في عصرهم، كما يلاحظ "رنك" أي شعار الأمراء على تلك الصناعات. وفي متحف القاهرة نماذج منها.

وعلى الرغم من ازدهار هذه الصناعة، فإنهم كانوا يستوردون الأواني الصينية والهندية والفارسية.[1]

---

(1) سرور : دولة بني قلاوون، ص 311 .

(2) سرور : دولة بني قلاوون، ص 309 .

(3) زيتون : العلاقات الاقتصادية، ص 173 .

4- الصناعات المعدنية :

استعمل المصريون النحاس لصنع الثريات، وفي المتحف المصري واحدة من هذه الثريات تضم 255 قنديلاً، وعليها كتابة محفورة تبين أن صانعها أنجزها في 14 يوماً فقط،مما يدل على مدى التقدم الصناعي في دولة المماليك . [2]

كما كان يصنع من النحاس الأدوات المنزلية وأبواب القصور والمساجد، وفي متحف دار الآثار العربية في باب الخلق بالقاهرة باب ذو مصراعين مصفح بالنحاس وعليه زخارف عربية و صور الطيور والحيوانات، وعليه كتابة يُستدل منها أنه صُنع لأحد أمراء السلطان الملك المنصور قلاوون.[3]

ومن الصناعات النحاسية المهمة صناعة تطعيم النحاس بالفضة والذهب المعروفة بصناعة التكفيت.

وكما يقول المقريزي: «لا تكاد تخلو دار بالقاهرة ومصر من عدة قطع من النحاس المكفَّت، ولا بد أن يكون في جهاز العروس دكَّة نحاس مكفَّت و فوقها سبع طاسات من نحاس أصفر مكفت بالفضة تبلغ أكبرها ما يسع نحو الإردب من القمح، ومعها سبع أطباق مختلفة الأحجام، بعضها في جوف بعض وطول أحدها ذراعان أو أكثر وتبلغ قيمة الدكة من النحاس المكفَّت بالفضة أكثر من مائتي دينار، وتباع هذه الأواني النحاسية المطعمة في سوق الكفتيين بالقاهرة ». [4]

رابعاً - التجارة :

1- التجارة الداخلية :

أ- الطرق التجارية وتشجيع التجارة:

تمتلك مصر والشام موقعاً ممتازاً ونقطة وصل مهمة بين الشرق والغرب. وكان للمماليك سواحل واسعة تمتد من الإسكندرية حتى طرابلس الغرب والبحر الأحمر، ولذلك كانت معظم دول أوربا - ماعدا الباباوات - تتسابق لإبرام اتفاقيات تجارية مع المماليك .

وقد تعاظم هذا الدور بعد تصفية القواعد الصليبية في الشام وبروز دولة المماليك كقوة عظمى في العالم.

---

(1) سرور : دولة بني قلاوون، ص 314 .

(2) سرور : دولة بني قلاوون، ص 301 .

(3) سرور : دولة بني قلاوون، ص 302 .

(4) المقريزي : خطط القاهرة ، م3، ص 347 .

وكانت الإسكندرية تشكل سوقاً واسعة لتصريف منتجات الغرب، وكذلك مدن الشام الساحلية والداخلية التي كانت تكتظ ببضائع الشرق والغرب والمنتجات المحلية.

وقد وُضعت مؤلفات في التجارة والتدليس والغش لينتفع الجميع بها ولا سيَّما التجّار؛ من ذلك قولهم: اشترِ غالي الرخيص ولا تشترِ رخيص الغالي، وتفسير ذلك انه إذا كان متوسط ثمن سلعة ما ديناران، ثم رخصت وصارت بدينار فشراؤها محمود لأن الأمل بعودتها إلى سعرها الأول قوي، وأما الرخيص الغالي فإنه إذا ارتفع سعر سلعة ما من دينار إلى ثلاثة أو أربعة، ثم تراجع فلا يُحمد شراؤها .

ويجب على التاجر ألا يصدق قولاً لأحد من السماسرة ولا يقبل لهم نصحاً، لأن صناعتهم قائمة على الكذب.

وأصل التجارة أن يشتري التاجر من زاهد في بضاعته أو محتاج إلى ثمنها، وبيع من يرغب فيها بغض النظر عن ثمنها. ويجب على التاجر الاعتماد على المسامحة لأنها تنمي تجارته، ومن أقوالهم المأثورة في التجارة:«إذا شارك السلطان الرعيّة في متاجرهم هلكوا.... وإذا شاركت الرعية السلطان في حمل السلاح هلك».[1]

وكانت منتجات الشرق ترد إلى مصر من الصين والهند واليمن عبر البحر الأحمر مروراً بعدن وصولاً إلى ميناء عيذاب حيث تفرغ المراكب حمولتها من البضائع وتحملها على الجمال إلى مدينة قوص، ومن هناك تنقل على مراكب نيلية إلى القاهرة وبعضها ينقل عبر فرع رشيد إلى الإسكندرية.

وكانت عيذاب ميناءً جميلاً وهو المفضل عند أصحاب السفن التجارية، كما كانت الفسطاط من الموانئ الداخلية المهمة لتجارة البحر المتوسط والأحمر حتى صارت مجمعاً لتجارة الصين والهند واليمن وأوربا .

أما تجارة أوربا مع مصر فكانت عبر الإسكندرية أو دمياط حيث تُنقل البضائع مباشرة إلى القاهرة، وكانت الإسكندرية من أكبر الموانئ التجارية في عصر قلاوون وأسرته.[2]

هذا عن مصر، أما الشام وطرقها التجارية فقد كانت طرق التجارة الداخلية والدولية في الشام تمر من خمسة خطوط رئيسية هي:

1- خط أنطاكية – حلب – الرقة – الموصل – بغداد – البصرة

2- خط حلب – حماة - حمص – دمشق .

3- خط دمشق – فلسطين – العريش – القاهرة .

---

(1) الدمشقي : الإشارة إلى محاسن التجارة ، ص 66 وص 55.

(2) سرور : دولة بني قلاوون، ص 335 .

4- خط دمشق – الأردن – الحجاز – اليمن .

5- خط دمشق – عكا و دمشق – بيروت .

أما في مصر فكانت الخطوط التالية :

1- خط القاهرة – دمشق .

2- خط القاهرة – السويس – جدة – اليمن .

3- خط القاهرة – قوص – عيذاب – جدة – اليمن .

4- خط القاهرة – برقة – المغرب .

5- خط القاهرة – النوبة – أفريقيا. [1]

ب - المراسيم المشجعة للتجارة:

ومن الأمور اللافتة للنظر "المرسوم"* الذي وجهه المنصور قلاوون إلى التجار في ربيع الآخر سنة 687 هـ /1288 م الذي يدل على بعد نظره، وقد وجّه المرسوم إلى بلاد السند والهند والصين واليمن يرغبهم فيه بالحضور إلى الشام ومصر، ويُغريهم على ذلك بشتى السبل .

وقد اختير منه بعض الفقرات المهمة، التي تدل على عبقرية الملك المنصور الإدارية والتجارية: «إن بلادنا هي شامة الله في أرضه، فهي بلاد فسيحة رخيّة سخيّة، والمقيم فيها في ربيع دائم، وأمان شامل كامل..... ولقد عُمرت وأمنت بسيف الإسلام وجميع التجار لا يخشون فيها من يجور عليهم، فمن وقف على مرسومنا هذا من التجار المقيمين باليمن والهند والسند والصين وغيرها، فليأخذ الأهبة في الترحال إليها ليجد الفعال أكثر من المقال، وسيجد في بلادنا بلدةً طيبة ربها غفور فيعيش في سلامة النفس والمال والسعادة، ومن أحضر معه بضائع من بهار وأصنافٍ يحضرها تجّار الكارم – التوابل – فلا يخاف عليها. ومن أحضر من المماليك والجواري، فله في قيمتهم ما يُريد، لأنَّ رغبتنا مصروفة إلى تكثير الجنود، لأن للإسلام بهم اليوم أمسّ الحاجة، فكأنه يقاتل في سبيل الله . فليقدُم التجار علينا وليهاجروا إلى بلادنا ويغنموا أسباب الربح، والله حسبنا ونعم الوكيل». [2]

---

(1) جميعان، ميخائيل : المؤثرات الثقافية الشرقية على الحضارة الغربية، ص 165

* - المرسوم: جمع المرسوم أخذاً من قولهم ؛ رسمت له كذا إذا امتثله، أو من قولهم ؛ رسم على كذا إذا كتب، ويحتمل أن يكون منها جميعاً، وهو على المراسيم المكبرة، المراسيم التي تكتب بالولايات المراسيم الصغيرة - القلقشندي ؛ صبح الأعشى، ج11، ص 107 .

(2) ابن الفرات: تاريخ الدول والملوك، م8، ص 66 - 67.

كذلك كانت حكومة المماليك تعمل على استمالة التجار الأوربيين إلى مصر لما يعود عليها بالنفع من وراء متاجرهم، كالخشب الذي يستخدم في بناء الأساطيل، والجوخ والفراء الذي يستعمل بصفة خاصة في صنع خلع كبار الموظفين. [1]

وفي رسالة من الملك المنصور إلى ولده علاء الدين علي ما نصُه: «إذا ورد عليك تاجر من تجار المماليك، فليحذر التجَّار من بيع ما يصلح للسلطان إلى أي أمير كان، وعليك شراء ما يصلح للسلطان ودفع الثمن في الحال، وذلك لتشجيع تجَّار المماليك على القدوم إلى مصر».[2]

ج- الصادرات والواردات :

1- الصادرات :

أ- **المنسوجات القطنية والكتانية المصرية** :

كان لها شهرة واسعة في أوربا، ومثلها المنسوجات الصوفية والحريرية، وكانت هذه المنسوجات تباع في خانات وأسواق مشهورة في دمشق والقاهرة.

وكانت دمشق مركزاً مهماً لصناعة المنسوجات المختلفة، وكان في طرابلس 4000 إنسان يعملون في صناعة الحرير، كما كانت أوربا أكبر سوق للحرير الدمشقي والحرير الأبيض المصنوع في صور.[3]

- **البيلسان** : أو البلسان:

وهو الذي يزرع في مصر والشام وكان ملوك أوربا وأمراؤها يطلبونه باستمرار،لاعتقاد النصارى أنه لا يصح تعميد الإنسان بدون دهن البيلسان وتسميه العامة البلسم . [4]

ومن الصادرات الأخرى : التمور واللؤلؤ والعطور وغيرها بالإضافة إلى القند والسكر وزيت الزيتون والتوابل، والفواكه المجففة وأصناف العطارة والنباتات العطرية والطبية والصناعات الزجاجية والمعدنية مما سبق الحديث عنه [5]

2- البضائع المستوردة :

- **الخشب**: وهو السلعة الأساسية المستوردة إلى مصر، وهي شديدة الأهمية للصناعة والعمران في مصر ولا سيما صناعة السفن، ولذلك كان الباباوات يشدّدون على عدم تصديرها لمصر هي والحديد.

---

(1)- Hanotaux : Histoire , de ia .a llon Egyptienne (Wiet :Vol lV p.491

(2) ابن علي : الفضل المأثور، ص 134 .

(3) زيتون : العلاقات الاقتصادية، ص 171 .

(4) المقريزي : الخطط المقريزية، م1، ص 74 .

(5) العمري : مسالك الأبصار، م22، ص 246 .

- القلقشندي : صبح الأعشى، م3، ص 310 .

- **المعادن**: مثل الذهب والفضة والحديد والنحاس والرصاص .

- **الرقيق**: كان من أهم المستوردات إلى مصر، يأتي بها الإيطاليون من أواسط أوربا ومنطقة البحر الأسود، كما كان يأتي عن طريق الإمبراطورية البيزنطية، وقد نشطت هذه التجارة كثيراً في عصر السلطان قلاوون وأولاده .

- **المنسوجات الصوفية** : من الجوخ الأوربي، ولا سيما البندقي، وكان هذا الجوخ مرغوباً في مصر عند الأمراء والسلاطين لأنهم كانوا يتهادونه، ومما يلحقه : فراء السَّمُّور الذي كان يستورد من روسيا عبر البحر الأسود. (1)

3- **الخانات والفنادق والقيساريات والوكالات**:

الخان: كلمة فارسية بمعنى المكان المعد للإقامة .

الفندق: كلمة يونانية "باندكيون" وهو المكان المخصص للإقامة أيضاً .

القيسارية: بناء من عدة طوابق لعرض السلع التجارية فقط .

الوكالة : كلمة مرادفة لقيسارية .

وفي مصر يستعملون كلمة فندق أكثر من الخان بعكس الشام.

والخان المعدّ للإقامة ينزل فيه التجار وبضائعهم وحيواناتهم ومثله الفندق. وكانت خانات الفرنجة أو فنادقهم في مصر والشام تخضع لنظام دقيق ومراقبة دائمة خوفاً من تحركاتهم في المدينة وقت انشغال الناس بالصلاة أو في جوف الليل. ويطلق على الخانات والفنادق والقياسر أسماء بحسب ما يباع فيها: مثل خان الجبن وخان الزيت وخان الصابون ووكالة البلح وخان البطيخ، أو قد تحمل اسم بانيها مثل خان الخليلي وفندق طرنطاي وفندق جهاركس وفندق مسرور.

وهناك خانات مخصصة لإقامة الفقراء والمنقطعين وخانات مخصصة لإيواء الأنعام فقط، وأخرى مخصصة لخزن البضائع بدون نزلاء، وخانات مخصصة لبنات الهوى مثل خان الزنجاري بدمشق، وهناك الخانات على طريق المسافرين والتجار، وقد تحوَّل بعضها إلى مدن، ومن ذلك؛ خان يونس قرب غزة الذي بناه يونس الدوادار، وخان دنون جنوب دمشق، وخان القطيفة، وخان شيخون، وخان تدمر. (2)

أ- خانات دمشق وفنادقها:

خان البطيخ شمالي القلعة، وخان الدكة في الفسقار – سوق مدحت باشا اليوم لبيع الجواري، وقيسارية السلطان في سوق البزوريين، وخان سوق السلاح جنوب الصاغة، والقيسارية الفخرية جنوبي باب الجابية، وخان قصر حجّاج، و قيسارية الوزير في سوق البزوريين.

---

(1) زيتون : العلاقات الاقتصادية، ص 232 .

(2) العلبي : خطط دمشق، ص 469- 470 .

أما الفنادق فهي: فندق البيع، فندق الخشب، فندق ابن عنازة، وفندق درب اللبان.[1]

وقد وصف ابن جبير خان القطيفة شمالي دمشق فقال: «هو خان بناه صلاح الدين الأيوبي، وهو في نهاية الوثاقة والحسن، له باب حديد، شأنه شأن خانات البلد، وفيه ماء جارٍ يتسرب إلى سقاية وسط الخان، كأنها صهريج، ولها منافس ينصب منها الماء في ساقية صغيرة مستديرة حول الصهريج». [2]

ب- خانات القاهرة :

كما كان في القاهرة عدد من الفنادق أو الخانات التجارية لنزول التجار المسلمين فيها، ومن هذه الفنادق :

- **فندق مسرور** : بناه مسرور خادم السلطان الناصر صلاح الدين، وقال عنه المقريزي :« أدركت فندق مسرور الكبير وهو في غاية العمارة ينزله أعيان التجار الشاميين بتجارتهم، وهو من أجّل الخانات وأعظمها».

- **فندق بلال المغيثي** : أنشأه الطواشي بلال المغيثي من رجال الصالح نجم الدين أيوب، وقد قال السلطان قلاوون عن هذا الطواشي: «أنا كنت أحمل حذاء هذا الطواشي كلما دخل إلى السلطان الملك الصالح حتى يخرج من عنده»، وقد مات سنة 699هـ / 1300م.

- **فندق الصالح** : بناه الملك الصالح علاء الدين علي بن المنصور قلاوون سنة 679هـ /1280 م، بجانب باب زويلة وأنشأ فوقه رَبْعاً واسعاً.[3]

وقد بنى الصالح أيضاً "قيسارية" بشارع القاهرة بجوار قيساريَّة جهاركس، وصارت من ضمن أوقاف الملك الناصر محمد.[4]

- **وكالة قوصون**: كان ينزل بها التجار ببضائع الشام من الزيت و السيرج والصابون والدبس والفستق والجوز واللوز والمربيات، وتقع هذه الوكالة بين جامع الحاكم ودار سعيد السعداء، وتعرف بوكالة الصابون.

وذكر المقريزي: «أن بهذه الوكالة 360 غرفة، ينزل فيها أكثر من 4000 رجل، أدركناها عامرة، جدَّدها الأمير قوصون فعُرفت به».

- **دار التفَّاح**: هي فندق تجاه باب زويلة، ترد إليه الفواكه من بساتين القاهرة، بالإضافة إلى التفاح والكمثرى والسفرجل الواصل من الشام، ومنها توزع الفواكه على أسواق القاهرة .[5]

---

(1) ابن عساكر : تاريخ دمشق ، م 2، ص 303 و 305 .

(2) ابن جبير : رحلة ابن جبير، ص 233 .

(3) المقريزي : خطط القاهرة ، م 3، ص 305 و 307 .

(4) خطط القاهرة ، م 3، ص 288 .

(5) خطط القاهرة ، م1، ص 310.

- **فندق طرنطاي**: بناه الأمير طرنطاي المشهور، الذي قتله الأشرف خارج باب البحر، وكان ينزل فيه تجار الزيت القادمون من الشام.

- **قيسارية جهاركس**: بناه الأمير فخر الدين جهاركس سنة 592هـ/ 1196م، ثم اشترتها شجر الدر سنة 655هـ / 1257م، وهي من أعظم القيساريات في العالم .

- **قيسارية الشرب**: تجاه قيسارية جهاركس، كانت وقفاً على خانقاه سعيد السعداء، وكانت من أعمر أسواق القاهرة .

- **قيسارية الفاضل**: بناها القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني، يراها الداخل إلى القاهرة من باب زويلة، ثم صارت وقفاً على البيمارستان المنصوري، وبقيت حتى القرن التاسع .

- **قيسارية سنقر الأشقر**: على يسار الداخل من باب زويلة، أنشأها الأمير سنقر الأشقر الصالحي النجمي .

- **قيسارية بيبرس الجاشنكير**: بناها الأمير بيبرس الجاشنكير المنصوري وألزم التجار بالانتقال إليها .

- **قيسارية عنبر**: كانت سجناً يعرف بسجن المعونة في الدولة الفاطمية والأيوبية، ثم عمرها السلطان المنصور قلاوون سنة 680هـ / 1281م وجعلها سوقاً للعنبر، وبنى في أعلاها ربعاً واسعاً.[1]

وهناك قيساريات كثيرة أخرى. وتختلف القيسارية عن الفندق: بأنه لا يقيم فيها التجار بل يعرضون بضائعهم، حيث يأتي المشترون لشرائها في أماكن محددة.

أما الفندق: فهو للبيع والخزن والإقامة. أما الخان: فهو الفندق بلغة أهل الشام.[2] وفي دمشق يستخدمون اسم "وكالة" بدل القيسارية .[3]

ج– فنادق التجار الفرنجة في مصر والشام في عصر المماليك:

كان للجاليات الإيطالية "فنادق" وخانات، في القاهرة والإسكندرية وطرابلس وبيروت واللاذقية ودمشق، وكان الفندق مؤلفاً من عدَّة طبقات محاطة بسورٍ متين، وتطل الطبقات على ساحة داخلية تستخدم لتخزين السلع وبيعها في مستودعاتها، بينما كانت الطبقات لإقامة التجار. وكان في كل فندق حَّمام وفُرن، وتحيط به حدائق واسعة.

وكان يشرف على الفندق موظف منهم يطلق عليه اسم الفندقي، وكان يتم اختياره من ذوي الجاه والمنزلة .

---

(1) المقريزي: خطط القاهرة ، م3، ص 287- 289- 294-296. و م2، ص 516 .

(2) العلبي : خطط دمشق،م3، ص 469 .

(3) المقريزي : خطط القاهرة ، م3، ص 288 – 300 .

كما كان يشرف على الجاليات الإيطالية في الشام قناصل في دمشق وبيروت والرملة والقدس، وكان يتم استبدال هؤلاء القناصل كل سنة أو سنتين أو ريثما يأتي من يحل محلهم، ويكون القنصل مسئولاً عن تصرُّفات رعاياه وحماية ممتلكاتهم،ويحق لكل قنصل مقابلة السلطان عشر مرات في السنة لعرض مشاكل جاليته، كما كان يشرف على وصول السفن التجارية الفرنجية إلى الموانئ المصرية والشامية ومغادرتها، ويساعد القنصل مجلس من اثني عشر تاجراً.

وكانت هذه الفنادق تقفل ليلاً وفي أوقات الصلاة يوم الجمعة، كما كان الإيطاليون يمارسون عباداتهم فيها ويحتسون الخمر ويربّون الخنازير.[1]

ومن ناحية أخرى عمل سلاطين المماليك على حماية الجاليات التجارية الفرنجية في مصر والشام والسهر على سلامتهم، فعندما طلب التجار البنادقة عام 652هـ/ 1254م رفع سوق السمك المجاور لأحد فنادقهم في الإسكندرية، أمرت السلطات المصرية بنقله إلى مكان آخر.

أما أشهر فنادقهم في مصر والشام في عصر المماليك فهي :

- **فنادق البنادقة**: كان لتجار جمهورية البندقبة فندقين في مدينة الإسكندرية، وفندق في كل من دمشق وبيروت وطرابلس وحلب واللاذقية.

- **فنادق البيازنة**: كان لتجار جمهورية بيزا فندق في الإسكندرية، وفندق آخر في القاهرة

- **فنادق الجنوية**: كان لتجار جمهورية جنوه فندق في الإسكندرية، وفندق في بيروت،وفندق في دمشق وكان يسمى خان الحبَّالين. [2]

4- **الأسواق** :

ذكر المقريزي: «أنه كان بالقاهرة أكثر من أربعين سوقاً وخمس عشرة سويقة». ومن أشهر هذه الأسواق:

- **سوق المحايريين**: تباع به المحاير(الأقمشة البيضاء) التي يسافر بها الناس إلى الحجاز وبيت المقدس.

- **سوق حارة برجوان**: وهو من أعظم أسواق القاهرة، وتباع فيه اللحوم بأنواعها والزيوت والأجبان والألبان والطبخ الجاهز والشواء والمخللات والخضر والأمتعة والمكسَّرات.

- **سوق الشمَّاعين**: وكان لبيع الشموع بمختلف أنواعها، وكانت حوانيت هذا السوق تظل مفتوحة حتى منتصف الليل، مما كان يغري الناس باتخاذها أماكن للنزهة.

- **سوق الدجاجيين**: كانت تباع فيه كميات كبيرة من الدجاج والأوز وطيور الزينة .

- **سوق الأبارين** : ويباع فيه أبر الخياطة وغيرها.

---

(1) زيتون : العلاقات الاقتصادية، ص 243 – 246.

(2) زيتون، عادل: تاريخ المماليك، منشورات جامعة دمشق، كلية الآداب، ط 2،2003، ص 196 – 197 .

- **سوق الحوائصيين** : كانت تباع فيه في بداية عصر المماليك المناطق التي يتمنطق بها الجنود حول أوساطهم .

- **سوق الجوخيين** : يباع فيه الجوخ المستورد من أوربا .

- **سوق الشرابشيين** : نسبة إلى الشربوش، وهو لباس رأس مثلث بدون عمامة، كما كان يتواجد في هذا السوق عدد كبير من التجار يشترون الخلع و التشاريف ويبيعونها للديوان الخاص السلطاني للأمراء .

- **سوق الحلاويين** : مخصص لبيع الحلوى المصنوعة من السكر .

- **سوق اللجميين** : كان به عدد من صناع الطلاء و الكفت (التطعيم بالمعدن) وصناع السروج ولوازمها .

- **سوق العنبر** : الذي أنشأه المنصور قلاوون مكان أحد السجون، وفاءً لنذر قطعه على نفسه .

- **سوق المهاميز** : كانت حوانيته تبيع المهاميز التي تستخدم في ركوب الخيل.

- **سوق الطواقيين** : الذي يبيع الطواقي التي يلبسها الصبيان .

وهناك أسواق أخرى منها سوق بين القصرين وسوق السلاح وسوق الأقفاص عند القبة المنصورية، وسوق الصناديق، وسوق الصاغة وسوق الحريريين وغيرها الكثير .[1] بالإضافة إلى الأسواق، كان هناك **السويقات** التي حملت أسماء بعض الجماعات التي سكنت مصر في ذلك الحين، مثل سويقة **العراقيين** وسويقة **المغاربة** وسويقة **اليهود**: ويقول عنها ابن دقماق أنها صارت خُربةً في زمانه . وقد حملت بعض الأسواق أسماء أشخاص مثل سويقة **معتوق** وسويقة **ابن العجمية** وسويقة **المسعودي** وسويقة **الصوابي** وسوق **وردان** التي تنسب إلى وردان مولى عمرو بن العاص.[2]

أما في دمشق فقد ذكر ابن جبير: «أن أسواق دمشق من أحفل الأسواق وأحسنها انتظاماً وأبدعها وصفاً، ولا سيَّما قيسارياتها المرتفعة كالفنادق، وكلها مغلقة بأبواب الحديد، كأنها أبواب القصور، وكل قيسارية منفردة بأقفالها وأغلاقها الجديدة، وفي المدينة أيضاً سوق يُعرف بالسوق الكبير يمتد من باب الجابية إلى باب شرقي».[3]

وكانت المنطقة المحيطة بالجامع الأموي وقلعة دمشق هي المنطقة المزدهرة بالتجارة والأسواق والخانات والقياسر، ولا يزال الحال على ذلك حتى اليوم.

---

(1) المقريزي : الخطط المقريزية، م2، ص 96 - 106 .

(2) ابن دقماق، صارم الدين ابراهيم: الانتصار لواسطة عقد الأمصار، جزءان 4-5، نشرهما فولر، بولاق 1324هـ، ج4، ص 14.

(3) ابن جبير : رحلة ابن جبير، ص 261 .

وقد بنى السلطان نور الدين الشهيد عدداً من الأسواق حول الجامع الأموي مثل سوق تحت المأذنة جنوب الجامع وسوق البريد وسوق دار الخيل عند باب الجامع الجنوبي، ووسع سوق الخوَّاصين – الخياطين اليوم.[1]

وكان لكل سوق شيخ يكون صلة الوصل بين التجار والحكام، كما كان هناك "المحتسب" الذي يُشرف على جميع الأسواق لمراقبة الأسعار والمكاييل والموازين ومعرفة المطففين والغشاشين. وكانت بعض هذه الأسواق تكاد تكون حكراً على أهل الذمة، مثل سوق الصباغين وسوق الصرف.[2] وقد ذكر ابن شداد وغيره مجموعة من الأسواق زادت على مائة سوق داخل دمشق وخارجها من أشهرها:

- **سوق الأخصاصيين** : في شارع النصر، وهؤلاء يصنعون الأخصاص من القصب لوضعها في الدور لحجب النساء عن أعين المارة.

2- **التجارة الخارجيَّة**:

سادت بين التجار المسلمين والتجار الإيطاليين والصليبيين علاقة حسنة جداً، على الرغم من الاختلاف الديني وفتاوى الباباوات .

وكانت عكا تزخر بالتجار المسلمين الذين كانوا يحملون إليها البضائع المحلية، علاوة على البضائع المستوردة من الهند والصين مثل الفلفل والبهار والقرفة والخولنجان والقرنفل والزنجبيل وحبّ الهال، وكذلك الحرير والخزف والأحجار الكريمة والسجاد والنيلة والموسلين. [3]

وعلاوة على ذلك فقد كان يُسمح للتجار الإيطاليين باستخدام قواربهم في شحن وتفريغ سفنهم في جميع الموانئ .

كما خصصت السلطات المصرية لهم مستودعات في "الجمارك" لتخزين بضائعهم بدون رسوم مع إبقاء مفاتيحها معهم .

وكان التجار أحراراً في بيع بضائعهم لمن أرادوا ومتى أرادوا، كما كان لهم الحق في شراء لوازمهم بدون تدخل من أحد.

وكانوا يبيعون بضائعهم عادة في الفنادق الخاصة بهم أو في الأسواق أو في الجمرك، كما كان يُسمح لهم عادة في الالتقاء مع تجار الكارم الآتين من عدن والشراء منهم مباشرة بدون وساطة .[4]

وقد كانت العلاقات التجارية مع الفرنجة تخضع لقواعد ثابتة من أهمها مبدأ المعاملة بالمثل، والرغبة في حماية التجّار والتجارة، وكان الجانب العربي والجانب الصليبي حريصين على الضرب

---

(1) أبو شامة : كتاب الروضتين، م1، ص 66 و 75 .

(2) القلقشندي : صبح الأعشى، م10، ص 214 .

(3) زيتون : العلاقات الاقتصادية، ص 176 .

(4) زيتون : العلاقات الاقتصادية، ص 238 .

على أيدي قطاع الطرق واللصوص والغشاشين ومن يخالفون الأعراف التجارية التي ارتضاها الجميع من أجل ازدهار التجارة وانتعاش الناس، وقد بدأ ذلك منذ السنوات الأولى للاحتلال الصليبي.

فقد ذكر ابن القلانسي: «أن ظهير الدين طغتكين، وقع مع بغدوين صاحب القدس سنة 507 هـ / 1113 م معاهدة تجارية وعلى أثرها استقامت الأحوال بين الطرفين، وأمنت السابلة للمترددين والتجار والسفَّار الواردين من جميع الأقطار».[1] وكان الصليبيون يدفعون رسوماً ثابتة عند دخول دولة المماليك، وكذلك كان يفعل الآخرون.

أما التجار المسلمون المقيمون تحت سلطة الصليبيين فقد أُنشئت لهم محاكم تجارية، يرأسها قاضٍ يُعّينُه حاكم البلد ويساعده اثنان من الفرنجة وأربعة من السكان المحليين، ويحلف كل منهم على كتابه المقدَّس، وتتولى محكمة المدينة تسجيل عقود البيع واستيفاء الرسوم المقررة عليها.[2]

وفي عصر الملك املريك عموري الأول تقرر إنشاء "محكمة المدينة": « Cour de la fonde» في كل واحدة من المدن المحتلَّة وعددها 23 مدينة، وكانت تنعقد في الأسواق وتنظر في القضايا التجارية وغيرها .

وكانت هذه المحكمة تتولى تسجيل عقود البيع وهبات المُلَك بعد ثبوتها، كما تُجبى الرسوم والضرائب التجارية وإذا ما ظُلم أحد في هذه المحكمة كان بوسعه اللجوء إلى "محاكم النبلاء" وهي محاكم خاصة بالنبلاء، توجد في كل المدن الكبرى وجميع أعضائها الثلاثة عشر من الصليبيين .

وهناك "محكمة المرفأ ": « Cour de la chaine » في كل المدن الساحلية تنظر بجميع القضايا المتعلقة بشحن السفن وتسجيل حصة الديوان من الرسوم الجمركية أو الرسوم على السفن.

وكان هناك المحاكم القنصلية لكل جالية من الفرنجة، بالإضافة إلى "محاكم البارونات" التي تنظر في الخلافات الواقعة بين الفرسان.

وكان السكان المحليون المسلمون يؤدون ضريبة العشر على أموالهم في مقابل اشتراكهم في بعض الوظائف الحكومية الصغيرة في الجمرك – الديوان – وفي جباية الضرائب .[3]

وكانوا يدفعون ديناراً واحداً في السنة عن كل رجل منهم، بالإضافة إلى رسوم خفيفة على الأشجار.

وذكر رنسيمان أن معظم موارد الإمارات الصليبية كانت من الرسوم التجارية المقررة على البضائع المتوجّهة من الداخل إلى الساحل . وقد نجم عن هذه الصلات التجارية قيام صداقات بين

---

(1) ابن القلانسي : تاريخ دمشق، ص 300 .

(2) رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية، م2، ص 484 .

(3) رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية، م2، ص 485 .

الطرفين، حتى إن طائفة الداوية المشهورة بنشاطها المصرفي أبدت استعدادها للتوسع في أعمالها المصرفية مع المسلمين، وتعلّم موظفوها اللغة العربية لاجتذاب الزبائن العرب .[1]

أ- الرسوم التجارية :

كان التجار الإيطاليون يدفعون في الموانئ المصرية والشامية رسوماً حُدّدت بدقة بموجب اتفاقيات تجارية رسميَّة، كانت تطبقّ على جميع التجار من الأوربيين والمسلمين على حد سواء .

وكان يتم تسجيل حمولة كل سفينة بعد تفريغها في الميناء، ويفرض على كل تاجر وصل بالسفينة رسم قدره 2% من قيمة البضائع، وهذا الرسم هو "رسم دخول" على الأفراد لا علاقة لها بالبضائع، ثم يؤخذ الخمس على البضائع، وقد ترفع الرسوم إلى 35 % من قيمة البضائع بحسب الأحوال.

وبموجب المعاهدات التجارية المبرمة، كانت الرسوم كالآتي : 16 % على البضائع، وعلى الذهب والفضة 10%، والزيوت والحبوب 12 %، والمنسوجات والأخشاب 10 %.[2]

وعندما كانت تصل أي سفينة إلى ميناء عكا مثلاً، كانت تُضرب الأجراسُ لإعلام الناس بوصولها، ثم تنطلق القوارب الصغيرة إلى السفينة، حيث تجري أربع عمليات هي الإنزال والتفريغ والتسجيل والتخزين ثم البيع .

وكان على كل عمليَّة من هذه العمليات رسوم محدَّدة تختلف من وقت لآخر مثل: ضريبة الرسوّ، وضريبة الميناء، وضريبة السوق، وضريبة الإقلاع، وهذه الرسوم تتراوح بين 4- 11 % من قيمة البضائع المتوجهة إلى مصر والشام، أي أنها ضرائب "ترانزيت" .

أما البضائع المعدَّة للاستهلاك فكما ورد سابقاً كانت رسومها تبدأ من 20% وما فوق.[3]

وهناك اتفاقات تجارية وقّعت مع البنادقة كانت الرسوم فيها:

10 % على جميع البضائع، و2 % على الذهب والفضة المستوردين وكان تخفيض الرسوم عليهما بسبب شدة الحاجة إليهما لضرب النقود، يضاف إلى ذلك رسوم طفيفة مثل السمسرة والمخازن والحماية وغيرها .

وبموجب معاهدة 689 هـ/ 1290م أُعفي تجار جنوة من دفع الرسوم على الفراء والأحجار الكريمة لحاجة الحكام إليها .

وفي العام نفسه 689 هـ / 1290م، عادت العلاقات التجارية بين المماليك والصليبيين إلى طبيعتها، وأخذ تجار دمشق يعيدون تسيير قوافلهم التجارية إلى الساحل، وتوافر المحصول في تلك السنة، ولم تكن عكا من الحيوية والنشاط مثلما كانت تلك السنة. [4]

---

(1) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، م2، ص 478 .

(2) زيتون : العلاقات الاقتصادية، ص 235 .

(3) زيتون : العلاقات الاقتصادية، ص 180- 181 .

(4) رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية، م2، ص 479 .

ب - نشاط تجار الكارم ودورهم في دعم الاقتصاد المملوكي:

كان بمصر فريق من التجار يعرفون بالتجار الكارمية بيدهم تجارة البهار من الفلفل و القرنفل ونحوهما ، مما يجلب من الهند و اليمن ، ومن المحتمل أن تكون هذه التسمية أطلقت عليهم نسبة إلى الكانم[1] : وهم فرقة من السودان أقامت طائفة منهم بمصر واشتغلت بتجارة البهار. [2]

وكان لتجار الكارم مراسلات بين عدن والهند. ويقوم عدد كبير منهم برحلات في بلاد العرب وأقطار الشرق الأقصى لزيارة متاجرهم ، وكان لهم شركات تمتلك عدداً كبيراً من السفن ، ولم تكن تجارتهم تقتصر على البهار والعطارة ، بل ساهموا أيضاً في تجارة الغلال والحبوب وخاصة الفول. وقد جنى تجار الكارم من وراء اشتغالهم بالتجارة أموالاً كثيرة ، وليس أكبر على دليل غناهم من المبالغ التي كانوا يقرضونها لحكومة المماليك في مصر لسد نفقات حروبها وخاصة في عصر الناصر محمد بن قلاوون، فيذكر المقريزي:" أن المغول عندما أوقعوا الهزيمة بالمماليك سنة 699ه/1299م وأصبحت الدولة المصرية في حاجة إلى المال، طلب ناصر الدين محمد بن الشخي والي القاهرة من تجار الكارم وأعيان التجار مالاً على سبيل القرض ". [3]

ومن ذلك يتضح الدور الهام والكبير الذي لعبته هذه الفئة من التجار، ليس فقط على الصعيد الاقتصادي بشكل عام وإنما على الصعيد السياسي، حيث ساهموا من خلال تجارتهم وغناهم المادي، بخلق رافد لقوة الدولة المملوكية في أوقات حرجة مرت بها هذه الدولة، وساعدت على كسر حاجز الحصار الاقتصادي الذي فرض عليها من الدول الأوربية الغربية في بعض الأوقات، والذي كان بتوجيهات صادرة عن البابوية بتحريم التجارة مع الدولة المملوكية، وذلك بتفعيل خط التجارة مع الشرق الأقصى، وخلق سوق جديدة ساعدت على إخرج المماليك من العزلة الاقتصادية .

وهذا الأمر أدى من ناحية أخرى إلى عودة تجار الغرب الأوربي إلى التعامل مع الدولة المملوكية، متجاوزين بذلك القرارات الصادرة عن البابوية، سعياً وراء أرباحهم الاقتصادية، ولكي يستفيدوا من المراسيم الصادرة عن سلاطين المماليك لتشجيع التجارة .

ج- التجارة مع الإمارات الإيطالية:

كانت قوانين مدن إيطاليا تُحتم على أساطيلها التجارية السفر إلى مصر والشام على شكل قوافل، وليس بصورة منفردة .

فمجلس "السناتو" في البندقية كان يلزم السفن بذلك، وكان يرافق القافلة ممثل حكومة البندقية وعدد من السفن الحربية لحراسة القافلة من القراصنة.

---

(1) ذكر القلقشندي أن(بلادهم بين إفريقية وبرقة)- صبح الأعشى، ج5، ص 280.

(2) القلقشندي: صبح الأعشى ، ج4 ، ص 31.

(3) المقريزي : السلوك ، ج1 ، ص 739.

وكانت القافلة المتجهة من البندقية إلى مصر تتألف من ست سفن، وقافلة الشام من خمس سفن من بينهم سفينتان لنقل الحجاج.

أما سفن جنوه فكانت تتألف من 12 سفينة موزعة بين مصر والشام. وكان يسبق السفن في موانئ مصر والشام سفن تعرف في البندقية بـــ كوكا، تقوم بنقل التوابل الفائضة عن حمولة السفن التجارية أثناء عودة القافلة. (1)

وكانت الرحلات التجارية بين الجمهوريات الإيطالية تتم بمعدل رحلتين بحريتين في السنة: في الربيع والخريف، وذلك بحسب حركة الرياح في البحر المتوسط، ومواسم الزيارة والحج .

وكانت الرحلة الأولى تتم في آذار و الأخرى في أيلول، وأحياناً كانت تبقى قافلة أيلول حتى نهاية آذار في الشرق الصليبي .

كما كانت السفن تعرّج في طريقها على الإسكندرية أو صقلية أو بجّاية أو المدن البيزنطية أو السورية، وكانت هذه القوافل تضم مئات التجار والمستثمرين والسماسرة.

وكانت الحمولة العظمى للسفينة تصل إلى 500 طن ثم ازدادت إلى 600 طن.

وكانت العادة أن بضائع السفن التي تتحطم أو تغرق قرب السواحل التي يحتلها الصليبيون، تصبح ملكاً لأمير الساحل.

وكذلك الحال فيما يتعلق بأموال التجار الذين يموتون في الغربة. ولكن الاتفاقيات التجارية، ولاسيما التي أبرمها المنصور قلاوون نصّت على إعادة هذه الأموال إلى أصحابها، سواء كانوا مسلمين أو من الصليبيين. (2)

د - التجارة مع أفريقيا و الشرق :

كانت العلاقات التجارية بين مصر وبلاد التكرور في أفريقيا مزدهرة، على الرغم من بعد المسافة وخطورة الطريق، وكان ملوك التكرور يُسافرون إلى الأراضي المقدسة في الحجاز عبر القاهرة، لأداء فريضة الحج، وكانوا يحملون معهم بضائع ثمينة دفعت التجار المصريين إلى قصد بلادهم والاتجار معها. (3)

أما سيلان، فقد كانت علاقتها لا تتعدى حكام اليمن، وفي عصر ملكهم "أبو نكبه" تطوَّرت العلاقات مع مصر، وقد أرسل سفارة كبيرة إلى السلطان المنصور قلاوون سنة 682ه/1283م عن طريق الخليج العربي حتى لا يعلم بها المظفر يوسف ملك اليمن، وكان مع هذه السفارة كتاب من ملك سيلان المذكور ذكر فيه أنه تخلَّى عن صحبة ملك اليمن وأنه متعلّق بمحبة السلطان وراغب

---

(1) زيتون: العلاقات الاقتصادية، ص 227 .

(2) زيتون : العلاقات التجارية، ص 171 .

(3) سرور : دولة بني قلاوون، ص 337 .

في إقامة علاقة تجارية معه. وقال إن بلاده غنية بالمحصولات والمنسوجات والأحجار الكريمة، وأن المصريين سيجدون فيها حاجتهم من كل منتجات الهند والصين والتمس من السلطان أن يعيّن مندوباً عنه في عدن ويبعث له برسول من لدنه، وقد أكرم المنصور هؤلاء الرسل وأجزل لهم العطايا.[1]

هـ- الاتفاقات التجارية الخارجية لدولة المماليك:

1- الاتفاق مع بيزنطة – رمضان 680هـ /1281 م:

من أوائل الاتفاقات التي وقعها المنصور قلاوون مع أوربا، ومن بنوده: «لا يحصل للتجَّار الواردين من بلاد السلطان إلى مملكتي جور ولا ظلم، بل يباح لهم أن يعملوا متاجرهم، وكذلك التجار الواردين من مملكتي على بلاد السلطان.

- وعلى التجار المذكورين أن يدفعوا ما عليهم من رسوم في مملكتي، كما أن تجار مملكتي يدفعون في بلاد السلطان ما عليهم من رسوم.

- إذا حضر من بلاد سوداق* تجار وأرادوا السفر إلى بلاد السلطان، فلا ينال هؤلاء تعويق في مملكتي، وكذلك إن وصل إلى بلادي تجار من بلاد السلطان يريدون التوجه إلى بلاد سوداق، يعبروا من بلاد مملكتي بلا عائق ولا مانع في الذهاب والإياب، وإذا حضر مماليك صحبة تجار سوداق أو تجار السلطان لا يُعوّقوا في بلادي إلا إذا كانوا نصارى لأن شرعنا وترتيب ديننا لا يسمح لنا في أمر النصارى بهذا . ولما كان في بلاد السلطان نصارى روم وغيرهم، وكانوا متمسكين بدين النصارى، فليُسِّهل السلطان بيع هؤلاء وإعتاقهم وإعادتهم إلى بلادي، وكذلك يفعل مع النصارى الذين يشتريهم أهل مملكتي من بلاد السلطان لإعتاقهم، يُسِّهل لهم السلطان ذلك، كلُّ من ظلم من أهل مملكتي في بلاد السلطان أو من رعايا السلطان في مملكتي يُنصف وتُعاد له حقوقه كاملة، ولا تفرض على أحد أي غرامات من أي نوع ».[2]

2- الاتفاق مع إمارة طرابلس 27 ربيع الأول سنة 680 هـ / 1281 م :

تشمل هذه الهدنة بلاد الملك المنصور وأولاده وهي معروفة وكذلك ما هو مجاور لطرابلس من المملكة البعلبكية وما يتبعها وجبال الضنيّين والقصبين وما يتبعها، والفتوحات المستجدة وهي: حصن الأكراد وأفليس والقليعات وصافيتا وميعار وأكليعا وحصن عكار[3] ومرقية ومدينتها وبلادها

---

(1)المقريزي : السلوك، م1، ص 713 .

- المنصوري : زبدة الفكرة، م9، ص 243 .

* - سوداق: موقعها في أخر الأقليم السابع في ذيل جبل على شط بحر القرم - القلقشندي : صبح الأعشى، ج4، ص 451 .

(2) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك، م7، ص 230.

(3) عكار: قلعة على مرحلة من طرابلس من جهة الشرق في وسط جبل لبنان في واد الجبل المحيط بها - القلقشندي : صبح الأعشى، ج4، ص 144.

ومناصفاتها، وجميع بلاد هذه الجهات التي تم ذكرها ومناصفات المرقب التي دخلت في الصلح مع بيت الإسبتار، إضافة إلى مدينتي بلاطنس[1] ومُرقص وبلادها وجبلة واللاذقية وأنطاكية والسُّويديَّة، وحصن بغراس وحصن ديركوش وحصن صهيون[2] وبرزية[3] وحصون الدعوة وغير ذلك من الممالك الإسلامية، كما تشمل بلاد الإبرنس وهي طرابلس وما يتبعها وأَنَفَه والبترون وجبيل وعرقا وبلادها وعددها 51 ناحية، وما هو للخيالة والكنائس وعدَّتها 21 بلداً، كل ذلك يكون مناصفة بين الطرفين، وتقررت الحالة على ذلك، وعادت الرسل.[4]

أما برج اللاذقية وميناؤها والجبايات والغلاّت فيكون مناصفةً أيضاً، ويكون على جسر في اللاذقية يدعى أرتوسية 16 موظفاً من قبل السلطان وتكون لهم في الجسر بيوت يسكنونها ولا يسببون أي أذى لرعية الإبرنس.[5]

وإذا أراد السلطان العظيم أن يُرسل إلى بلادي متجراً، وأرادت بلادي أن ترسل إلى بلاده بضائع متجراً فليطبق على الجميع مبدأ واحد: فإذا أراد السلطان إعفاء تجارنا في بلاده أعفينا تجارهُ في بلادنا، وإن أراد فرض رسوم عليهم، فرضنا على تجَّاره رسوماً مثلها، وإذا أراد السلطان أن يصدر لي بضائع أو خيلاً فإن بلادي تصدِّر له بالمقابل ما يرغب فيه .

ولست مسئولاً عن أعمال الكرسالية "القراصنة" في البحر، فإذا تعرِّض تجار السلطان إلى الاعتداء من الكرسالية الذين لا سلطان لي عليهم، لا أطالب أحد من مملكتي بالتعويض عما لحق تجار السلطان من أضرار». وتاريخها أول رمضان سنة 680 هـ / 1281م .[6]

3- **الاتفاق مع إمارة عكا 15 ربيع الأول 682 هـ / 1282 م:**

- إذا توفي أحد التجار من بلاد السلطان أو البلاد الساحلية الداخلة في هذه الهدنة، تحفظ أمواله إلى أن تسلَّم إلى أهله.

وإذا انكسرت السفن في البحر أو الموانئ، يحتفظ بها وبما معها حتى يتم تسليم ذلك إلى أصحابها سواء كانوا في بلاد السلطان أو البلاد الساحلية، يتعاون الجانبان على القضاء على "حرامية البحر" والقراصنة.

---

(1) بلاطنس : حصن بالساحل مقابل اللاذقيةمن أعمال حلب - الحموي : معجم البلدان، ج1، ص 478 .

(2) صهيون : حصن حصين من أعمال سواحل بحر الشام من أعمال حمص غير مشرف على البحر، خنادقه أودية عميقة وله ثلاثة أسوار - الحموي : معجم البلدان، ج3، ص 436 .

(3) برزية: حصن قرب السواحل الشامية قرب اللاذقيةعلى جبل شاهق - الحموي: معجم البلدان،ج1، ص 383.

(4) ابن عبد الظاهر : تشريف الأيام والعصور، ص 210 – 211 .

(5) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك، م7، ص 205 .

(6) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك، م7، ص 231 .

لا تُجدَّد على تجار الطرفين رسوم جديدة من أي نوع لم تجر به عادة وتؤخذ منهم الرسوم المعتادة بدون زيادة .

يكون التجار من الطرفين آمنين على أنفسهم وأموالهم حتى يصلوا إلى بلادهم، ويحمي كل طرف تجار الطرف الآخر .

ومن الشروط الجديدة والمهمة: يُنادى في البلاد الإسلامية والبلاد الفرنجية الداخلة في هذه الهدنة أنه من كان من فلاحي بلاد الإسلام يعود إلى بلاد المسلمين، مُسلماً كان أو نصرانياً، وكذلك من كان من فلاحي بلاد الفرنج يعود إلى بلاد الفرنج مسلماً كان أو نصرانياً . ومن لم يعد بعد المناداة يُطرد من الجهتين .

ولا يُمكِّن فلاحو بلاد المسلمين من المقام في بلاد الفرنج المنعقدة عليها هذه الهدنة، ولا يُمكِّن فلاحوا الفرنج من الإقامة في بلاد المسلمين التي انعقدت عليها هذه الهدنة . ويكون عود الفلاحين إلى بلادهم بأمان، وتاريخ الهدنة 15 ربيع الأول سنة 682هـ / 1283 م.[1]

4- **الاتفاق مع جنوا 684ه – 1285م :**

في سنة 684 هـ /1285 م وصلت إلى القاهرة سفارة من الفرنجة بهدايا قيّمة من عند "الجنويَّة" ووقعت معاهدة تجارية مع السلطان قلاوون. وفي سنة 689 هـ / 1290م، بعثت حكومة جنوا سفارة أخرى إلى القاهرة لتحسين العلاقات التجارية معها، وعلى أثر ذلك وقّع السلطان قلاوون هدنة معهم، حصل الجنويون بموجبها على كل الضمانات التي طلبوها بالنسبة لتجارتهم في مصر والشام وتعصروا بمحاربة كل من يسيء إلى السلطان .

والغريب أنهم كانوا يفرحون بانتصارات المماليك على الصليبيين، وعند سقوط عكا لم يحركوا ساكناً، ولذلك يمكن إعتبارهم حلفاء تقليديين للمماليك. [2]

5- **الاتفاق مع صاحب سيس 684 هـ /1285 م :**

اتفق المنصور قلاوون مع ليفون ملك سيس، اتفاقات سياسية واقتصادية وأمنية وسيتم الحديث عن البنود الاقتصادية.

شملت بلاد السلطان، غير مصر 24 مملكة في الشام و 24 حصناً وقلعة ومدينة، يتردد التجار بين الجانبين بأموالهم وبضائعهم صادرين وواردين، ويُخفرون إلى حدود بلادهم ولا يُؤذون بسبب من الأسباب.

---

(1) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك، م7، ص 267 .

- ابن عبد الظاهر : تشريف الأيام والعصور، ص 34 – 43 .

(2) زيتون : العلاقات الاقتصادية، ص 218 .

يدفع الملك هيوم بن ليفون كل سنة للسلطان المنصور 500,000 درهم فضة، نصفها 250,000 درهم طوال مدة الهدنة وهي عشر سنين من تاريخه.

يُطلق الملك هيوم من اعتقله من تجار المسلمين مع بضائعهم ومماليكهم وجواريهم وخيلهم وبغالهم. ومن كان مات في سجن الملك الأب ليفون من تجار المسلمين فيلزم ابنه الملك هيوم بإعادة جميع التجار إلى السلطان المنصور، وبالمقابل يطلق السلطان المنصور من في سجونه من تجار الأرمن. لا تُجدَّد رسوم ولا مظالم على التجار من الجانبين. من أراد دخول بلاد السلطان من التجار من البلاد المجاورة لها يُفسح لهم المجال للدخول ولا يُعوِّقون بحالٍ من الأحوال، وإذا مات أحد من تجار المسلمين في بلاد الملك هيوم تُسلَّم أمواله لنوَّاب السلطان، وكذلك يفعل السلطان بتجار الأرمن في بلاده.

كل من يهرب من بلاد السلطان إلى بلاد الملك، أياً كان، يعيده الملك إلى السلطان بجميع ما معه ومن معه، فإذا تنصَّر الهارب يعيده الملك أيضاً ولا يعتذر بأي عذر وكذلك يعيد السلطان من يهرب من بلاد الملك إلى بلاد السلطان ما دام مصراً على دينه، فإن أعلن إسلامه، يُردُّ المال الذي جاء به، ولا يُردُّ هو.[1]

لا يمنع الملك هيوم ولا يعرقل جلب المماليك إلى بلاد السلطان وكذلك كافة الأنعام، ولا يعوّقهم. وإذا فُسخت المعاهدة لأي سبب، يمنح تجار كل طرف مهلة أربعين يوماً للعودة إلى بلادهم بأموالهم وبضائعهم دون أن يتعرض أحد لهم بأي شكل من الأشكال .

تاريخ الهدنة أول ربيع الآخر 684 هـ / 7 حزيران 1595 م للإسكندر، وهذه البنود حول حماية التجار وممتلكاتهم أياً كانوا، في البر والبحر نجدها في كل المعاهدات التي أمضاها السلطان مع ملوك اسبانيا والبرتغال وجنوا والبندقية وعكا والقسطنطينية وغيرها. [2]

6- الاتفاق مع البندقية 702ه /1302م :

كانت العلاقات التجارية مع البندقية قد تعرَّضت لنكسة خطيرة بعد تحرير عكا على يد السلطان الأشرف خليل، ذلك أن البندقية فقدت بسقوط عكا أحياءها وامتيازاتها التجارية التي كانت لها في دولة المماليك ولا سيَّما وأن عدداً كبيراً من البنادقة الأسرى في عكا أُودعوا السجون في مصر، واحتجز السلطان الأشرف خليل سفينة تجارية للبندقية قرب غزَّة، كانت تحمل عدداً كبيراً من تجار البنادقة الذين سجنوا في مصر. وردّت البندقية بأسر عدد من تجار المسلمين من عرض البحر فردَّ الأشرف باعتقال البنادقة الذين في الإسكندرية .

---

(1) ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام والعصور، ص 95 وما بعدها .

(2) ابن عبد الظاهر : تشريف الأيام والعصور، ص 102 .

ثم ساءت العلاقات التجارية إثر مرسوم البابا نقولا الرابع الذي هدد فيه بفرض "الحرمان الكنسي" على كل من يتاجر مع أي بلد إسلامي وبخاصة دولة المماليك .

وأخيراً فضَّل البنادقة مصلحتهم على مراسيم البابا وتصالحوا مع السلطان الأشرف الذي أفرج عن التجار المعتقلين منهم وسمح للبنادقة و الجنوية وتجار بيزا بالاتجار بحريّة مع الموانئ الإسلامية.[1] وفي سنة 702 هـ /1302 م نجحت سفارة بندقيّة برئاسة "جيدو دي كاتالي" في توقيع معاهدة. كما تعصرت بحماية التجار البنادقة ومتاجرهم وأموالهم، وأن يكون لهم استقلال قضائي فيما بينهم في أرض مصر، وأن يسمح لهم بممارسة طقوسهم الدينية.

وقد نصّت الاتفاقات مع الجاليات الإيطالية عموماً، أنه إذا كان النزاع فيما بين الإيطاليين يُنظر أمام مجلس الجالية برئاسة قنصلها، وتتم المحاكمة وفق قوانين بلادهم، وإذا ادَّعى المسلم على الإيطالي، تنظر القضية أمام القنصل الإيطالي، وإذا ادّعى الإيطالي على المسلم تنظر القضية أمام المحاكم الشرعية الإسلامية .

وبالمقابل تعصرت البندقية باستمرار تصدير الحديد والأخشاب والإنتاج الحربي، شريطة أن يسمح السلطان بتصدير سلعٍ مصرية معينة إلى البندقية، بدون رسوم تصدير، وتعيين قنصل دائم للبندقية في الإسكندرية .

كما تعصر السلطان بحماية الحجاج البنادقة وحراستهم، وتم ذلك كله رغم إلحاح الباباوات بضرورة قطع العلاقات التجارية مع دولة المماليك.[2]

7- **الاتفاق مع صور 689هـ/ 1290 م :**

وفي اتفاق آخر مع "مالكة صور دام مرغريت بنت هنري"، نجد بنوداً اقتصادية من نوع آخر، فقد قسمت المزارع والقرى المحيطة بصور بين السلطان والملكة، فكان نصيبها :

صور وما حوت أسوارها، والأراضي التي تزرع البقول والأقصاب والمعاصر، التي لا دمنة لها وهي: المعوَّقة ورشمون، وبستان العوجة الذي لا دمنة* له.[3]

والطواحين حول صور بما فيها من معاصر، علاوة على عشر قرى من مرج صور، كلها تكون خاصة للملكة، ويكون للسلطان وأولاده خمس قرى من أجود قرى صور، وهي: قانا ومزرعتها، والقُروية، وأصريفيا ومزرعتها، حانا، المجادل، وكفر دبين.

---

(1) زيتون : العلاقات الاقتصادية، ص 198 .

(2) زيتون : العلاقات الاقتصادية، ص 176 .

* - الدمنة : هي مساكن الفلاحين .

(3) ابن عبد الظاهر : تشريف الأيام والعصور ، ص 106.

أما بقية قرى صور وعددها 78 ضيعة ومزرعة فهذه تكون من جملة المناصفات، تُقسم غلاتها مناصفة بين السلطان والملكة بعد دفع كامل الحقوق التي عليها، ويقوم موظفون من قبل الملكة وآخرون من قبل السلطان بإدارة هذه القرى وتحصيل إيراداتها تمهيداً لتقاسمها بين الفريقين .
وقد أُبرمت هذه المعاهدة في العام الذي توفي فيه المنصور .[1]

و - العلاقات التجارية المملوكية ـ الأوربية وانعكاسها على الوضع السياسي:

من الأمور الهامة والبارزة التي تدعوا إلى التساؤل عن طبيعة العلاقات التجارية والدبلوماسية بين الدولة المملوكية وبين الدول الأوربية، بعيداً عن أركان النظرية التي تحكم العلاقة بين المسلمين وغير المسلمين، وبعيداً عن مفهوم الجهاد.
(هل تخلى المماليك عن الجهاد؟ وهل تخلى الغرب عن صليبيته؟) .

والجواب هنا يأتي من خلال دراسة الإطار والتوجه العام للعلاقات الإسلامية – المسيحية والمؤثرات عليها :

حيث شهدت الأوضاع العالمية وأوضاع كل من الطرفين المملوكي والإفرنجي تغيرات هامة مع نهايات الصورة التقليدية للحروب الصليبية، وبرز من ثنايا هذه التغيرات وزن متزايد للعلاقات التجارية والدبلوماسية، وهذا لا يعني إنتهاء الصراع السياسي والعقائدي القائم بين العالمين المسيحي والإسلامي ولكنه أفرز أدوات جديدة لإدراته.

فعلى حين رأى البعض أن هذا النمط وأدواته الجديدة هي نهاية فعلية للروح الصليبية فإن البعض الآخر لم يرى فيها إلا مجرد قناع جديد لهذه الروح، وفي حين رأى البعض فيها انتهاء للجهاد الإسلامي لدى المماليك، فإن البعض الآخر رأى فيه جهاداً بأساليب جديدة .

في حين يرى أحد رواد الدراسات الأستشراقية برنارد لويس:" أن أحد أهم أثار الحروب الصليبية هو التزايد في أهمية العلاقات الدبلوماسية والتجارية مع أوربا والإتصالات التجارية والشخصية بين المسلمين والمسيحين الأوربيين والتي كانت من قبل ضيقة النطاق وقليلة الأهمية".[2]

حيث كانت البابوية المحور المحرك للسياسات الأوربية، وذلك من خلال فرض حصار اقتصادي على مصر ومحاربتها في أعظم موارد ثروتها وقوتها في هذه المرحلة وهي التجارة، حيث كانت مصر تحتكر طريق التجارة الوحيد والآمن والمستقر والبعيد عن سيطرة وتهديد المغول بين الشرق والغرب، وهذا من خلال المراسيم البابوية التي تحرم التجارة مع المماليك، والتهديد بتوقيع قرارات الحرمان من الكنيسة بحق من يخالف أوامرها من تجار الأفرنج ، حيث كان اعتقاد البابا قوياً بأن حرمان مصر المملوكية من أهم موارد ثروتها سيسهل القضاء عليها عسكرياً.

---

(1) ابن عبد الظاهر : تشريف الأيام والعصور، ص 107 .

(2) لويس، برنارد: السياسة والحرب في الإسلام ، تر: محمد زهير، عالم المعرفة ، أغسطس، 1978م، ص 275-276.

ولكن مع تغير العلاقة بين البابوية والسياسات الأوربية، ومع تزايد أهمية الاعتبارات التجارية، حدثت تطورات سياسية واقتصادية على الجانب الأوربي أدت إلى فشل الخطة البابوية التي تعارضت مع مصالح المدن الإيطالية، فقد ظلت جنوة هي المحرك الأساسي لتجارة العبيد التي تدعم الجيش المملوكي بعناصره البشرية الأساسية، كما أن استمرار العلاقة التجارية بين المماليك وبين ممالك أوروبية عدة، اتسم خلالها المماليك بقدر من الوعي بضرورة وأهمية توطيد هذه العلاقات والحفاظ عليها .[1]

وهنا قامت البابوية باعتماد أسلوب آخر وهو شن حرب على المؤاني والسفن المصرية والشامية، وانطلق هذا الأسلوب من إحياء فكرة مهاجمة مصر عسكرياً لإصابة التجارة المصرية بالإضطراب بعد فشل الأسلوب الأول أي الحصار.

ولقد تزعمت قبرص التي اصبحت مقراً للصليبيين بعد سقوط عكا تنفيذ المشروعات الصليبية العدوانية – الاقتصادية والحربية على حد سواء – على مصر والشام ، بحكم موقعها الجغرافي بين شواطئ المسلمين في مصر والشام وشواطئهم في أسيا الصغرى، وكذلك بحكم مصالحها الخاصة كمركز تجاري هام وسوق متوسطية للممالك الصليبية الغربية .[2]

ومن هنا كانت محاولات الصليبيين للسيطرة على الاسكندرية، المركز الاقتصادي الكبير للتبادل التجاري بين المماليك ودول البحر المتوسط، هو السبيل لحرمان مصر من مواردها المالية الضخمة ولتدعيم مبدأ الحصار الاقتصادي .

ز- أبعاد الدور المملوكي في مواجهة القوة الصليبية اقتصادياً :

اختلفت أبعاد هذا الدور وخاصة في التصدي للأساليب الصليبية الجديدة وانعكس هذا الأختلاف على الأبعاد الاقتصادية والعسكرية للسياسات المملوكية .

فعصر الناصر محمد كان من أعظم عصور التاريخ المصري المملوكي وأكثرها ازدهاراً ورقياً واستقراراً، حيث تنوعت سياسته ما بين الفتح والتحالف والدفاع، ومن أهم الأحداث الخارجية في عصره توجه مصر المملوكية نحو الجنوب، وقيام الناصر بأربع حملات متوالية على مملكة النوبة المسيحية أدت إلى قيام أول ملك مسلم على تلك البلاد، على أن هذا التلاحم في الحدود أدى إلى صدام مباشر بين الطرفين، ومن جهة أخرى فتح مجالاً للتبادل التجاري الذي قام التجار بالإشراف عليه ورعايته. [3]

---

(1) مصطفى، ناديا: العصر المملوكي، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة، 1996م، ص 43.

(2) شاكر، محمود: التاريخ الإسلامي، المكتب الإسلامي ، ط2، بيروت، 1987م، ج4، ص 66.

(3) مصطفى : العصر المملوكي ، ص 46 .

- شاكر: التاريخ الإسلامي ، ج4، ص 59-62 .

أما الحبشة: فقد أدت تبعية كنيستها إلى الكنيسة المصرية في أوائل العصور الوسطى إلى وجود قدر كبير من الإتصال بين الدولتين، اقترنت بحرص ملوك الحبشة ومطارنتها على كسب ود سلاطين المماليك (بيبرس وقلاوون). [1]

ومن ناحية آخرى، وفي مواجهة القوى المسيحية في الشمال الشرقي من مصر والغربي منها كان للناصر محمد سياسته أيضاً. فلقد استمر على توطيد علاقاته بالدولة البيزنطية ، وكان محور العلاقات الهامة بين الطرفين هو سؤال الامبراطور البيزنطي للناصر إعادة كنيسة في بيت المقدس إلى أصحابها بعد تحويلها إلى مسجد في عصر بيبرس ، والتسامح مع أهل الكتاب، والسماح لهم ببناء عدة كنائس.

ولقد كانت استجاب الناصر محمد لطلبات الامبراطور البيزنطي تقترن برفض الأمبراطور البيزنطي المشاركة في المشروعات الصليبية الجديدة من أجل خنق دولة المماليك اقتصادياً تمهيداً لاحتلالها حربياً ثم الإستيلاء على الأراضي المقدسة .[2]

أما أرمينيا والتي تمثل آخر وجود مسيحي في الشرق، فقد تعرضت منذ بدايات عصر بيبرس وقلاوون وطوال عصر الناصر محمد لحملات متعددة لضربها، كما تعرضت لبعض الحملات من مغول فارس بعد دخولهم الإسلام وبعد أن كانت حليفاً لهم ضد المماليك.[3]

وهذا الإستيلاء المملوكي قد أدى إلى اغلاق أسواق أرمينيا المسيحية أمام التجارة الغربية على نحو كان له تأثير على تدعيم احتكار مصر لطرق التجارة بين الشرق والغرب. وهذا يقود إلى المحور التالي للمبادرات المملوكية .

- إذا كانت المبادرات البابوية بالمقاطعة الاقتصادية لمصر قد فشلت بسبب المصالح الاقتصادية للجمهوريات الايطالية، فإن السلطات المملوكية قد نجحت في إجهاض هذه المقاطعة أو الحصار بتدعيم سيطرتها على طرق التجارة بين الشرق والغرب التي تمر بأراضيها، والتي تعد الأقصر والأكثر سهولة ورخصاً بالمقارنة بالطرق الآخرى وخاصة البرية عبر أسيا.

وبقدر ما مثلت هذه الجهود تطويراً لأوضاع سابقة خاصة بتنظيم حقوق وواجبات التجار المسيحيين من ناحية، بقدر ماأثارت من ناحية آخرى تساؤلات حول هذه العلاقة بين الدولة الإسلامية والدولة المسيحية.[4]

---

(1) للزيادة حول هذا الأمر، يمكن الرجوع إلى رسالة ملك الحبشة إلى بيبرس 673ه ونص رسالة بيبرس إليه، كذلك طلب ملك الحبشة من المنصور قلاوون الموادعة والصلح في :حمادة، محمد ماهر: الوثائق السياسية والإدارية للعصر المملوكي (656-922ه) مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2، 1982م، ص 468 وما بعدها .

(2) مصطفى: العصر المملوكي ، ص 47.

(3) ابن كثير: البداية والنهاية، ج 12، ص 327-328 و ج14، ص96 وما بعدها.

(4) مؤنس، حسين: الشرق الإسلامي في العصر الحديث، مطبعة حجازي، القاهرة، ط1، 1938م، ص 27 وما بعدها.

من كل ما سبق يمكن القول إن السياسات المملوكية على صعيد العلاقات التجارية السلمية انطلقت من موضع القوة والمناورة وليس من الضعف والخضوع، كما أنها كانت تخدم وتدعم المصالح السياسية والعسكرية المصرية في مواجهة الأعداء من الشرق والغرب على حد سواء، ويتضح ذلك من خلال النتائج الثلاثة التالية:

- **النتيجة الأولى**: تعد هذه السياسات وغيرها(وخاصة الاتصالات بين المماليك والممالك الأوربية حول أوضاع الكنائس والأديرة ببيت المقدس، شئون الأسرى المسيحيين، أهل الزمة في مصر) مراعاة للسياسة التي اقتضتها حالة مهادنة الممالك الأوروبية، وبفضل هذه السياسة قضى المماليك على خطر شديد ربما كان تجدد باتحاد بعض الممالك التي كان لها مصالح أساسية مع المماليك مع غيرهم، ممن تحركهم بالدرجة الأولى المشروعات الصليبية.

بعبارة آخرى اختبرت الدولة المملوكية العلاقات الإسلامية الإفرنجية السلمية بميزان استبعاد الخطر الصليبي في مقابل منح تجارية جديدة.

فعلى سبيل المثال أضحت البندقية أكبر شريك تجاري لمصر منذ نجحت في تحويل الحملة الصليبية الرابعة من الاسكندرية إلى القسطنطينية.

وهكذا كانت مصر المملوكية تستخدم الأداة التجارية لتحجيم أو القضاء على الأساليب الصليبية الجديدة وذلك من خلال المناورة بالمصالح الاقتصادية المتضاربة لبعض الأطراف الأوربية. [1]

- **النتيجة الثانية**: فهي أن مصر، وإن كانت تعد واحدة من أغنى الدول في تلك الحقبة، فإن سر هذا الثراء لم يكن مكمنه في داخل مصر، أي في عناصر وموارد النشاط الاقتصادي الداخلي مثل الزراعة. حيث لم تتوافر لديها الموارد الأولية اللأزمة لإقامة وتدعيم الجيوش في هذه المرحلة، مثل الخشب والمعادن والعبيد، ولم تكن أموال هذه التجارة تنفق على اللهو والبذخ فقط وخاصة في عصر السلاطين الأقوياء، ولكن كان الجزء الأعظم ينفق من أجل الحفاظ على مستوى تدريب الجيش وتسليحه حتى يواجه العدوان الصليبي من الغرب والخطر المغولي من الشرق.

ومن هنا كانت أهمية التجارة كونها السبيل لحصول الجيش على عناصره الأساسية، العنصر البشري من المماليك، والحديد والخشب والمعدات الحربية والمعادن الثمينة مثل الذهب والفضة والاقتصادية مثل النحاس والرصاص والقصدير.

ولقد ساهم التجار المسيحيون- وخاصة الجنوبيون- في توفير هذه العناصر متحدين بذلك أوامر البابا التي تمنع الإتجار مع مصر في هذه العناصر .[2]

---

(1) مصطفى: العصر المملوكي، ص51 .

(2) Aziz Surial Atiya : the Crusade in the Later Middle Ages. Methuen . London . 1938.pp18-20.

- **أما النتيجة الثالثة**: فهي أن امتيازات التجار المسيحيين الأوربيين لم تكن مطلقة أو ثابتة ولكنها كانت تتعرض لتقلبات عنيفة مع تغير مجال العلاقات بين المماليك وبين الدول الأوربية المسيحية، ففي حال اندلاع حرب بين مصر وبين هذه الدول كانت الدول كانت تغلق الفنادق ويسجن التجار والقناصل.

وكان الحرص على عودة الامتيازات وإنتظام التجارة يدفع بعض الأطراف الأوربية ذات المصالح للوساطة لدى السلطة المملوكية، والتي كان يتوقف على إرادتها عودة الأمور إلى ما كانت عليه ، فلقد كانت الأداة الاقتصادية ذات وزن هام في ادارة العلاقة مع الأطراف الأوربية المتنافسة على مصالحها مع دولة المماليك .[1]

(1) العبادي، أحمد مختار: تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام ، جامعة بيروت العربية ، 1972م، ص 326.

الخاتِمةُ

بعد ذكر الوضع العربي الإسلامي مع قيام دولة المماليك، والتعريف بالسلطان المنصور قلاوون وأولاده والحديث عن الحروب الصليبية في عصره وتحريره لمعظم الساحل واستعداده لتحرير عكا، وذكر ما حققه ابنه الأشرف خليل من انتصارات كبرى كان أعظمها تحرير عكا والساحل السوري بكامله.

لقد أوضحت هذه الدراسة أموراً كانت غامضة أمام القارئ العربي، فمن ذلك:

1- أنَّ سلاطين دولة المماليك بدءاً من المعز أيبك وانتهاءً بالناصر محمد بن قلاوون، قد نجحوا في حماية العرب والمسلمين من الخطر العظيم الذي كان يهددهم من الغرب والشرق، ومع ذلك فإنه على جميع المستويات الثقافية لا يوجد في هذه الأيام العصيبة التي تعيشها أمتنا العربية، من أرَّخ للمظفر قطز بطل معركة عين جالوت، أو للملك المنصور محرر طرابلس وقاهر التتار، أو لابنه الأشرف خليل بطل عكا المنسيّ، أو لأخيه الناصر محمد بطل معركة شقحب ومحرر أرواد من الغزاة الصليبيين. لقد توقفت أخبار معارك التحرير عند حطّين ولم تتجاوزها إلى عشرات المعارك الحاسمة التي تلتها، ليس هذا فحسب، بل إن بعض المثقفين العرب يجارون الغربيّين في النَّيل من المماليك ويصفونهم بالهمجيَّة والانحطاط.

2- كما أوضحت هذه الدراسة أن سلاطين المماليك كانوا يرون أنفسهم، ويراهم المسلمون، مسؤولين عن جميع المسلمين في العالم، وليس عمَّن يقيم ضمن دولة المماليك. فالسلطان المنصور قلاوون في اتفاقياته ومعاهداته مع ملوك الغرب، كان يحذّر من عمليات الإبادة ضد المسلمين التي كانت تجري في الأندلس، وكان يهدد الغربيين بمنع الوصول إلى الأماكن المقدسة أو قطع منتجات الشرق عن أوربا إذا لم يكف الأوربيون عن حرب الإبادة ضد المسلمين. ليس هذا فحسب بل إن تهديدات المماليك وصلت إلى المغول أيضاً .

3- بعدما نجح صلاح الدين في تحرير القدس وصدّ الصليبيين فإن المماليك أخذوا على عاتقهم علاوة على التصدّي للصليبيين مقاومة المغول وأنزلوا بهم الهزيمة النكراء في عين جالوت، كما أنَّهم أنقذوا العالم العربي والإسلامي من خطر الانهيار التام بعد سقوط بغداد عندما اعادوا إحياء الخلافة العباسية في القاهرة(مع العلم أنهم قاموا بذلك ليضفوا الشرعية على حكمهم على اعتبار أنهم من أصول غير عربية) وهذا العمل كانت له آثار مدهشة لدى المسلمين في العالم الذين عادت لهم الحياة بعودة الخلافة التي وإن كانت صوريَّة فإن أهميتها كانت في الأثر السحري العجيب لكلمة الخلافة والخليفة والتي كانت الدرع الذي حماهم ومنحهم الشرعية في حكمهم .

4- التأكيد على أهمية العامل الديني و الذي كان من العوامل الحاسمة في الحروب الصليبيّة، ولذلك قابل المماليك الاندفاع الصليبي في الشرق، باندفاع عربي إسلامي مضاد ، كان كافياً لتحقيق

تلك الانتصارات المذهلة التي أدت إلى طردهم من الساحل السوري في بضعة شهور في عصر الأشرف خليل وذلك بفضل روح الجهاد العالية التي شملت الحكام والمحكومين على حد سواء.

5- كما أن دولة المماليك كانت على درجة عالية من القوَّة والمنعة، ليس في الأمُور العسكرية فحسب، بل في القوة الاقتصادية والعمرانية والهندسية. وقد تجلى ذلك بأفضل صورة عند تحرير عكا عندما تمكنت "المجانيق" المصنوعة في دمشق من تحطيم مجانيق الصليبيين ودك حصونهم رغم التقدم المذهل للصليبيين في بناء الحصون والمعاقل والقلاع.

6- أهمية العلاقات الاقتصادية لدولة المماليك وطبيعة الاتفاقيات التجارية المبرمة مع الغرب، وقيام المماليك باجتذاب "رأس المال الخارجي" إلى القاهرة ودمشق عبر عشرات المراسيم التجارية المهمَّة التي كانت تُنشر في المشرق وتصل إلى الصين، والتي أدت إلى نجاح المماليك بالحرب الاقتصادية التي حاولت البابوية من خلالها تحقيق النصر بعد فشلهم سياسياً وعسكرياً.

المصادر والمراجع

المصادر:

1- **ابن الأثير** (أبو الحسن علي بن أبي الكرم الشيباني،ت 630هـ / 1232م): الكامل في التاريخ، تح :عبد السلام التدمري، 11مجلداً، دار صادر، بيروت 1997م.

2- **ابن البيطار** (ضياء الدين أبي محمد عبد الله بن البطار المالكي الأندلسي، ت 646 هـ): مختصر جامع ابن البيطار لمفردات الأدوية والأغذية المعروف "بتحفة ابن البيطار"، اعتنى به ؛عبد الله صابر، دار ابن الهيثم، القاهرة ، 2006م.

3- **ابن العبري**(جمال الدين غريغوريوس بن هارون الملطي، ت 685هـ / 1286م): تاريخ الزمان، تعريب: إسحاق أرملة، دار المشرق، بيروت 1986م.

4- **ابن العديم** (كمال الدين عمر بن أحمد بن هبة الله، ت 660هـ): زبدة الحلب من تاريخ حلب، تح سامي الدهان، 3 مجلداً، ط2، دمشق 2006م .

5- **ابن الفرات** (ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم، ت 807 هـ / 1405م): تاريخ الدول والملوك، المعروف بـ تارخ ابن الفرات، تح: قسطنطين زريق ونجلاء عز الدين، الجامعة الأمريكية، بيروت 1939م .

6- **ابن الفُوطي** (عبد الرزاق بن أحمد البغدادي،723هـ): الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة، دار الفكر الحديث، بيروت 1987م.

7- **ابن القلانسي** (أبو يعلي حمزة بن أسد علي التميمي، ت 555هـ / 1160م) : ذيل تاريخ دمشق، تح: سهيل زكار، دار حسَّان، دمشق 1983 م .

8- **ابن تغري بردي** (أبو المحاسن جمال الدين يوسف، ت 874هـ/ 1469م): النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، تح : محمد شمس الدين، 16مجلد، دار الكتب العلمية، بيروت 1992م.

9- .....: المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي ، تح : محمد أمين، مطبعة دار الكتب، مصر 1976 م.

10- **ابن جبير** (محمد بن أحمد الكناني، ت 614 هـ /1217م): رحلة بن جبير، دار صادر، بيروت 1959م.

11- **ابن حبيب** (الحسن بن عمر، ت 779 هـ/1377م) : تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه، تح: محمد أمين،3 مجلدات، مطبعة دار الكتب، القاهرة 1976م .

12- **العسقلاني** (أحمد بن علي بن محمد، ت 852هـ / 1448م): إنباء الغَمْر بأبناء العمر، بيروت، دار الكتب العلمية، ط2، 1986م.

13- .....: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تح : محمد سيد جاد الحق، دار الكتب الحديث، القاهرة 1966م .

14- **ابن خلكان** (أبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد، ت 681 هـ /1282م): وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تح: إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت 1968م .

15- **ابن دقماق** (صارم الدين ابراهيم بن محمد، ت 809 هـ / 1406م): الانتصار لواسطة عقد الأمصار، جزءان، نشرهما فولر، مصر 1983م .

16- **ابن سباط** (حمزة بن أحمد بن عمر، ت 930 هـ): تاريخ ابن سباط، تح: عمر عبد السلام التدمري، جزءان، طرابلس 1993م.

17- **ابن شداد** (بهاء الدين يوسف، ت 632 هـ / 1234م): النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، دار الفكر، بيروت، د. ت .

18- **ابن شداد الحلبي** (عز الدين أبي عبد الله محمد بن علي بن ابراهيم، ت 684هـ / 1285م): الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، تاريخ لبنان والأردن وفلسطين، تح: سامي الدهان، منشورات المعصر الفرنسي للدراسات العربية، دمشق 1992 م .

19- **ابن طولون** (محمد بن علي الصالحي الحنفي، ت 953 هـ) : مفاكهة الخلان في حوادث الزمان ، تح : محمد مصطفى زيادة ، المؤسسة المصرية للكتاب، القاهرة 1962م .

20- .....: إعلام الورى بمن ولى نائباً من الأتراك بدمشق الشام الكبرى، تح : محمد دهمان ، دار الفكر، دمشق 1984 م .

21- **ابن عبد الظاهر** (محي الدين أبو الفضل عبد الله السعدي، ت 692هـ/1292م): الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تح :عبد العزيز الخويطر، الرياض 1976 م.

22-.....: تشريف الأيام والعصور بسيرة الملك المنصور، تح : مراد كامل، الشركة العربية للطباعة، القاهرة 1961 م .

23- **ابن عساكر** (أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله، ت 571هـ - 1175م) : تاريخ مدينة دمشق ،تح : علي شيري، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت 1998م .

24- **ابن علي** (شافع العسقلاني،ت 730هـ) : تشريف الأيام والعصور بسيرة الملك المنصور، تح :عمر عبد السلام التدمري، المكتبة العصرية ، صيدا1998م.

25- **ابن كثير** (إسماعيل بن عمر، ت 774هـ /1373م) : البداية والنهاية، تح : عبد الله التركي، 21 مجلداً، ط2، دار عالم الكتب، الرياض 2002م .

26- **ابن واصل** (جمال الدين محمد بن سالم، ت 697هـ / 1298م) : مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تح : جمال الدين الشيال وآخرون، 5 أجزاء، دار إحياء التراث، مصر 1985 م .

27- **أبو الفداء** (المؤيد عماد الدين إسماعيل بن الأفضل نور الدين علي،ت 732هـ/1332م) : المختصر في أخبار البشر، ويعرف بتاريخ أبي الفداء، مجلدان في ست أجزاء، دار الكتاب اللبناني،د،ت.

28- **أبو شامة** (شهاب الدين بن إسماعيل المقدسي، ت 665 هـ - 1266م) : الروضتين في أخبار الدولتين النورية و الصلاحية ، تح : إبراهيم الزيبق، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1997م .

29- **البدري** (أبو البقاء ، ت894ه/1489م) : نزهة الأنام في محاسن الشام ، بيروت 1980 م .

30- **البرزالي** (علم الدين القاسم بن محمد، ت 739): المقتفي على كتاب الروضتين(صلة لكتاب أبي شامة) تح :عمر عبد السلام التدمري، 4 مجلدات، المكتبة العصرية، صيدا 2006 م .

31- **الجزري** (شمس الدين محمد بن ابراهيم ت 739 هـ) : تاريخ حوادث الزمان وأنبائه ووفيات الأكابر والأعيان من أبنائه، المعروف بتاريخ ابن الجزري ، تح : عمر عبد السلام التدمري، 3 مجلدات، المكتبة العصرية، صيدا ،1998م .

32- **الحموي** (شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله، ت 626هـ /1228م) : المشترك وضعاً والمفترق صقعاً ،عالم الكتب ، بيروت، 1986 م .

33- .....: معجم البلدان، تح : فريد الجندي،5 مجلدات، دار الكتب العلمية، بيروت،د.ت .

34- **الدمشقي** (جعفر) : الإشارة إلى محاسن التجارة، بيروت ، 1999 م .

35- **الدواداري** (ركن الدين بيبرس المنصوري الدواداري، ت 736 هـ/ 1335م) : كنز الدرر وجامع الغُرر، تح : بيزيد راتكة، المعصر الألماني، القاهرة 1982م .

36- **شيخ الربوة** (شمس الدين محمد بن أبي طالب الأنصاري الدمشقي) : نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، بيروت 1988 م .

37- **الصفدي** (خليل بن أيبك، 764هـ - 1362م) : أعيان العصر وأعوان النصر، تح :عدد من الأساتذة، خمسة مجلدات، دار الفكر،ط1، بيروت 1998م .

38- الوافي بالوفيات، طبع ألمانيا في تواريخ مختلفة وفي حوالي 30 مجلد .

39- **الصقاعي** (فضل الله النصراني، ت 726هـ) : تالي وفيات الأعيان لابن خلكان،1مجلد، تح : جاكلين سوبليه، المعصر الفرنسي للدراسات العربية، دمشق، 1974 م .

40- **الظاهري** (عزالدين خليل بن شاهين، ت 873هـ / 1468م): زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ،صححه: بولس واريس، باريس، 1894 م .

41- **العلموي** (عبد الباسط) : مختصر تنبيه الطالب، تح : صلاح المنجد، دمشق 1947م .

42- **العماد الأصفهاني** (محمد بن صفي الدين،ت 597 هـ / 1201م) : الفتح القسّي في الفتح القدسي، تح : محمود صبح، الدار القومية، القاهرة، 1965م .

43- **الحريري** (أحمد بن علي، ت 926 هـ / 1519م) : الإعلام والتبيين في خروج الفرنجة الملاعين على ديار المسلمين، تح : سهيل زكار، مكتبة دار الملاح، دمشق 1981 م .
44- **العمري**(شهاب الدين أحمد بن يحيى، ت 749هـ / 1348م) : مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، 27 مجلداً، تح : أيمن فؤاد السيد، المعصر العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة 1985 م .
45- **العيني** (بدر الدين أبو محمد محمود بن أحمد، ت 855هـ / 1451م) عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، تح : محمد محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1990م .
46- **القزويني** (زكريا بن محمد بن محمود،ت 682هـ / 1283م): آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت 1970م .
47- **القلقشندي** (أبو العباس أحمد بن علي بن أحمد بن عبد الله، ت 821 هـ/1418م) : ضوء الصبح المسفر وجنى الدوح المثمر،ط1، القاهرة 1906م .
48- .....: صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، تح : محمد شمس الدين ، 14 مجلد، بيروت 1987 م .
49- **المقريزي** (تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر العبيدي، ت 845هـ - 1441م): خطط القاهرة، تح : أيمن فؤاد السيد، مؤسسة الفرقان، لندن 2004 م .
50- .....: شذور العقود في ذكر النقود ، تح : محمد بحر العلوم، دار الزهراء، بيروت 1988م .
51- .....: السلوك لمعرفة دول الملوك، تح : محمد مصطفى زيادة، 12 مجلد، مطبعة لجنة التأليف، القاهرة 1972م.
52- .....: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف اختصاراً بالخطط المقريزية، دار التحرير، القاهرة 1962م .
53- **المنصوري** (ركن الدين بيبرس المنصوري الدواداري، ت 725 هـ - 1325م) : زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، تح : دونالد ريتشاردز، ج9، الشركة المتحدة، بيروت 1998م .
54- .....: تاريخ الدولة الأيوبية والمماليك البحرية، تح :عبد الحميد حمدان، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة 1993 م .
55- .....: التحفة الملوكية في الدولة التركية، تح :عبد الحميد صالح حمدان - الدار المصرية اللبنانية القاهرة 1987م .
56- **النويري** (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب، ت 733هـ/1332م) : نهاية الأرب في فنون الأدب ، تح : السيد الباز العريني،31 مجلداً، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1992م .

57- **اليونيني** (قطب الدين موسى بن محمد،ت 726هـ / 1325م) : ذيل مرآة الزمان ، مخطوط من مكتبة السلطان أحمد الثالث في استانبول ورقمه 4907 / 4، طبعة الهند 1960م . فيه أحداث سنة 701ه/1302م وما بعد .

58- .....: ذيل مرآة الزمان ، نسخة مصوره تغطي أحداث سنوات 697، 701ه/ 1297،1302م. قدمها وحققها وعلق عليها: ياسين الصيني، جامعة ييل، مايو 1994م.

المراجع العربية والمعربة:

1- أبو دمعة (أمين) : الحياة الاقتصادية في بلاد الشام في العصر الأيوبي، رسالة ماجستير، جامعة دمشق 1988م .

2- أرسلان (شكيب) : تاريخ الدولة العثمانية، دار ابن كثير، 2001 م .

3- إسماعيل (البيومى): النظم المالية في مصر والشام زمن سلاطين المماليك، الهيئة المصرية العامة للكتاب، فرع الصحافة،القاهرة، 1998م .

4- أمين (محمد محمد): الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر، ط1، دار النهضة العربية، القاهرة 1980م .

5- بدر (مصطفى) : مغول إيران بين المسيحية والإسلام، القاهرة، د.ت .

6- الطليطلي (بنيامين بن بونه الأندلسي):رحلة بنيامين، تر: عزرا حداد ، تح : عبدالرحمن الشيخ ، المجمع الثقافي، أبو ظبي ، 2002 م .

7- العبادي (أحمد مختار): تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام ، جامعة بيروت العربية ، 1972.

8- جميعان (ميخائيل) : المؤثرات الثقافية الشرقية على الحضارة الغربية، د.ت .

9- حسن (علي إبراهيم): دراسات في تاريخ المماليك البحرية،ط2، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة 1948م .

10- حمادة (محمد ماهر): وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي، ط2، مؤسسة الرسالة، بيروت 1982م .

11- .....: الوثائق السياسية والإدارية للعصر المملوكي (656-922ه) مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2، 1982م .

12- رنسيمان (ستيفن) : تاريخ الحروب الصليبية، 3 مجلدات، تر: السيد الباز العريني، دار الثقافة، بيروت 1969م .

13- زامبارو : معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، تر: زكي محمد حسن بك وآخرون، دار الرائد العربي، بيروت 1980 م .
14- زكار(سهيل) : تاريخ الحروب الصليبية، دار الفكر، دمشق 1995 م .
15- زكار، سهيل/ جوني، وفاء/ اسماعيل، اكتمال/: حروب الفرنجة(الصليبية)، كتاب جامعي، جامعة دمشق ، 2004م.
16- زيتون (عادل) : العلاقات الاقتصادية بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، دار دمشق 1980م .
17- ..... : تاريخ المماليك، منشورات جامعة دمشق، كلية الآداب، ط 2،2003م.
18- الزين (سميح) : تاريخ طرابلس، دار الأندلس، بيروت1969 م .
19- سرور (محمد جمال الدين) :دولة بني قلاوون في مصر، مطبعة الاعتماد، القاهرة 1947م .
20- شاكر(محمود): التاريخ الإسلامي، المكتب الإسلامي ، ط2، بيروت، 1987م .
21-شبولر(برتولد) : العالم الإسلامي في العصر المغولي، دار حسان، دمشق 1982م .
22- الشواف (عبد المعين) : دمشق بين سقوط الفاطمين وظهور الأيوبيين ، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة دمشق ،2008 م .
23- الصالح (صبحي) : النظم الإسلامية، منشورات الشريف الرضي، ايران، 1996م .
24- عاشور (سعيد عبد الفتاح) : نظام الحكم والإدارة في عصر الأيوبيين والمماليك، طبعة دار المعارف، تونس، 1994م .
25- عبد الهادي (محمد) : العقود الدرّية، القاهرة، 1934 م.
26- العلبي (أكرم حسن) : معارك المغول في بلاد الشام، دار المأمون، دمشق 1988 م .
27- ..... التقويم والتاريخ ، دار المصادر، بيروت، 1990م.
28- ..... دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين، الشركة المتحدة للطباعة والنشر، دمشق، 1982 م .
29- فرح، نعيم : تاريخ أوربا السياسي في العصر الوسيط، ط2، منشورات جامعة دمشق ، 1999م .
30- كرد علي (محمد) : غوطة دمشق ، ط 3 ، دمشق 1984 م .
31.....: خطط الشام، بيروت، 1971 م .
32- مصطفى (ناديا): العصر المملوكي، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة، 1996م.
33- معلوف (أمين) : الحروب الصليبية كما رآها العرب، دار الفارابي، بيروت 1989 م .

34- مهدي (شفيق) : مماليك مصر والشام ؛ نقوشهم – نقودهم - مسكوكاتهم، الدار العربية للموسوعات، بيروت، لبنان 2008م .
35- موير(وليم) : تاريخ دولة المماليك، القاهرة، 1924 م .
36 - مؤنس(حسين): الشرق الإسلامي في العصر الحديث، مطبعة حجازي، القاهرة، ط1، 1938م،
37- هيرولد (كريستوفر): نابليون في مصر، تر: فؤاد أندراوس، دار الكتاب العربي، القاهرة 1962م .

الموسوعات والمؤتمرات:

1- **أبحاث الندوة الدولية بعيد القاهرة الألفي** :3 مجلدات، مطبعة دار الكتب، القاهرة 1971م .
2- **البستاني** (بطرس) : دائرة معارف البستاني، دار المعرفة، بيروت 1881م .
3- **العش** (أبو الفرج) : محافّظ متحف دمشق سابقاً، بحث منشور ضمن الندوة التاريخية الألفية، القاهرة 1969م .
4- **العلايلي** (العلامة الشيخ عبد الله) : الصحاح في اللغة والعلوم ــ إعداد وتصنيف نديم وأسامة مرعشلي، دار الحضارة العربية، ط1، مجلدان، بيروت 1974م.
5- **مجموعة مؤلفين** : المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري، مركز الدراسات العسكرية، ،إشراف : مصطفى طلاس، 5مجلدات، ط1، دمشق 1992 م .
6- مركز الوثائق التاريخية بدمشق، السجل 176 وثيقة 113.
7- **مؤنس** (حسين): أطلس تاريخ الإسلام، ط1، مطبعة الزهراء، القاهرة 1987 م .
8- **الموسوعة الفقهية** : 45 مجلداً ، الكويت 2004 – 2008 م .
9- **الموسوعة الأسلامية** : بقلم : هونيكمان : م 15.
10- الموسوعة الفلسطينية .

المراجع الأجنبية:

1- Muir; The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt .
2- Howorth ;History of the Mongols . vol lll .
3- Le Strange; Palestine Under Moslems .
4- Hanotaux : Histoire , de ia .a llon Egyptienne (Wiet :Vol lV p.
5.j.(Sauvaget) Noms et sun de Memlouks - Paris 1948
Aziz Surial Atiya : the Crusade in the Later Middle Ages. Methuen . London 6.. 1938.

الملاحق

الملحق رقم (1)

تعريف بالمواقع والأنهار الواردة في البحث

- **أبو قبيس**: الجبل المشرف على مكة .(صبح الأعشى ، م14، ص 61).
- **أرسوف** : تقع بين قيسارية ويافا من أعمال فلسطين . (صبح الأعشى ، م14، ص 59).
- **أنطرطوس**: هي طرطوس: بلد بالشام مشرفة على البحر قرب المرقب (معجم البلدان ، ج1).
- **أياس** : مدينة مجاورة للاسكندرونة، وكانت حدود سورية مع تركية تبدأ من أياس شمالاً .(دائرة المعارف الإسلامية).
- **باب السر** : مقابل دار السعادة بجوار باب النصر في قلعة دمشق.(معجم البلدان ، ج1)
- **باب النصر** : أحد أبواب مدينة دمشق . (معجم البلدان ، ج1)
- **باناس** : بانياس ؛ مدينة على الساحل السوري . وأخرى في الجولان . (معجم البلدان ، ج1)
- **برزية** : حصن قرب السواحل الشامية قرب اللاذقيةعلى جبل شاهق. (معجم البلدان ، ج1)
- **بصرى** : من أعمال دمشق وهي قصبة في كورة حوران . (معجم البلدان ، ج1،ص441) و(المشترك ، ص 57)
- **بغراس** : مدينة خلف جبل يسمى اللكام ، بينها وبين أنطاكية أربع فراسخ .(صبح الأعشى ، م14، ص 61).
- **بكاس** : قلعتان حصينتان متقابلتان قرب أنطاكية . (صبح الأعشى ، م14، ص62).
- **بلبيس** : مدينة بينها وبين الفسطاط نحو عشرة فراسخ، على طريق الشام من مصر .(معجم البلدان ، ج1، ص 567).
- **بلاطنس** : حصن بالساحل مقابل اللاذقية من أعمال حلب.(معجم البلدان ، ج1).
- **بهنسا** : قلعة حصينة قرب مرعش و سمسياط و رستاقها هو رستاق كيسوم مدينة نصر بن شبث الخارجي أيام المأمون وهي اليوم من أعمال حلب، وهناك أخرى في مصر.(معجم البلدان ، ج1، ص 516).
- **بيروت** : مدينة مشهورة على ساحل بحر الشام، تعد من أعمال دمشق .(معجم البلدان ، ج1).
- **تروجه** : قرية بمصر من كورة البحيرة من أعمال الأسكندرية . (معجم البلدان ، ج2).
- **تل حمدون** : قلعة ببلاد الأرمن كانت قبل أن يهدمها المسلمون قلعة حصينة البناء على تل عال، ولها سور مانع بينها وبين أياس نحو مرحلة وبينها وبين سيس نحو مرحلتين .(معجم البلدان ، ج2).
- **تل العجول** : جهة بين عكا و العائدية .(معجم البلدان ، ج2).
- **تلا** : موقع غربي تبريز في إيران، كان مدفناً لأباطرة المغول . .(معجم البلدان، ج2).

- **ثغر دمياط** : من الثغور المشهورة بمصر في نهاية الفرع الشرقي من النيل ، وكانت بلدة بحرية مهمة جداً .(تشريف الأيام والعصور، ص35 حاشية ، الإنتصار ، م5، ص78-79، صبح الأعشى ، م14، ص 58).

- **جبلة** : المراد هنا حصن من أعمال اللاذقية .(الأعشى م14، ص 61- المشترك، ص95).

- **حارم** : بلدة صغيرة في الشمال الغربي من الجمهورية العربية السورية في محافظة أدلب ، على مقربة من الحدود التركية .(الأعلاق الخطيرة ، م3، ص780).

- **حصن عكار** : يقع إلى الشمال من طرابلس الشام ، حيث بني على جبل يحمل نفس الاسم.(الأعشى م14، ص 62).

- **حصن كركر** : يقع بداخل قلعة بين سمسياط وحصن زياد .(معجم البلدان، ج4 ، ص514).

- **حصن كيفا** : ويقال كيبا ، ضمن بلدة عظيمة مشرفة على دجلة بين أمد وجزيرة ابن عمر من ديار بكر . (معجم البلدان ، ج 2 ، ص 206).

- **حصن الأكراد** : حصن منيع على الجبل الذي يقابل حمص من جهة الغرب ، وهو جبل الجليل المتصل بجبل لبنان ، وهو بين بعلبك وحمص .(معجم البلدان ،ج2، ص 304).

- **حصن منصور** : يقع غربي الفرات قرب سمسياط ، وكان مدينة فيها سور وخندق وثلاث أبواب ، وهو منسوب إلى منصور بن جعونة بن الحارث العامري القيسي . (معجم البلدان ،ج2، ص 306).

- **حصن المرقب**: على الساحل السوري مطل على البحر بين طرطوس وطرابلس .(معجم البلدان ،ج2).

- **حصن مرقية** : قلعة حصينة في سواحل حمص كانت خربت فجددها معاوية ورتب فيها الجند.(معجم البلدان ،ج5 ، ص 128).

- **الخليل** : مدينة مشهورة فيها حصن وعمارة وسوق بقرب البيت المقدس، وفيها قبر الخليل علية الصلاة والسلام في مغارة تحت الأرض .

- **الروحا** : بلد بالساحل من فلسطين .

- **سرمين** : بلدة مشهورة من أعمال حلب . (معجم البلدان ،ج4).

- **سرفندكار** : قلعة من بلاد الروم في واد على الصخر ، وهي على القرب من نهر جيحان إلى شرق تل حمدون على نحو أربعة أميال .(الأعشى ، ج4 ، ص134).

- **سوداق**: أوصوداق: والعامة يقولون سرداق، موقعها على شط بحر القرم، ويقابلها في البر الأخر مدينة سامسون من سواحل بلاد الروم .(معجم البلدان ،ج4).

- **شقيف دركوش أو دريكوش** : حصن قرب أنطاكية من أعمال العواصم.(الأعشى م14، ص 62).

- **شيزر**: بلدة مشهورة غربي حماة ، في وسطها نهر الأردن علية قنطرة وسط المدينة .(صبح الأعشى ، ج14، ص62).

- **شقحب** : قرية في أول عمل حوران من نواحي دمشق بينهما ستة فراسخ جنوب دمشق . (صبح الأعشى ، ج14).

- **صافيتا** : قلعة تقع إلى الشمال من عرقة قرب اللاذقية.

- **صهيون** : حصن حصين من أعمال سواحل بحر الشام من أعمال حمص غير مشرف على البحر، خنادقه أودية عميقة وله ثلاثة أسوار .

- **صرفندة** : قرية من قرى صور من سواحل بحر الشام .

- **العريش** : أول عمل مصر من ناحية الشام على ساحل بحر المتوسط في وسط الرمل . وما تزال أول حدود مصر مع فلسطين على ساحل البحر الأبيض المتوسط . (صبح الأعشى ، ج14).

- **العمق** : بنواحي حلب بالشام . وكان أولاً من نواحي أنطاكية حالياً هو سهل العمق في الشمال السوري . (صبح الأعشى ، ج14).

- **عكار** : قلعة على مرحلة من طرابلس من جهة الشرق بوسط جبل لبنان في واد الجبل المحيط بها. (صبح الأعشى ، ج14 ، ص61).

- **عكا** : مدينة من أشهر موانئ فلسطين . (صبح الأعشى ، ج14).

- **عتليت أو عثليث**: كان ميناء على ساحل فلسطين بين حيفا و طنطورة، وشهرت عتليت في التاريخ القديم ترجع لعصر الحروب الصليبية ففي سنة 583 ه/1284م سقطت بيد صلاح الدين – وفي سنة 690 هـ/1291م فتحها الأشرف خليل، ثم أصبحت كورة واسعة في أخر حدود المملكة الصفدية . (صبح الأعشى ، ج14).

- **العليقة** : أحد بلاد الدعوة أو أحد حصون الإسماعلية بالشام (صبح الأعشى ، ج14).

- **قرقيسيا** : بلدة على نهر الخابور قرب رحبة مالك بن طوق على بعد ستة فراسخ ، وعندها مصب الخابور في الفرات (معجم البلدان ،ج4 ، ص373) .

- **قشتالة** : أقليم عظيم بالاندلس. (معجم البلدان ،ج4 ، ص400) .

- **القواعد**: هي العواصم، وهي هنا: الفسطاط والقطائع والقاهرة. (صبح الأعشى ، ج14).

- **قلعة المسلمين (قلعة الروم)** : هي قلعة من جند قنسرين في البر الغربي الجنوبي من الفرات في الجهة الغربية الشمالية عن حلب على نحو خمسة مراحل منها، وفي الغرب عن البيرة على نحو مرحلة، والفرات بذيلها. (صبح الأعشى ، ج14).

- **قلعة حموص** : وهي من بلاد سيس، كانت للأرمن جنوبي جيحان في الشمال السوري . (صبح الأعشى ، ج14).

- **قلعة مرعش** : قلعة ومدينة في الثغور بين الشام وبلاد الروم .

- **قاقون**: حصن بفلسطين قرب الرملة من عمل قيسارية (معجم البلدان ، ج4، ص339. صبح الأعشى،ج14، ص59).

- **الكابرة** : قرية شمالي شرق عكا . (صبح الأعشى،ج14، ص64).

- **الكرمل** : حصن على الجبل المشرف على حيفا بسواحل الشام ، وكرمل ؛ قرية في آخر حدود الخليل من ناحية فلسطين . (صبح الأعشى، ج14).

- **الكرك أو المملكة الكركية** : تعرف بالشوبك لمقاربتها لها ، وهي في البلقاء ، والشوبك في جبل الشراة ، والصلت تقع جنوبي عجلون ، وجميع هذه المناطق هي اليوم في الأردن . (صبح الأعشى، ج14، ص58).

- **الكُوَرُ** : مفردها كورَةُ : المدينة أو الصُقعُ .(صبح الأعشى، ج14).

- **اللد** : بلده من جند فلسطين، بينها وبين الرملة ثلاثة فراسخ .

- **اللجون**: بلد بالأردن بينه وبين طبرية عشرون ميلاً، وإلى الرملة مدينة فلسطين أربعون ميلاً . (صبح الأعشى،ج14).

- **اللاذقية**: مدينة في ساحل بحر الشام تعد من أعمال حمص، وهي غربي جبلة بينهما ستة فراسخ.

- **مراغة**: بلدة مشهورة عظيمة من أعظم وأشهر بلاد أذربيجان(معجم البلدان،ج5، ص109)

- **موقع الكوم** : حوضة في شمال شرقي الجبال التدمرية الشمالية، تتوسطها قرية الكوم، ناحية السخنة، منطقة تدمر، محافظة حمص .

- **مرج راهط** : شمال دمشق عند قرية عذراء، وكان يعرف بمرج عذراء .

- **مرج الصَّفر** : يقع إلى الجنوب من دمشق .

- **المصيصة** : مدينة على شاطى جيحان من ثغور الشام بين أنطاكية وبلاد الروم، تقارب طرطوس . (صبح الأعشى ، ج14).

- **المناصفات الساحلية**: هي البلاد التي كانت تقسم غلاتها مناصفة بين السلطان والفرنجة، مثل اللاذقية. (صبح الأعشى ، ج14).

- **مملكة نابلس**: تقع في فلطسين ، كانت تسمى Neapolis واسمها القديم الأشهر شكيم Sichem .(صبح الأعشى،ج14، ص59).

- **نفير**: حصن منيع من بلاد سيس جنوبي جيحان، ويقع في الشمال السوري .

- **نهر الأزرق**: نهر بالثغر بين بهنسا وحصن منصور في طرف بلاد الروم .(معجم البلدان).

- **نهر جيحان** : يخرج هذا النهر من آسيا الصغرى عند زبطره Zabatarah وتقع عليه مدينة المصيصة، ويصب في بحر المتوسط على مسافة قريبة منها.(معجم البلدان).

- **نهر العوجا(الأعوج)** : نهر كان ينبع من سفوح جبل الشيخ ويمر جنوب مدينة دمشق، ويصب في بحيرة الهيجانة . (صبح الأعشى،ج14، ص59).

- **النبك**: قرية بين حمص ودمشق، فيها عين عجيبة باردة في الصيف صافية عذبة .

- **وادي مجمع المروج** : شمال حمص قرب الرستن .(معجم البلدان).

- **يافا** : مدينة على ساحل الشام من أعمال فلسطين بين قيسارية وعكا .

ملحق رقم (2)

المصطلحات الوارد ذكرها في الإطروحة

- **أمير جاندار**: وموضوعها أن صاحبها يستأذن على دخول الأمراء للخدمة ويدخل أمامهم إلى الديوان .

- **أمير شكار**: هو المسئول عن طيور السلطان المخصصة للصيد مثل الصقور والجوارح .

- **البريد** : نظام كان يتعلق بأمن الدولة مهمته التجسس على عمال الدولة وأعدائها والإبلاغ عن كل ما يقع في الولايات من أحداث ، والبريد كلمة فارسية .

- **البندقدار** : هو الذي يحمل جراوة البندقة خلف السلطان أو الأمير .

- **البيمارستان** : كلمة فارسية مشتقة من لفظي بيمار أي مريض، ستان ؛ وتعني المكان أو الموطن أي المكان الذي فيه المرضى . وهو ما نسميه بالمشفى .

- **الجاليش** : معناه الراية العظيمة في رأسها خصلة شعر، ثم أطلقت على مقدمة القلب في الجيش أو على الطليعة .

- **الجاشنكير** : هو الذي يقوم بذوق المأكول والمشروب قبل السلطان أو الأمير خوفاً من أن يدس عليه السم .

- **الجاميكة** : وهي الرواتب التي تصرف للمحاربين، وهذه الكلمة أصلها فارسي .

- **الجوكندار**: يتركب هذا الاسم من كلمتين فارسيتين، الأول الجوكان(المجن أو الصولجان) والثانية دار ومعناها ممسك، فيكون معناها حامل الصولجان .

- **الأحباس والأوقاف** : حفظ العقار من التنديد، وتخصيص دخله إما لأسرة مؤسس الوقف وإما إلى مؤسسة دينية،وفي عصر المماليك انفصلت الأحباس عن الأوقاف وصار لكل منهما ديوان مستقل .

- **الحسبة** : وظيفة دينية قوامها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

- **الختم** : كتاب يعده الجهبذ سنوياً، ويختص بجهات العين من سائر الأموال، ويبين فيه الوارد والمنصرف، لذلك يسمى الختمة الجامعة .

- **الختمة** : كتاب يعده الجهبذ شهرياً بجملة المتحصل والمنصرف .

- **الخاصكية** : فرقة من الجند مقربون للسلطان وملازموه في خلواته ويسوقون المحمل الشريف، ومنهم يؤمن كبار الأمراء كالنائب والوزير.

- **الخراج** : ما يخرج من غلة الأرض، وأيضاً المال الذي يُحصل في أوقات معينة ، وهو على الأراضي الزراعية التي بقيت بأيدي أهل الذمّة من اليهود والنصارى.

- **الخرجية** : عامة الأمراء ودون الخاصكية في المركز الأدبي والمادي .

- **الخرس** : الأرض الفاسدة بسبب ما فيها من موانع للزراعة، ولا يتم زراعتها إلا بعد إزالة هذه الموانع، وتعتبر تاسع أنواع الأراضي من حيث القيمة .

- **الخازن** : أحد الكتاب المكلفين بقبض وتخزين الغلال و إخراجها وقت الطلب .

- **الخان** : كلمة فارسية بمعنى المكان المعد للإقامة المسافرين من تجار وغيرهم .

- **الخانقاه** : لفظ فارسي يعني المائدة أو المكان الذي يأكل فيه الملك، ثم أطلق اللفظ على الدور الضخمة التي يقوم على إنشائها الملوك والأمراء من أجل إيواء غرباء المسلمين، وتعني أيضاً رباط الصوفية .

- **خمس الغنائم والمعادن** : مقدار المال المحصل لصالح بيت المال من أسلاب الحرب والمعادن المستخرجة .

- **الخولة** : مفردها خولى، وهو عامل حكومي يتولى مراقبة العمال أثناء العمل .

- **الخواصين** : مالك أرض أو عقار أو الذي يزن الأشياء بصفائح الذهب

- **دار السعادة** : كانت دار للملك الأمجد الأيوبي صاحب بعلبك، ثم امتلكها الملك الأشرف، وفي العصر المملوكي أصبحت مقراً لنواب دمشق، وكان موضعها غربي التكية الأحمدية، ثم استعملها في بقية حكام الممالك المملوكية .

- **الدوادار** : اسم فارسي مكون من لفظين : دوات ؛ وهي دواة الحبر، ودار ؛ بمعنى المنزل أو الدار، والمعنى حامل الدواة، وصاحب هذه الوظيفة عليه تبليغ الرسائل من والى السلطان، وتقديم البريد ويأخذ الخط على عامة الكتب والمناشير.

- **ديوان الجيش** : لا يكون صاحبه إلا مسلماً، وله الرتبة الجليلة والمكانة الرفيعة بين يديه حاجب، وإليه عرض الأجناد وخيولهم .

- **الدينار الجيشي** : لم يكن عملة سارية في التعامل بل مقياساً لدخل الإقطاعات .

- **الرطل الدمشقي** : أكثر من 2/5 كغ أي أن وزن الحجر الذي يقذفه المنجنيق يزيد عن 300كغ .

- **الروك**: كلمة قبطية تستخدم للدلالة على عملية مسح الأراضي الزراعية لتقدير الخراج المستحق لبيت المال، وكان الخراج هو المنبع الرئيسي لدخل الدولة ومنه تفرق أعطية الجند ورواتب الولاة وموظفي الدولة .

- **الزراقون أو النفاطون** : هم الذين يحملون بأيديهم قوارير فيها مواد مشتعلة تمرنوا على إشعالها وإلقائها على الأعداء

- **الزكاة** : البركة والنماء، وفي الشرع، جزء من المال ونحوه يوجب الشرع دفعه للفقراء بشروط خاصة .

- **زكاة الدولبة**: هي ما كان يؤخذ من أصحاب الأموال ولو عدم المال، وإن مات عن فقر أخذ ذلك من ورثته . وقيل ؛ كانت تفرض على كل مستخدم للدواليب أي أنها ضريبة على الآلات المستعملة في الصناعة كالري والغزل والسكر وغير ذلك .

- **الإسبتارية**: طائفة دينية عسكرية مسيحية ، مركزها في عكا وهم يقابلون " المرابطين " في الدول الإسلامية تقريباً ، وقد نذروا أنفسهم لحرب المسلمين والعبادة ، وهم أعضاء الهيئة العسكرية الدينية التابعة لمستشفى القديس يوحنا في القدس ، وعندما تحررت القدس انتقلوا إلى عكا ثم إلى قبرص ثم إلى رودس ، وقد قضى السّلطان سليمان الكبير على عدد كبير منهم ، فالتجئوا إلى جزيرة مالطة سنة 1530 م، وفي سنة 1798 م قضى عليهم نابليون بونابرت نهائياً وأصبحوا أثراً بعد عين .

- **الأستادار** : هو المتحكم في أمر البيوت السلطانية كلها : من مطبخ وحاشية وخدم، وله استدعاء ما تحتاج إليه هذه البيوت من متطلبات ونفقات و كساوى .

- **الإسفسهلار**: قائد الجيوش .

- **السنجق** : هو العلم والراية، منها راية في رأسها خصلة من الشعر تسمى الجاليش، والأخرى تسمى السنجق .

- **شعار السلطنة** : يتضمن أنواع الملابس والأدوات والترتيبات التي كان السلطان يظهر بها في موكب السلطنة وغيره من المواكب .

- **الشاهد** : عقد ذو عدة صور، تعطى صورة منه لصاحب الحق، وصورة أخرى تثبت بالديوان، وهو أسم فاعل من شهد، وكان أحد كتاب الأموال غير المكلفين بعمل الحسابات لكنه يشهد بمتعلقات الديوان .

- **الصاحب** : استخدم لفظ الصاحب أولاً كنعت شخصي، ثم كلقب فخري عام واسم وظيفة . وقد أطلق لقب "الصاحب" في عصر المماليك على الوزراء المدنيين .

- **الصك** : مستند يكتب به أسماء المستحقين للعطاء وعددهم، ويوقع السلطان في آخره بالسماح لهم بصرف مستحقاتهم .

- **الصالحي** : لأنه كان من مماليك السلطان الصالح أيوب .

- **الصيرفي** : الشخص الذي يتولى تحصيل الأموال وصرفها .

- **الطواشي** : هم المعروفين بالخدم، وكان لهم في دولتهم مكانة جليلة .

- **العصائب** : جمع عصابة، وهي إحدى الرايات السلطانية، وهي راية عظيمة من حرير أصفر مطرزة بالذهب، عليها ألقاب السلطان واسمه .

- **الأعلام السلطانية** : كان علم المماليك من حرير أصفر مزركش وهلاله من ذهب .

- **الفرسخ** : ثلاثة أميال، والميل ثلاثة آلاف ذراع بالهاشمي، وهو أربعة وعشرون أصبعا.

- **الفندق** : كلمة يونانية "باندكيون "وهو المكان المخصص للإقامة أيضاً (نزل) .

- **القبجاق** : فرع من الترك مساكنهم الأصلية حوض نهر أرتش، ثم تنقلوا حتى استقروا بحوض نهر اتل (الفولغا) جنوب روسيا، حيث عرفت هذه المنطقة باسم القبجاق كما عرفت به أيضاً دولة المغول المسماة القبيلة الذهبية .

- **القصر الأبلق** : كان يشرف على الميدان الأخضر، أنشأه الملك الظاهر بيبرس .

- **قاضي القضاة** : أول ما استقرت قضاة الديار المصرية أربعة من كل مذهب قاض، في عصر الظاهر بيبرس حيث جعلوا لكل مذهب قاض يقضي حسب مذهبه، وهذه الوظيفة من أرفع الوظائف الدينية وأعلاها قدراً وأجلها رتبة .

- **القيسارية** : بناء من عدة طوابق لعرض السلع التجارية فقط .

- **الكارم** : أصلها الكانمي نسبة إلى الكانم ؛ وهم فرقة من السودان كانوا بمصر يتاجرون في البهار المجلوب من اليمن فعرف بهم .

- **الكراديس**: جمع كردوسة، وهي الغرفة الحربية الراكبة، والقطعة العظيمة من الخيل .

- **الكوسات** : تروس من نحاس يضرب بأحدهما الآخر، وهي الآلة النحاسية الرئيسة في فرق الموسيقى العسكرية .

- **المدى** : المدى أربعون في مثلها وتكسيره ألف وستمائة ذراع بذراع العمل، و التكسيرة هنا عملية الضرب في الحساب، وقيل كل أربعمائة في التكسير يعبر عنها ببغداد، وهو ربع وعشرون قيراطاً، كل قيراط ست عشر قصبة في التكسير، والمقصود بذراع العمل مقياس معين، ولعله الذراع الذي كان يقاس به أرض السواد بالعراق، وطوله ثلاث أشبار .

- **المرسوم** : كلمة المرسوم أخذاً من قولهم ؛ رسمت له كذا إذا امتثله، أو من قولهم : رسم على كذا إذا كتب، ويحتمل أن يكون منها جميعاً، وهو على المراسيم المكبرة، المراسيم التي تكتب بالولايات المراسيم الصغيرة .

- **المستوفي** : موظف مالي علية مراجعة حسابات المباشرين ومحاسبة أصحاب الكيل على استحقاقاتهم والتنبيه على حمل الموارد إلى بيت المال وعمل المقايسات .

- **المشارف** : أحد كتاب المال، وكان مسئولاً عن الأشراف على الحاصل والختم عليه وعمل جميع الحسابات والتوقيع عليها إذا توفي العامل .

- **المشد**: موظف مالي له سلطة المراقبة والإشراف والتفتيش، وغالباً يلجأ إلى الشدة في عمله .

- **المكس**: الجباية وهو ما يأخذه أعوان الحاكم على البيع والشراء، وكان يحصل في الموانئ .

- **المكوك** : وهو مكيال للحبوب يسع صاعاً ونصف الصاع، والصاع قدر نصف و يبة و الويبة ثلاث كيلات، ويساوي ربع إردب أو 62.3 كيلو غرام .

- **الألفي** : سبب تسميته بالألفي أنه اشتري بألف دينار .
- **مقرر النصارى** : هو ما يجنى من أهل الذمة .
- **مهاميز** : حديدة تكون في رجل الفارس يوخز بها الحصان فيسرع .
- **النائب** : كاتب يتبع صاحب الديوان، ويطالب بالحسابات والإجابة عن الرسائل، ونائب السلطنة هو من ينوب عن السلطان .
- **الأهراء السلطانية** : هي مستودعات غلال الدولة أو حواصلها، و بها كانت تحفظ الحبوب .
- **الوكالة** : فندق ينزل به التجار وبضائعهم ودوابهم للقيام بعمليات البيع والشراء.

ملحق رقم (3)

كلمات مملوكية مع معانيها بالعربية [1]

- آزاد : الحُّر القويٌّ .
- آزادمرد : الرجل الحر القوي .
- آق : أبيض .
- آقباي : الغني الأبيض .
- آقبيق : الشارب الأبيض .
- آقتمرٌ : الحديد الأبيض .
- آقخجا : العملة البيضاء .
- إقطاي : المُهر الأبيض .
- آقطوه : الجبل الأبيض .
- آقُّوش : النسر الأبيض .
- آلتون : الذهب .
- آلتونجي : صانع الذهب .
- آلّجي : الذي في المقدمة .
- آلّجيبغا : الثور الذي في المقدمة .
- آنّوك : المستشار .
- آي : القمر .
- آينال : ظهور القمر .

أبازة، أباظة : أقرباء الأنجاز .

- أتابك : الأب القائد .
- أتْسِز : بدون حصان .
- أُراق : المنجل .
- أُرتق : الشريك .
- أرجواش : الجميل اللطيف .
- أردباي : الجميل جداً .
- أردبُغا : الثور الجميل .
- أرسلان : الأسد .

---

(1) مصدر هذا الملحق مخطوط مشروع كتاب للمشرف سينُشر قريباً.

- أرغون : الحصان السريع .
- أرِقطاي : المُهر الضامر .
- أستادَّار : صاحب المهارة .
- الأسفهلار : القائد الأعلى للجيوش، وهو لقب السلاطين .
- أسنباي : ذو الهمّة العالية .
- أسَنْبُغا : الثور القوي .
- أسندمر : أساس الصحة .
- أغري بوز : العجل المبارك .
- ألب : العظيم .
- أندبور : المفلس .
- أُنَر : الراضي .
- أوكوز : الثور المخصي .
- أُويس : الذئب .
- أياس : نسيم الليل .
- أيبك : القمر العالي .
- أتميش : القائل .
- إيلخان : حاكم البلد .
- إيلغازي : غازي البلد .
- إنياق : الدلاَّل .
- باشا : رجل الملك .
- باغ : رائحة الحديقة .
- باي : الغني .
- بختيار : الشاب الظريف .
- بردبك : كثير العطاء .
- برسباي : الرجل المهّم .
- تغري بردي : عطية الله .
- نكتَمُر : الحديد الصلب .
- بكلربك : سيد الأسياد .
- بُلاط : فولاذ .

- بلفاق : فتنة .
- بندقدار : المسؤول عن البندق (للرمي) .
- بهادُر : البطل .
- بوري : الذئب .
- بوظو : عجل .
- بيبرس : الأمير الفهد .
- بيدرا : اسم عائلة تركماني .
- بيدمر : الحديد الصلب .
- بيرم : عيد الفطر .
- بيسق : أصبح غنياً .
- تتش : المصارع .
- قلابغا : ثور القلعة .
- تمر باي : المشرف على الحديد .
- تنكز : البحر .
- تيمور : الحديد .
- جان : الروح .
- جالق : المنجل .
- جانباي : ذو الروح الغنية .
- جانبردي : المضحّي بروحه .
- جانبلاط : الروح الفولاذية .
- جانتمر : الروح الحديدية .
- جاندار : المنجد .
- جاويد : الخالد .
- جُجُكبغا : الثور الهائج .
- جردَمُر : حديد الأرض .
- جقمق : الفَدَّاحة .
- جمدار : حامل المرآة .
- جمقدار : القاصُّ .
- جنقرجي : المشاغب .

- جنكلي : بدر الدين .
- جوبات : الراعي .
- خجا : المعلم .
- خجابردي : عطية المعلم .
- خدابردي : عطيَّة الله .
- خورشيد : الشمس .
- خوش بوش من خشداشية : يعني الصداقة الحميمة .
- خوند : لفظ تعظيم للرجال والنساء .
- دوادار : ممسك الدواة .
- دمُرداش : الحديد الحجري .
- سلاَّر : الزعيم .
- شادي : المبتهج .
- شيركوه : أسد الجبل .
- شهريار : الشمس .
- صاروجا، ساروجا – الأبيض الضارب إلى الصفرة .
- طرخان : الشريف المتقاعد .
- طُرنطاي : الباز .
- طشتمُر : الحجر الحديدي .
- ططر : تتر .
- طغجي : حامل الراية .
- طقتمر : الحديد القاسي .
- طغتكين : الباز المقاتل .
- طيبرس : المهر السابق .
- طيبغا : المهر السابق .
- قايماز : الذي لا يتراجع .
- قجماس : الذي لا يهرب .
- قرابغا : الثور الأسود .
- قراجا : المائل إلى الأسود .
- قراسنقر : النقر الأسود .

- قراطاي : المهر الأسود .
- قراقوش : النسر الأسود .
- قراكوز : ذو العين السوداء .
- قرقماس : الذي لا يخاف .
- قطز : حيوان الماموث .
- قطلوشاه : الأمير السعيد .
- قلاوون : البَّطة .
- قلج : الحسام .
- كرجي : الخصم .
- كوكبوري : الدب الأزرق، وهو أمير أربيل وصهر صلاح الدين وأول من احتفل بالمولد النبوي في العالم الإسلامي .
- كيوان : زُحل .
- مُنجك : المشعوذ .
- منكوتمر : الحديد الذي لا يفنى .
- منكورش : عطية الله .
- ياغي : العدو .
- يخشباي : السيد الطيب .
- يغمور : المطر .

ملحق رقم (4)

سلاطين دولة بني قلاوون

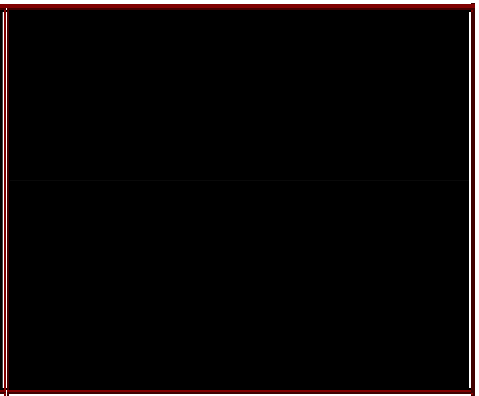
1- المنصور سيف الدين قلاوون	678 - 689هـ / 1279 - 1290م
2- الأشرف خليل بن قلاوون	689 – 693هـ / 1290 - 1293م
3- الناصر محمد بن قلاوون	698 – 708 هـ / 1298 – 1308م
4- المظفر بيبرس الجاشنكير	708 – 709 هـ / 1308 – 1309م
5- الناصر محمد بن قلاوون	709 – 741هـ / 1309 – 1341م
6-المنصور سيف الدين بن الناصر محمد	741- 742 هـ / 1341م
7- الأشرف علاء الدين كجك بن الناصر محمد	742 – 743 هـ / 1341- 1342م
8- الناصر شهاب الدين أحمد بن الناصر محمد	743 هـ / 1341م
9-الصالح عماد الدين بن الناصر محمد	743- 746هـ / 1342 – 1345م
10-الكامل سيف الدين شعبان بن الناصر محمد	746 – 747 هـ / 1345 – 1346م
11-المنصور حاجي بن الناصر محمد	747- 748هـ / 1346- 1347م
12- الناصر حسن بن الناصر محمد	755- 762هـ / 1354- 1361م
13- المنصور محمد بن المظفر حاجي	762- 764هـ / 1361- 1363م
14-الأشرف شعبان بن حسين بن الناصر محمد	764 – 778هـ / 1363- 1376م
15- المنصور علي بن الأشرف شعبان	778- 783هـ / 1376- 1381م
16- الصالح أمير حاج بن الأشرف شعبان	783- 784هـ / 1381- 1382م
17- الملك الظاهر سيف الدين برقوق	784- 791هـ / 1382 – 1389م
18- المنصور أمير حاج بن الأشرف شعبان	791- 792هـ / 1389- 1390م .[1]

(1) سرور، محمد جمال الدين: دولة بني قلاوون في مصر، مطبعة الاعتماد، القاهرة، 1947م ، ص 400 .

ملحق رقم (5)

نماذج العملات المملوكية

al-Ashraf Khalil
689-693AH/1290-1293AD
الأشرف صلاح الدين خليل بن قلاوون

			
MK1001 Dirham Hamah DM Balog 152A/ SNAT 293-304	**MK1002** Fractional Dirham Dimashq DM Balog 152	**MK1003** Fractional Dirham Dimashq DM Balog 152	

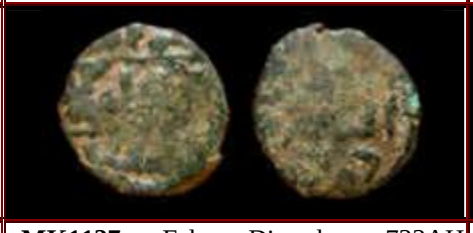
l-Mansur Qala'un
678-689AH/1279-1290AD
المنصور سيف الدين قلاوون الألفى

			
MK901 Dirham al-Qahirah 678 or 679 Balog 121	**MK902** Dirham al-Qahirah Balog 126	**MK903** Dirham al-Qahirah Balog 127	**MK904**Fractional Dirham al-Qahirah Balog 127
			
MK905 Dirham Hama Balog 135b SNAT 224-242	**MK906** Fals Dimashq 679AH NIB		

al-Nasir Muhammad I
693-694 698-708 709-741AH
1293-1294 1299-1309 1310-1341AD
الناصر محمد بن قلاوون

			
MK1101 l-Qahirah NIB	**MK1102** MM NIB	**MK1103** Dirham NM ND Balog ___	**MK1104**Dirham Halab DM Balog 203
			
MK1105 Dirham Halab 7xxAH Balog 203	**MK1106** Dirham Hamah DM Balog 204+	**MK1107** Dirham Hamah DM Balog 204+	**MK1108** Dirham Hamah DM Contemporary Forgery Balog 204+

			
MK1109 Dirham MM DM Balog ___ SNAT 323?	**MK1110** Dirham Hamah DM Balog 204-210/ SNAT 317-324	**MK1111** Fractional Dirham MM DM Balog 212	**MK1112** Fractional Dirham Halab DM Balog 212
			
MK1113 Fals Dimashq 715 Balog 216	**MK1114** Fals al-Qahirah ND Balog 221	**MK1115** Fals NM ND Balog 230	**MK1116** Fals NM ND Balog 230
			
MK1117 Fals Halab ND Balog 230	**MK1118** Fals Tarablus ND Balog 235	**MK1119** Fals Halab NIB	**MK1120** Fals Dimashq 720AH Balog 244

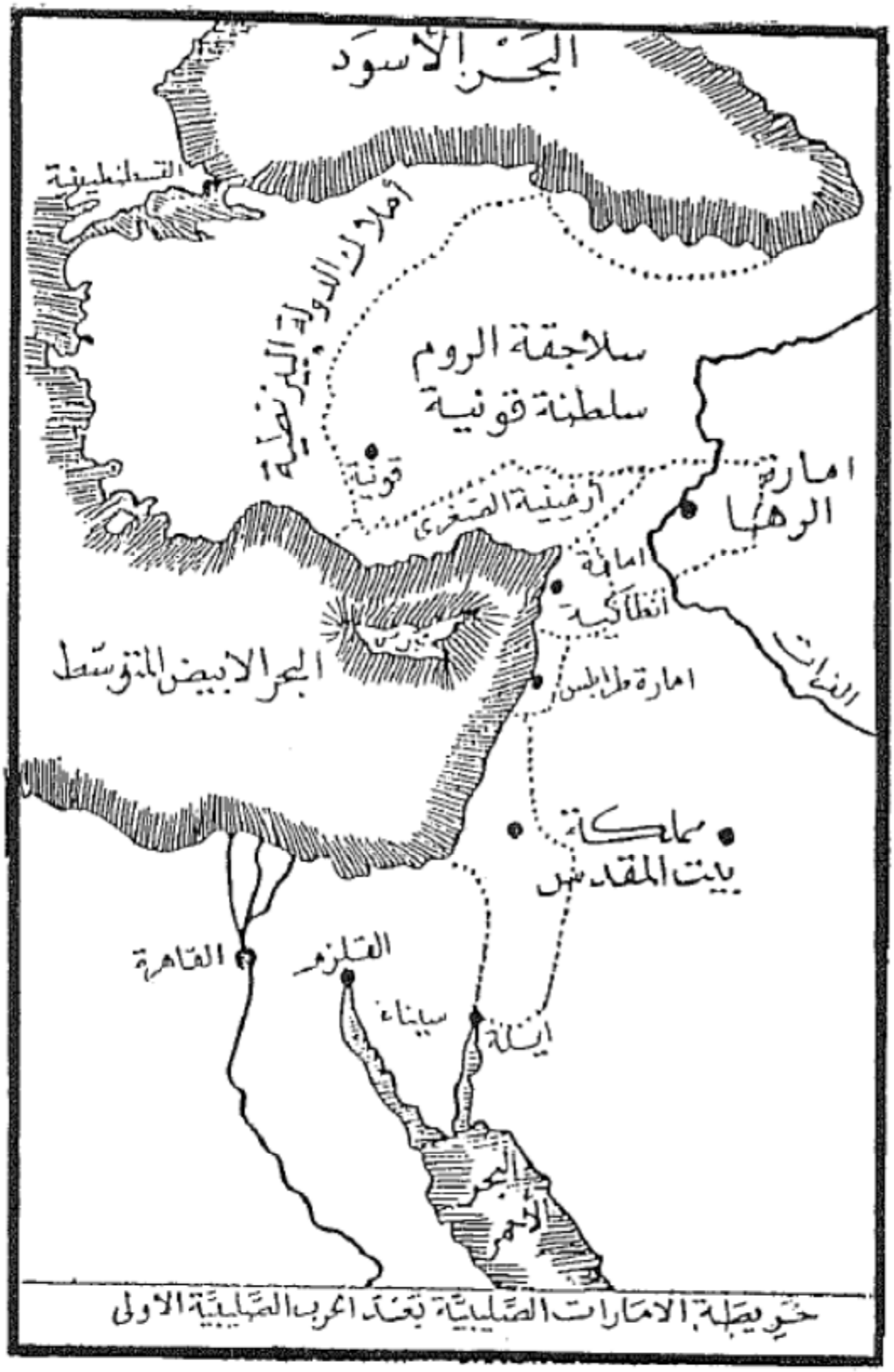
			
MK1121 Fals Hamah 740AH Balog 245 SNAT 391-396	**MK1122** Fals Hamah 740AH Balog 245 SNAT 391-396	**MK1123** Fals Hamah 740AH Balog 245 SNAT 391-396	**MK1124** Fals Hamah 740AH Balog 245 SNAT 391-396
			
MK1125 Fals Dimashq ND Balog 246	**MK1126** Fals Dimashq ND Balog 246	**MK1127** Fals Dimashq 733AH Balog 248	**MK1128** Fals Dimashq 733AH Balog 248
			
MK1129 Fals Hamah 698-708AH Balog 251a SNAT 328-330	**MK1130** Fals Hamah 698-708AH Balog 251a SNAT 328-330 ¤	**MK1131** Fals NM ND Balog 257	**MK1132** Fals Halab 717AH Balog 260

ملحق رقم (6)

الخرائط



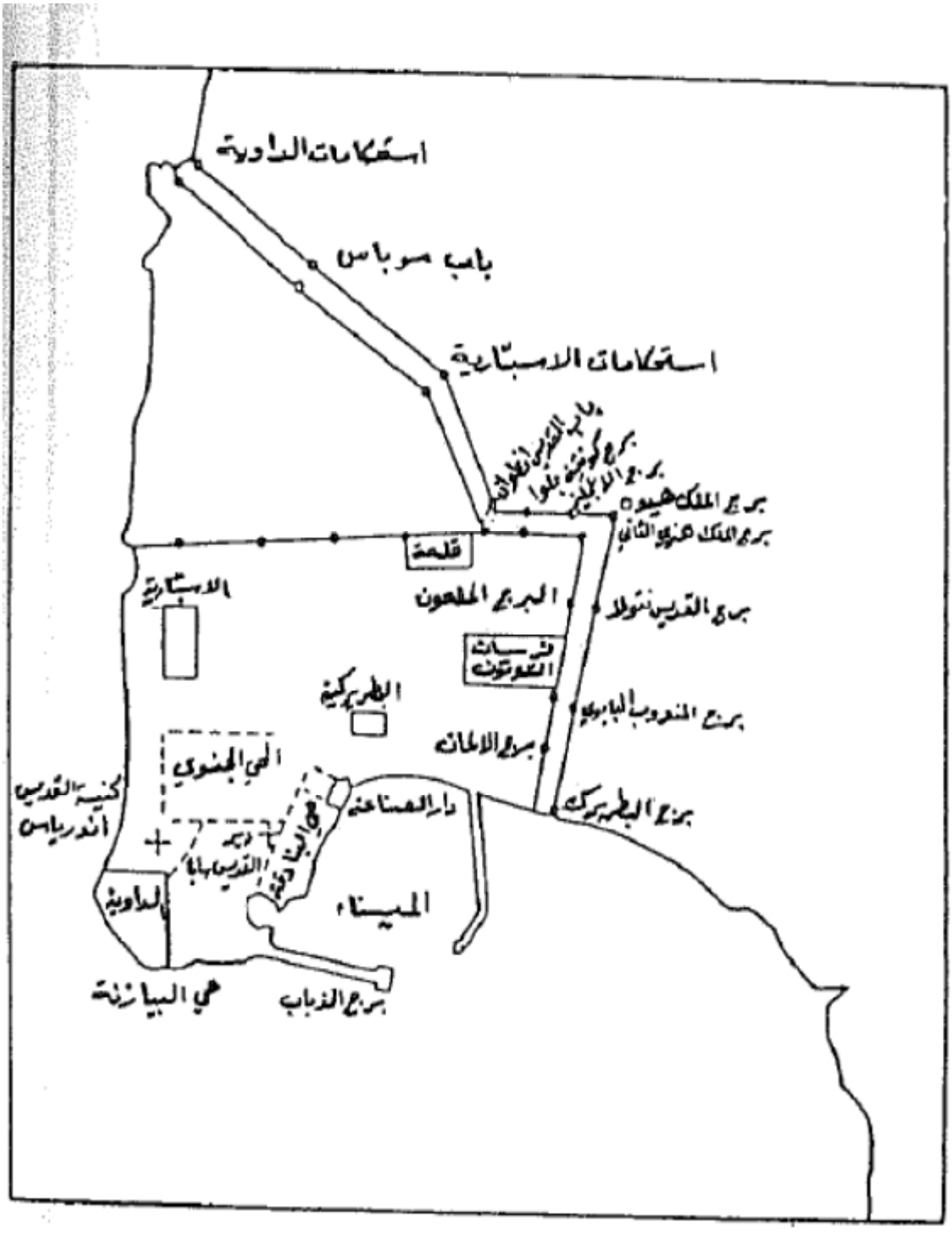
عن كتاب مصر وبلاد الشام في عصر الأيوبيين والمماليك - لمؤلفه سعيد عاشور



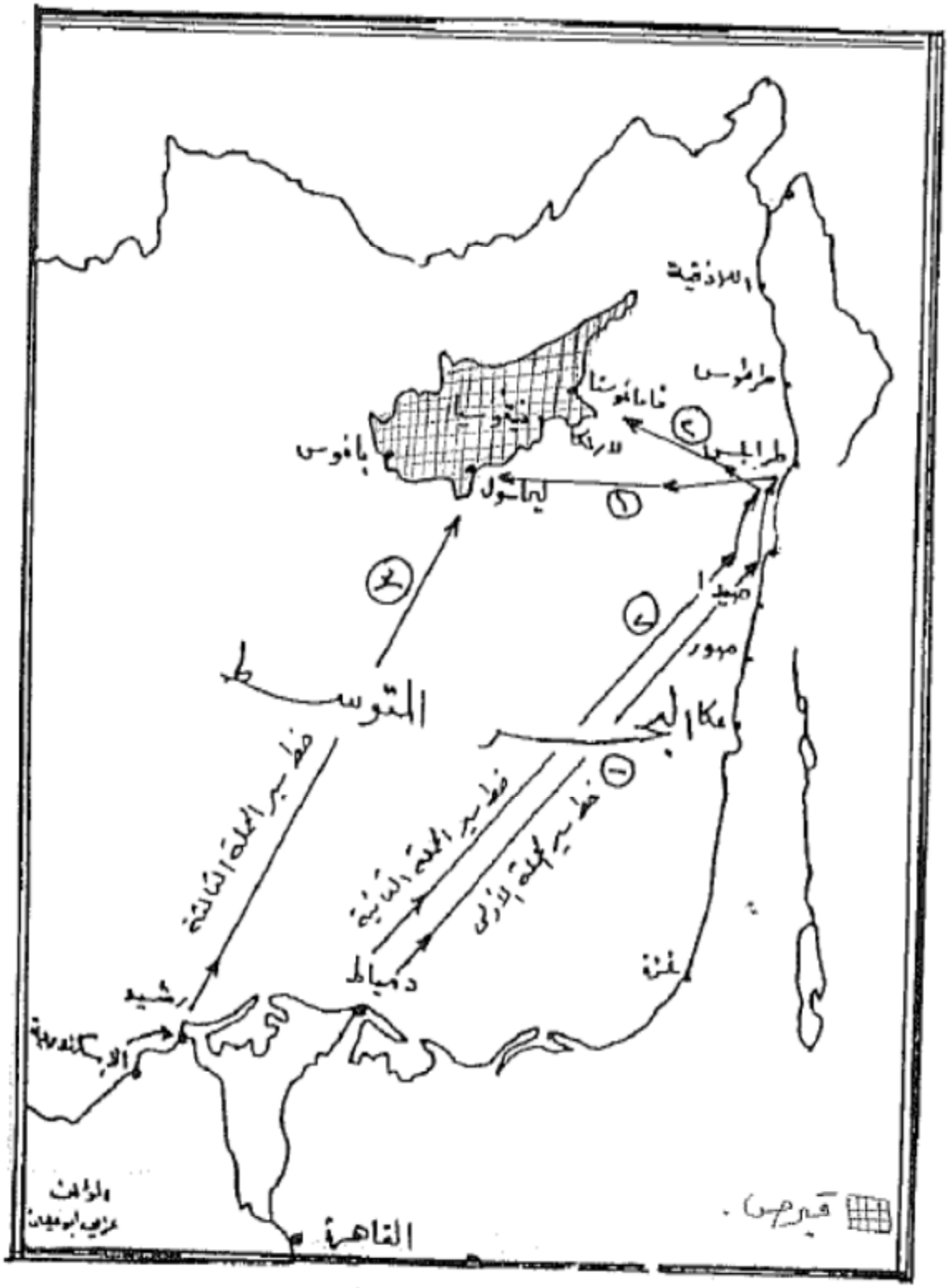
خريطة الامارات الصليبية بعد الحرب الصليبية الاولى

عن كتاب تاريخ الحروب الصليبية في المشرق - لمؤلفه سعيد برجاوي

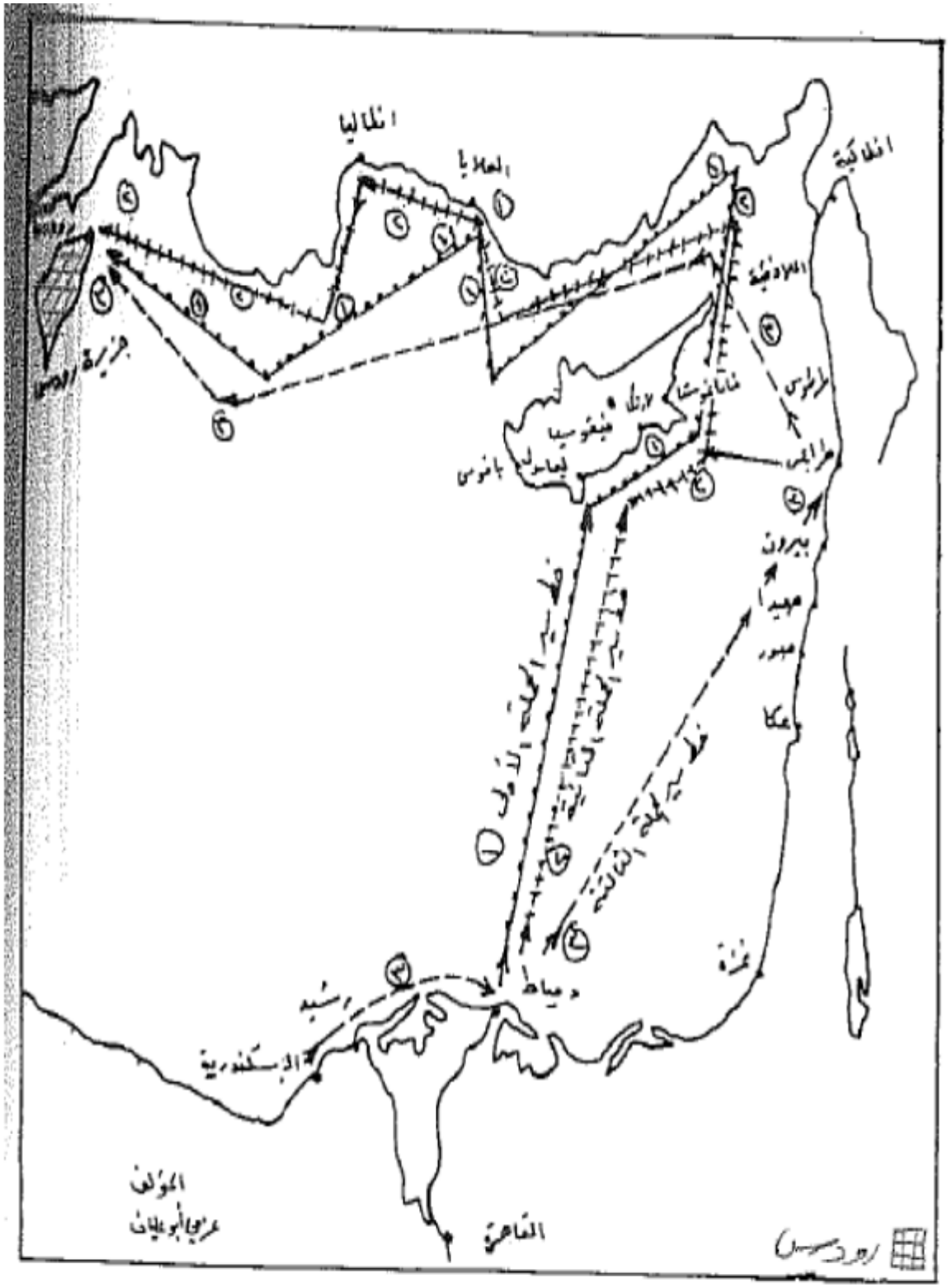

المعاقل الصليبية في بلاد الشام
المناطق التي حررها السلطان الظاهر بيبرس
المناطق التي حررها السلطان المنصور قلاوون
المناطق التي حررها السلطان الأشرف بن قلاوون
المؤلف
عزمي أبو عليان
حلب
حماه
حمص
دمشق
طرابلس
بيروت
صيدا
صور
عكا
حيفا
عثليث
قيسارية
أرسوف
يافا
جنين
نابلس
القدس
غزة
الخليل
الساحل
الأفقية
جبيل
مملكة بيت المقدس (عكا)



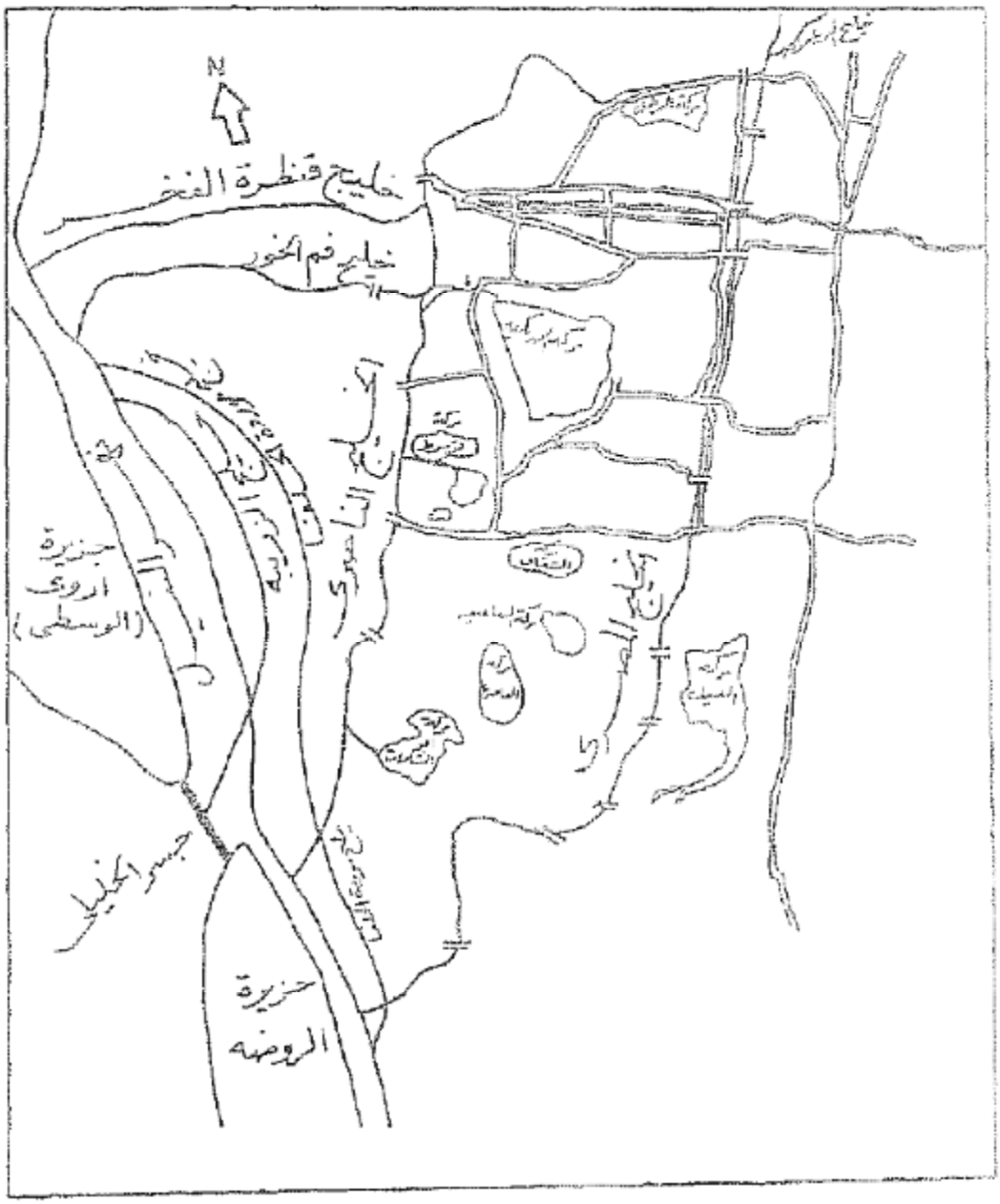
عكاسنة ١٢٩١م



حملات المماليك على جزيرة قبرص



حملات المماليك على جزيرة رودس



خلجان القاهرة في العصر المملوكي